السباق الدولي
في مجالات العلم

بقلم: وجيه السمان

أنباء الفضاء

من المعلوم ان السباق على فتح الفضاء لايزال مقتصراً على الدولتين الكبيرتين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي فهما وحدهما اللتان توليان شؤون الفضاء عناية زائدة وهما تنفقان على تجارب الصواريخ والتوابع الصنعية المليارات من الدولارات سنوياً. وبينما نرى انهما تستعدان لغزو القمر في بضع سنين وتعدان لذلك عدة هائلة. نراهما ايضاً تهتمان بالكوكبين السيارين الاقربين الى الارض من المجموعة الشمسية، وهما الزهرة والمريخ فقد ارسلت الولايات المتحدة الى الزهرة سفينة الفضاء المسماة: مارينر الثاني وارسل الاتحاد السوفيتي الى المريخ سفينة الفضاء المسماة: المريخ رقم ١.

١ ــ مارينر الثاني:

اطلق الامريكيون هذا القمر في السابع والعشرين من شهر آب في العام الماضي واعطوه محركاً او فلكاً يؤدي به الى المرور امام كوكب الزهرة عن كثب ، وحددوا له مهمة كشف اسرار هذا الكوكب الذي تغطيه السحب دوماً فلا تبصر المراصد من اديمه شيئاً . وكلفوه بارسال المعلومات التي يوفق لالتقاطها الى الارض . فانطلق مارينر على محرك يقع تقريباً بين مدار الارض ومدار الزهرة واخذ يقترب من مدار الزهرة حتى مر في ١٤ كانون الاول الماضي قبالتها وعلى بعد ٣٤٥٠٠ كيلو متراً منها بعد ان قطع في الفضاء مسافة ٢٩٠ مليونا من الكيلومترات في مدة ١٠٩ ايام . وكانت الارض تدور هي ايضاً بالطبع في فلكها في نفس الجهة تقريباً ، بحيث أن البعد بينه وبينها حين التقائه بالزهرة كان ٥٨ مليوناً وثلاثة ارباع المليون من الكيلومترات .

هنا صدرت له من محطة الرصد في الارض اشارة لاسلكية بعث بها من غولدستون في كاليفورنيا ، فلحقت به بعد صدورها بثلاث دقائق وربع الدقيقة فاوعزت الى جهازه الالكتروني بتشغيل الآلة الراصدة الدقيقة واقتطاف جميع المعلومات التي كلف بها وارسالها لاسلكياً الى الارض، فاستلم الاشارة واجاب عليها فوصل جوابه الى الارض بعد تلقيه الاشارة بثلاث دقائق وربع ايضاً .

قامت اجهزته بمسح الزهرة خلال ٤٢ دقيقة مسحاً رأسياً ومسحاً أفقياً واخترق بلا ادنى صعوبة طبقات السحب الكثيفة المحيطة بالكوكب وسجل درجات الحرارة وبعث بحصيلة معلوماته الى الارض بسرعة الضوء اي ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية .

وهكذا جرت يوم ١٤ كانون الاول ١٩٦٢ ابعد مخابرة لاسلكية في

التاريخ فالتقطت على الانتينا المستقبلة (وشكلها كالطبق المستدير ويبلغ ٢٦ متراً ووزنها ١٩٥) فسجلت الاشارات على شريط بلـــغ طوله عشرات الكيلو مترات وكان التسجيل بواسطة ثقوب كل منهـــا هو خبر قائم بذاتـه ولابد لترجمته الى لغة مفهومة من الاستعانة بآلة الكترونية . ويقدر الخبراء انهم سيحتاجون الى اكثر من شهرين لكي ينتهوا من تفسير الرموز التي التقطوها .

ومن اهم النتائج التي عرفت الآن عن كوكب الزهرة هو انـه لايوجـد حولها حقل مغناطيسي كالحقل المغناطيسي الارضي الذي يدير البوصلة ويهدي الملاحين وقد كان الفلكيون في الماضي يعتقدون بوجود حقل مغناطيسي حول الزهرة ربمـا كانت شدته اكبر من شدة الحقل الارضي بخمس مرات . ومع ذلك فان المقياس المغناطيسي المركب في مارينر ٢ ، وهو حساس جداً (تبلغ حساسيته خمسة اجزاء من المليون من الغوص) لم يكشف وجود اي حقل ، مما جعل العلمـاء يعتقدون ان هذا الحقل ان وجد فينبغي ان يكون ضعيفاً جداً .

فلنتصور المسافة التي قطعتها سفينة الفضاء ماريـــنر ٢ خلال تلك الايام المعدودات (١٠٩ ايام) . فلو ان طائرة نفاثة تسير بسرعة الف كيلو متر في الساعة حاولت قطعها لاستغرقت رحلتها ٢٩٠ الف ساعة اي ١٢٢٠٠ يوماً او قرابة ثلاثة وثلاثين عامـاً .

من اهم الاعاجيب في هذه السفينة تمكنها من ايصال اشاراتها الى الارض بالرغم من هذا البعد الهائل ، وشدة الحساسية التي في اجهزة الاستقبال ، الـتي تقدر على كشف اشارات لاسلكية لاتزيد استطاعتها على جزء من مليار مليـار جزء من الوات .

المريخ رقم ١

اطلقت هذه المحطة الفضائية من الاتحاد السوفيتي في اوائل تشرين الثاني ١٩٦٢ ، وسيستغرق رحلتهـا نحو المريخ نحواً من سبعة اشهر بحيث ان المحرك الذي اطلقت عليه سيجعلها تمر في اوائل حزيران المقبل على بعد ١٩٠ الف كيلو متر من المريخ . ولكن تصميم الرحلة يقضي بان ترسل الى المحطة اوامر لاسلكية تصحح مسارها بحيث يخفض بعدها عن المريخ الى ٦ آلاف كيلومتر . وقد اعطى السوفييت بعض الايضاحات عن البرنامج الذي ينتظرون من المحطة ان تنفذه فيما اذا قامت بمهمتها خير قيام :

يتألف المريخ ١ من حجرتين محكمتي الاغلاق : احداهما مدارية والثانية كوكبية ، فاما الحجرة المدارية فتحوي على الاجهزة التي تضمن عمل المحطة اثناء الرحلة نحو المريخ ، بينما تحوي الحجرة الكوكبية على الاجهزة العلمية التي ستبدأ بعملها عندما تقترب المحطة من المريخ . وقد وضعت على الحجرة المدارية المجموعة المحركة المصححة والواح البطاريات الشمسية والمشعات نصف الكروية للمجموعات الضابطة للحرارة والانتينات (الهوائيات).

يبلغ طول المحطة ٣٣٠ سنتمتراً وقطر الحجرة المدارية ١١٠ سنتمتر وعرضها ٤٠٠ سنتمتراً بما في ذلك البطاريات الشمسية والمشعات ووزنها ٨٩٣,٥ كيلو غراماً .

وقد زودت المحطة بالاجهزة العلميه التالية : عدادات لكشف احزمة الاشعاع المحيطة بالمريخ وطيف الاشعاع الكوني ، عدادات لدراسة تركيب الاشعاع الكوني . راديو تلسكوب لدراسة الاشعاع الكوني في مجال الموجات التي يبلغ طولها ١٥٠ مترا و ١,٥ كيلو متراً واجهزة لتسجيل تدفق البروتونات

والالكترونات ذات الطاقة الضعيفة وتكاثف الايونات الموجبة بالقرب من المريخ وفي الفضاء الكوني ومعايير لتسجيل النيازك الصغيرة . واخيراً يوجد فيها كمرات تلفزيون لتنقل الى الارض صوراً من ارض المريخ .

يبقى ضغط الغاز داخل المحطة باستمرار في حدود ٨٥٠ مليمتراً من الزئبق وقد دلت القياسات على أن درجة الحرارة داخل المحطة طبيعية وتتراوح بين ٢٠ — ٣٠ درجة مئوية .

ويوجد داخل المحطة ثلاثة اجهزة اذاعة لاسلكية تبث على ١٠٠٦ متراً و ٣٢ سنتمتراً و ٨٫٥ سنتمترات ، كما يوجد منشئات واجهزة تسجل دلالات الاجهزة العلمية التي تعمل خلال فترات انقطاع البث ثم تنقل المعلومات المسجلة الى الارض اثناء الاتصالات اللاسلكيه .

واذيع مؤخراً انه جرت اتصالات بالراديو مع المريخ رقم ١ في الفترة الواقعة بين ٢٠ شباط و ١ آذار .

وكان بعد المحطة عند الاتصال اللاسلكي يبلغ ٧٨ مليون و ٨٤٣ الف كيلو متر عن الارض وتبلغ سرعة ابتعاده عن الارض ١٤٫٨٤ كيلو متراً في الثانية في الوقت الحاضر .

٣ — كيف يخطط الامريكيون رحلة القمر

وقعت مؤسسة الفضاء الامريكية عقداً مع شركة امريكية لصنع الحجرة التي ستحط على القمر . ويستنتج من هذا التصميم ان خبراء الفضاء الامريكيين قد اتفقوا على حل الوصول الى القمر والعودة منه يدعى بالموعد القمري .

وتفسير القضية هو ان سفينة الفضاء ابولو التي ستحمل رواد القمر ستصل الى نقطة قريبة من القمر متبعة في انتقالها من الارض محركا شكله الهندسي قطع

زائد . وعند وصولها الى تلك النقطة المختارة تقوم بالجام سرعتها بواسطة صاروخ مؤخر . والغاية من هذه العملية هي تحويل محركها الى دائرة حول القمر تبعد عن سطحه ١٦٠ كيلو متراً .

ومتى دارت السفينة على هذا المدار الجديد يحدث فيها انقسام . اذ بينما تواصل دورانها حول القمر، تنفصل عنها الحجرة التي تحمل الرواد فتبدأ بتشغيل صاروخ مؤخر مركب فيها وبذلك تنقص سرعتها بعض الشيء فيستحيل مدارها الى قطع ناقص اوجه ١٦٠ كيلو متراً وحضيضه ١٦ كيلو متراً . وعند وصول الحجرة الى الحضيض تقوم بتشغيل صواريخ مؤخرة اقوى من الاولى ، حتى تتمكن من الهبوط بصورة مائلة على سطح القمر

ولدى العودة من القمر ، تعمل الحجرة على اللحاق بالسفينة ابولو التي تكون بانتظارها دائرة حوله ، فعلى محركها اذاً ان يرتفع بها من سطح القمر حتى يوصلها الى مدار السفينة وعندئذ ينبغي ان تلحق بها بعملية التحاق دورانية . وبعد ان تعود الحجرة الى الالتصاق بالسفينة ابولو تعود كلتاهما الى منطقة الارض .

توليد الكهرباء بالطاقة النووية

يتضمن البرنامج الانكليزي المدني للطاقة الذرية انشاء سبعة مراكز لتوليد الكهرباء موزعة في مختلف انحاء انكلترا . وهي من نفس نوع المفاعلات الثمانية التي انتهى تشييدها منذ زمن وتعمل لتوليد البلوتونيوم للاغراض العسكرية كما تعمل ايضاً لتوليد الكهرباء كناتج ثانوي، وتنتج في السنة ٤٠٠ كيلو غراماً من البلوتونيوم تكفي لحوالي عشرين قنبلة ذرية .

أما المراكز الجديدة التي نوهنا عنها فيتألف كل واحد منها من مفاعلين نوويين، وقد انتهى منها مركزان بدءا بالعمل في عام ١٩٦٢ والاستطاعة الكهربائية

لفـــاعلاهما ١٥٠ الف كيلووات . وقد نظم البرنامج بحيث ينتهي في كل عام من الاعوام المقبلة مركز جديد . وأما استطاعة هذه الفاعلات فتدرج بالزيادة حتى تبلغ في مفاعلي المركز الاخير ٤٠٠ الف كيلووات وقد بدأ بهما في عام ١٩٦١ وسينتهيان في عام ١٩٦٨

البرنامج الاميركي

بينما بلغ انفاق الولايات المتحدة على برنامجها النووي في السنوات الاربعة الاولى من جهدها الذري (اي من ١٩٤٢ الى ١٩٤٥) مليارين من الدولارات، وذلك في عهد التأسيس الذي يفوق الانفاق فيه عادة على انفاق سنوات الاستثمار والتوسع ، نرى ان موازنتها الذرية الحالية قد ارتفعت الى مليارين ونصف من من الدولارات في العام الواحد ، ينفق حوالي اربعة اخماسها على البرنامج العسكري وهي ماضية على مقياس واحد في صنع الفاعلات النووية للاغراض البحرية ،وخاصة لتسيير الغواصات . وقد انجزت اول باخرة تجارية نووية امريكية (واسمها سافانا) في عام ١٩٦١ وبدأت رحلاتها التجريبية في اول عام ١٩٦٢ وتبلغ حمولتها ٢٠ الف طن .

اما الجهود التي بذلت لصنع محرك نووي للطائرات فقد كان نصيبها الاخفاق بعد ان انفق عليها خلال عشرة اعوام قرابة مليار من الدولارات. لذلك فقد وقفت التجارب بسبب الصعوبات التي صادفتها وبسبب كلفة هذا المحرك وقلة الثقة في فائدته المقبلة .

في مقابل ذلك ، ركزت جهود كبيرة على برنامج الدراسة والتنفيـــذ لفاعلات نووية لدفع الصواريـخ العسكرية عابرة القـارات ، وعلقت عليها اهمية

كبيرة . وتجري الان في صحراء نيفادا التجارب الاولى لفاعلات نووية ذات درجة عالية من الحرارة واحتراق سريع بقصد تهيئتها لرحلة تجريبية في الفضاء عام ١٩٦٦ .

كذلك انتهى صنع عدة مفاعلات نووية صغيرة قابلة للتنقل استطاعتها تقرب من الفي كيلووات ، يقصد منها كهربة القواعد العسكرية النائيـــة في آلاسكا وغروئنلاند . وقد صممت هذه المفاعلات لـكي تنقل الى مكان استعمالها بالطائرة وهي مفككة الى قطع كبيرة . ويمكن ان تستخدم لتزود بالكهرباء مراكز خط الوقاية بالرادار التي شيدت في شمال كندا .

اما البرنامج الاموريكي المدني فيشمل على عدد واسع من المفاعلات النووية يفوق نظيره في أية دولة اخرى ، واكثر هذه المفاعلات يبنى باشراف لجنة الطاقة الذرية الامريكية وان كان بعضها من عمل الصناعة ومنتجي الكهرباء واكثر هذه المفاعلات من العيار الكبير ، ومع ذلك فقد أولي اهتمام خاص بالمفاعلات الصغيرة التي تبلغ استطاعتها بضعة الاف الكيلووات والمفاعلات المتوسطة التي استطاعتها بضع عشرات الالوف من الكيلووات بالرغم من ان الطاقة الكهربائية التي تنتجها اعلى كلفة من التي تنتجها المفاعلات الكبيرة (اي التي تبلغ استطاعتها مئات الالوف من الكيلووات) وذلك لأن هذه المفاعلات تهم الدول الصغيرة ويكثر الطلب على شرائها من خارج الولايات المتحدة

في ختام عام ١٩٦٢ كان في الولايات المتحدة تسعة مفاعلات نووية تعمل بالاورانيوم المركز (او المغنى) بالنظير ٢٣٥ ، ويبلغ مجموع استطاعتها قرابة مليون كيلووات ، اي ما يعادل نصفاً بالمائة من مجموع الاستطاعة الكهربائية المشيدة في الولايات المتحدة . وقد انتهت اثنتان منها في عام ١٩٦٠ واشتغلت في عام ١٩٦١ اكثر من ستة اشهر شغلاً مرضياً . وهما : مفاعل درسدن في ولاية ايلينويز

واستطاعته ١٨٠ الف كيلووات ويعمل بالماء الغالي . والثاني مفاعل روف (ماساشوست) واستطاعته ١٤٠ الف كيلووات ، ويعمل بالماء المضغوط .

اما كندا فقد تخصصت في دارسة المفاعلات التي تشتغل بالاورانيوم الطبيعي . وتجري تهدئة النترونات فيها بالماء الثقيل . ويأمل المشرفون على البرنامج الكندي ان ينالوا من ضبط واحكام هذا الحل احكاماً اقتصادياً ان يجدوا سوقاً لا تتاجهم من الاورانيوم . ويمتاز استعمال الماء الثقيل على فحم الغرافيت كمهدىء ، بانه يسمح بالحصول على طاقة اكبر من نفس كمية الاورانيوم المستعملة في المفاعل. وعندئذ يمكن بصورة اقتصادية العدول عن سحب قضبان الاورانيوم بعد تعرضها للاشعاع في المفاعل مدة من الزمن ومعالجتها للتخلص من النفايا المشعة . فيكتفي في هذه الحالة بتخزين القضبان المستنفدة بدفنها تحت الارض ، بانتظار معالجة الذخر المتراكم كله دفعة واحدة بعد مدة عشر سنوات من الزمن .

يعتقد الكنديون بصواب نظريتهم هذه وبان الحل الذي يقترحونه هو ارخص جميع الحلول التي هي قيد الدرس . وهم يختلفون في ذلك مع جيرانهم الامريكيين الذين هم من دعاة استعمال الاورانيوم المركز بالنظير ٢٣٥ . وان اختلاف الطرفين في تقدير كلفة انتاج الكيلووات هو دليل على الشك الذي لايزال يخيم على الصناعة النووية وهي في بداية عمرها .

كان الكنديون قد انشأوا محطة ذرية في تشوك ريفر ، بدأ مفاعلها الاول يعمل عام ١٩٤٨ ، ثم ألحقوها بعد عشرة اعوام بمفاعل ثان نموذجي كبير يعمل بالماء الثقيل ، واستطاعته الحرارية اكبر بخمس مرات من استطاعة سلفه . وقد عدل الكنديون عن استخراج البلوتونيوم الذي يتولد في هذين المفاعلين ، فهم يبيعونه

الى الولايات المتحدة ، اذ يبعثون اليها بقضبان الاورانيوم المستعملة في المفاعلين لتعالج هنالك .

وقد شرعوا بانشاء محطة كهربائية نووية في منطقة البحيرات الكبرى ، استطاعتها الكهربائية ٢٠٠ الف كيلووات تعمل بالماء الثقيل ، وينتظر ان تنتهي عام ١٩٦٤ . وهنالك نموذج اصغر منها بعشر مرات سيسبقها بعامين . وقد قام انشاء هاتين المحطتين على التعاون بين الصناعة الخاصة ولجنة الطاقة النووية الكندية .



هل يكتب للجماعة العلمية الاستقرار

للمفكر الانجليزي برتراند رسل
Bertrand Russell

ترجمة: أديب اللجمي

« في سلسلة من البحوث الجدية ـ ألقيت في محاضرات عامة ـ عالج المفكر الانجليزي الكبير برتراند رسل طائفة من المشكلات التي تهم الانسانية المعاصرة: العلم والتقنية (التكنيك) ـ العلم والحرب ـ العلم وقيمة الفكر ـ مستقبل الجماعة البشرية.

وقد اتسمت معالجة « رسل » لهذه الموضوعات الشائكة الهامة، بالتحليل الدقيق الذي يميز مجموع تفكير هذا الفيلسوف، وبسعة النظرة وشمولها، وتجردها عن الهوى والافكار المسبقة، وربطها ماضي الانسانية بتطلعاتها الحاضرة؛ كما اتسمت « بدعوة صادقة » الى التفكير والعمل معاً، لتشييد مستقبل انساني خير من ماضينا وحاضرنا.

وفيما يلي ترجمة لواحد من هذه البحوث بعنوان: هل يكتب للجماعة العلمية الاستقرار؟»

« المترجم »

أود أن أعالج موضوعا محدداً : « أيمكن لجماعة تتمتع بتفكير وتقنية (تكنيك) علميين أن تعيش طوال قرون ، كما عاشت مصر القديمة مثلا ، ام إن في داخلها حتما قوى تسبب انحلالها التدريجي أو فناءها المباشر ؟

ان علينا أن نوضح اولا مدلول السؤال . انني اعتبر الجماعة « علمية » حين يحدد العلم والتقنية المشتقة من العلم ، حياة هذه الجماعة اليومية وبنيتها السياسية . وبدهي الا تكون لهذا المعيار سوى قيمة نسبية . فالعلم في بدئه ، لم يؤثر قط على الهيئة الاجتماعية ، بل كان تأثيره محصراً على نفر قليل من الناس المثقفين الذين انصرفوا اليه . ومنذ عهد قريب ، بدل العلم الحياة العادية تبديلا عميقاً ، وأخذ هذا التبديل يتسارع نسقه باستمرار .

وانا أستعمل كلمة « استقرار » بالمعنى الذي تأخذه هذه الكلمة في علم الفيزياء . فالدوامة « مستقرة » مادامت سرعة دورانها أعلى من « الحد الادنى » ، ومتى انخفضت السرعة عن هذا الحد ، أصبحت الدوامة « غير مستقرة » اي أخذت تترنح حتى تنتهي الى التوقف . والذرة التي لا إشعاع لها تظل « مستقرة » مادمنا لانحاول تهشيمها . والكوكب الذي استمر « مستقراً » طوال ملايين السنين ينفجر في النهاية . فاستناداً الى هذه المفاهيم ، **أعالج مشكلة ما اذا كان نموذج الجماعة التي نحن بصدد انشائها « مستقراً »** .

ويعنيني أن أبين بأن الموضوع الذي يهمنا الآن مستمد من الواقع ذاته .

فلن أبحث ما اذا كان من الخير للجماعة أن تكون مستقرة أو غير مستقرة . ان مثل هذا التقييم يخرج عن نطاق مناقشة علمية صرفة . فالمشكلة تنحصر اذن بما يلي : على ضوء الوقائع ، هل يرجح ام لايرجح أن تتمكن الجماعة العلمية من البقاء ؟ اذا كان الجواب نعم ، فان هذه الجماعة ستصبح حتما أكثر امعانا في طابعها العلمي ، نتيجة تكدس معارف جديدة ، واذا كان الجواب لا ، فسيحدث إما انحلال بطيء مماثل لتناقص حرارة الشمس بسبب الاشعاع ، واما تبدل فجائي كتلك التبدلات التي تسبب ظهور كواكب جديدة في الكون . ان الفرضية الاولى تتحقق في حال الوهن ، اما الفرضية الثانية فتتحقق في حال قيام ثورة سياسية او حرب خاسرة .

ان معالجة المشكلة في هذا الاطار تدخل في حيز التخمين . فيكفي أن نوجه انتباهنا لحظة الى الزمن الذي نأخذه بعين الاعتبار هنا . يرى علماء الفلك أن الارض ستظل قابلة للسكن على الأرجح خلال عدد كبير جداً من ملايين السنين . ولم يظهر الانسان الى الوجود الا منذ حوالي مليون سنة فقط . فاذا استمرت الحال بصورة طبيعية ، امكننا القول ان مستقبل النوع البشري سيكون أطول بكثير جداً من ماضيه

اننا نشهد صراعاً بين حكمة الانسان في مجال الوسائل ، وبين جنون الانسان في مجال الغايات ، فلئن سيطر الجنون في مجال الغايات ، فإن كل ما اكتسبته حكمة الانسان يسهم في الشر . لقد تمكن النوع البشري من البقاء حتى الآن بسبب الجهل وفقدان التخصص . اما حين تنضم المعرفة والتخصص الى الجنون فلن يكون ثمة بقاء بعد .

يقال ان المعرفة قوة . الا ان هذه القوة يمكن توجيهها نحو الشر او نحو الخير . والنتيجة هي أن الانسان ، بقدر مايقصر في الحكمة والمعرفة ، فان ازدياد العلم عنده يتضمن ازدياد شقائه وبؤسه .

ان اسباب عدم الاستقرار الانساني ، يمكن ردها الى ثلاث زمر : طبيعية ، بيولوجية ، سيكولوجية . فلنعالج كل واحدة منها على انفراد .

الأسباب الطبيعية

ان الصناعة والزراعة تستخدمان وسائل تخريب متزايدة ، تستنفد الاحتياطي الطبيعي من العالم كله . ذلك ماتلمسه في الزراعة منذ ان استعمل الانسان الحرث . وهناك بعض مناطق تستثنى من هذه القاعدة ، كوادي النيل الذي تلتقي فيه شروط خاصة ملائمة . وما دام السكان منتشرين ، فان المزارعين لاينتقلون الا حين تصبح حقولهم عديمة الخصب . ثم لاحظ الانسان ان جثث الموتى يمكن ان تصلح سماداً للأرض ، فأخذ يكثر من الاضاحي البشرية ، وكانت لهذا الطقس فائدة مزدوجة ، فهو يجعل الموسم الزراعي اكثر خصباً ، وينقص في الوقت ذاته من عدد الافواه التي يجب توفير الغذاء لها . ومع ذلك فقد حرمت هذه الطريقة ، وحلت الحرب محلها ولم تكن الحرب في البدء على درجة كبيرة من الافناء ، بحيث تدفع الجوع عن الأحياء ، فاستمر إفقار الارض بسرعة متزايدة حتى عصرنا هذا . وأخيراً ظهرت « أحواض الغبار Dust Bowl » في الولايات المتحدة ، فأشاعت قلق العلماء الزراعيين والجمهور معاً . وقد اصبحنا نعرف اليوم كيف نتمكن من تفادي نقص الانتاج الغذائي العالمي بصورة مخيفة . فهل نتمكن من تأمين الضروري اللازم ؟ يستحيل علينا ان نؤكد ذلك . ان طلب المواد الغذائية يزداد من جهة ، كما ان ربح البائع يرتفع من جهة ثانية ، لدرجة أن الحكومة القوية العاقلة وحدها قادرة على ان تتخذ تدابير مناسبة في هذا السبيل . ولكن الحكومات في كثير من بقاع الارض ليست قوية ولا عاقلة . ولندع الان جانباً المشكلة السكانية ، فسنأتي اليها بعد حين .

اذا كان علينـا ان نهتم بالمستقبل فان مشكلة المواد الاوليـة لاتقل خطورة عن مشكلة الزراعة . ان منطقة « كورنويل » الانكليزيـة استمرت تنتج القصدير منذ عهد الفينيقيين ، وحتى امد قريب . وقد نفد اليوم القصدير من هذه المنطقة . وقد يقول بعض الناس ان ثمة قصديراً في ماليزيا . ولكن ، هل تنكر ان هذا القصدير سينفد بدوره عما قريب ؟ لن يكون هناك منجم للقصدير يمكن الوصول اليه الا ويتم استثماره عاجلا او آجلا ، وينطبق الامر ذاته على اكثر المواد الاولية ، والمشكلة العاجلة في هذه الايام هي مشكلة النفط ، فبدون النفط ، وبالاستناد الى وسائلنا التقنية الراهنة ، لاتستطيع امة من الامم ان تحقق نهضة صناعية ولا ان تدافع عن نفسها في حال وقوع حرب . لكن ثروات العالم من النفط تتناقص بسرعة كبيرة ، ومن الراجح ان يتم استثمارها بنسق متسارع اثناء الحروب المقبلة التي سيكون من اسبابها التسابق على هذه الثروات . ستقولون لي طبعاً ان الطاقة الذرية مهيأة للحلول محل النفط كنبع من ينابيع الطاقة ، ولكن، ماالذي يحدث حين يكون جميع الاحتياطي من اليورانيوم والطوريوم قد استهلك في عمليات ذبح رهيبة للبشر والانعام ؟

ثمة واقع لامراء فيه : ان كلا من الصناعة والزراعة (بقدر ماتعتمد هذه الاخيرة على الاسمدة الاصطناعية) مرهونتان بمواد ومصادر لايمكن تعويضها . طبعاً سيكشف العلم مصادر ثروة جديدة تلبي الحاجات الجديدة . الا ان استثمارها سيقلل من الانتاج الزراعي والصناعي ولايعود الامر سوى مجرد حل مؤقت . لقد عاش العالم في جميع الازمان على الاحتياطي الذي كانت تقدمه الطبيعة ، وسيستمر الامر كذلك بالضرورة ، ما استمر بقاء الصناعة . ذلك سبب ، قد يكون بعيداً ، ولكنه سبب لاراد له من اسباب عدم استقرار الجماعة العلمية .

الاسباب البيولوجية

اصل الآن الى الجانب البيولوجي من الموضوع . لئن قيس نجاح النوع بعدد افراده ، فلنعترف بأن النوع البشري قد برهن عن ازدهار ملحوظ. كان الانسان في المرحلة الابتدائية الاولى ، نوعاً نادراً جداً . الا انه كان يتمتع بميزتين اساسيتين : تمكنه من استعمال يديه لصنع ادوات واستخدامها ، وقدرته على ان ينقل الى اقرانه التجربة التي اكتسبها والاكتشافات التي حققها ، وذلك عن طريق اللغة

كانتا الميزتين كانتا تتجمعان بصورة تدريجية . فلم يكن في البدء ، الا قليل من الادوات ، وقليل من المعارف . التي كانت تنقل الى الاجيال التالية . ولسنا نعرف في اية مرحلة من مراحل النوع البشري ، تكونت اللغة . **الا ان من المحقق ان ثلاثة ضروب من التقدم ، اتاحت لسكان الارض ان ينموا : توفير بعض الحيوانات وتأهيلها ، الزراعة ، الثورة الصناعية** . بفضل هذه الميزات الثلاث ، اصبح الانسان اكثر عدداً من اي نوع آخر من انواع الحيوانات الفقرية المتوحشة . وما من شك في ان الاغنام والابقار تدين بكثرة اعدادها للجهد الانساني . ان الحيوانات الثدية الكبرى، حين تحاول منافسة الانسان ، تمنى بالفشل ، يدل على ذلك اختفاء بعض الحيوانات نهائياً من الميدان .

اني اورد الفكرة التالية ، وانا مرتعش بعض الشيء : ان الطب ذاته ، خلا فترة قصيرة جداً ، لم يتمكن من زيادة سكان الارض. ولو ان اطباء القرن الرابع عشر ، عرفوا كيف يكافحون الطاعون الاسود ، لكانت نكبة سكان اوروبا من هذا الوباء اقل بكثير مما حدث . ومع ذلك فان النقص قد تعوض ، بحيث بلغ مستوى نظرية مالتوس ، عن طريق الزيادة الطبيعية. ولقد جهدت البعثات الطبية الاوروبية والاميركية التي عملت في الصين في تخفيض نسبة الوفيات عند الاطفال . اما النتيجة فهي التالية : ازداد عدد الاطفال الذين يموتون من الم الجوع في سن الخامسة او السادسة . فالخير الذي قدمه الطب للانسانية ، هو خير مشكوك بامره تماماً . ان كثافة السكان، خلا بعض المناطق التي تكون فيها نسبة المواليد ضعيفة، مرهونة بالنتيجة بالراتب الغذائي ؛ ومع ذلك فان تناقص المواليد في العالم الغربي، قد كذب خلال فترة قصيرة نظرية مالتوس ؛ وفيما عدا هذا الاستثناء ، فان نظرية مالتوس ، قد تحققت في العالم بأسره ، بل انها تبرهن عن صحتها اليوم في المناطق الكثيفة بالسكان من بلاد الشرق .

فما هو نصيب العلم في زيادة السكان ؟ لنلاحظ اولاً ، أن العلم بفضل اختراع الآلات الزراعية ، واستعمال الاسمدة ، وتحسين وسائل تربية الانعام ، قد زاد من مردود الارض ، ومن مردود العمل البشري . تلك هي النتيجة المباشرة، الا أن ثمة نتيجة اخرى ، ربما كانت اكثر خطورة في الوقت الحاضر . فمن تحسن وسائل المواصلات اصبح بامكان منطقة ما ان تنتج فائضاً من المواد الغذائية ، بينما تتمكن منطقة اخرى من انتاج فائض من المواد المصنوعة او المواد الاولية . وقد اتاح ذلك لبعض المناطق ان يكون عدد سكانها اكبر مما لو كان عليها ان تعيش على مواردها الغذائية الخاصة . وبفضل حرية انتقال الاشخاص والبضائع ، امكن للعالم بأسره ان ينتج مايغذي سكان الارض بأسرهم ، على شرط أن تكون لدى المناطق المحرومة من الانتاج الغذائي اشياء

تستطيع تقديمها الى المناطق ذات الانتاج الغذائي الفائض ، فتستبدل بهذه الاشياء مواد غذائية على أن هذا الشرط ، قد لايتاح له أن يتحقق في الظروف الصعبة . فبعد الحرب العالمية الاولى أبى الفلاحون الروس الذين كانوا يملكون فقط مايقوم بأودهم ، أن يبادلوا موادهم الغذائية بالبضائع التي كانت تنتجها المدن في ذاك الحين ، وفي فترة المجاعة التي تلت سنة ١٩٣٠ لم يكن ممكناً لابقاء على حياة سكان المدن ، الا بتدخل القوات المسلحة تدخلا فعلياً ، ونتج عن هذا التدخل ، أن مات ملايين الفلاحين جوعاً . ولو أن الحكومة وقفت موقف المتفرج آنذاك ، لكان سكان المدن هم الهالكون .

هذه الملاحظات تؤدي بنا الى نتيجة لم نعرها من قبل كبير اهتمام . **ان الصناعة ظاهرة ترف بقدر مايكون انتاجها بعيداً عن تلبية حاجات الزراعة . فمنتوجات الصناعة ، في الازمات الحادة ، لاتجد من يشتريها** ، ولا ينقذ حياة العمال الصناعيين الا تدخل الجيش ووقوفه في وجه منتجي المواد الغذائية . ولكن السكان الزراعيين يتعرضون بهذا الاسلوب الى المجاعة . ولئن تكررت في المستقبل ازمات حادة من هذا القبيل ، فمن المحقق ، ان الصناعة ستتدهور ، كما ان التصنيع الذي ميز المئة والخمسين سنة الاخيرة ، سيتوقف توقفاً كاملاً .

وقد يعترض بعضهم على هذا الرأي ، فيقولون ان الظروف القاسية استثنائية وتتطلب اللجوء الى تدابير استثنائية . لقد حدث ذلك فعلا بشيء من النجاح في فترات الازدهار الصناعي ، الا ان ذلك لايمكن ان يكون قاعدة ، مادام ازدياد السكان لم يجد مايحده حداً كبيراً . ان سكان الكرة الارضية يزدادون في هذه الايام بنسبة مئة الف نسمة كل يوم . ولم تعوق الحرب حتى الان هذه الزيادة ، الا تعويقاً جزئياً ، لأنها استمرت متواصلة رغم قيام حربين عالميتين كبيرتين . وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، كانت زيادة السكان في البلاد المتقدمة ، اكبر منها في البلاد المتخلفة . اما الآن ، فان الزيادة تنحصر في المناطق البائسة جداً . ومن بين هذه المناطق الصين والهند اللتان تتمتعان بأهمية عددية ضخمة ، بينما يتمتع الاتحاد السوفييتي بنشاط خانق في ميدان السياسة العالمية . ولكنني افضل الآن ان اقتصر على عرض الاعتبارات البيولوجية ، وأن اترك السياسة العالمية جانباً .

ماترى تكون النتيجة الحتمية اذا لم تتوقف زيادة السكان ؟سيحدث انخفاض عام في مستوى الحياة ، حتى في المناطق المزدهرة الان . ان هذا الانخفاض سيسبب تقلصاً في القدرة الشرائية ، اي تقلصاً في طلب المواد المصنوعة . آنذاك يترتب على

مصانع ديترويت ان تتخلى عن انتاج السيارات وان تكتفي بانتاج الشاحنات . وتصبح بعض الاشياء كالكتاب والبيانو والساعة ، مواد ترف نادرة جداً ، ومقصورة على عدد صغير من الاشخاص الذين يتمتعون بسلطان فائق ، سلطان السيطرة على الجيش والشرطة مثلاً . وتكون النتيجة ، انتشار البؤس ، وتحقق قانون مالتوس دون اي استثناء . واذ ان العالم قد توحد بفضل التقنية ، فان سكان الارض يزدادون حين تكون المواسم جيدة ، ويتناقصون بسبب الجوع ، حين تكون المواسم رديئة . وعندئذ تهجر اكثر المراكز العمرانية والصناعية ، ويرتد سكانها الذين ظلوا على قيد الحياة الى حالة من العيش المدقع شبيه بعيش اجدادهم ابناء القرون الوسطى . عندئذ يكون العالم قد حقق استقراراً جديداً ، استقراراً على حساب كل ما يمنح الحياة الانسانية قيمة .

فهل ازدياد سكان الارض من الاهمية بحيث ينبغي علينا ان نقبل بحدوث حالة كهذه الحالة التي اشرت اليها ؟ طبعا لا . ماذا نفعل إذن ؟ لولا بعض الافكار البالية المتأصلة لكان الجواب سهلا . إن على الامم التي يزداد سكانها اليوم بسرعة كبيرة ، ان تتبنى الطرق التي أتاحت تقليص عدد المواليد في بلاد الغرب . ان الدعاية عن طريق التربية وبمعونة الحكومة ، يمكن ان تصل الى هذه النتيجة لدى جيل واحد . ولكن ثمة في الواقع قوتين تقفان في وجه هذا الاسلوب من العمل : الدين والقومية . ومع ذلك فان ثمة واجباً يقع على عاتق كل **انسان قادر على الملاحظة الموضوعية . واجبه بأن يعرف ، وأن يذيع على الملأ أن كل من يقف في وجه حركة تقليص نسبة المواليد ، يسهم عن قصد أو غير قصد بتردي الانسانية في هوة الفاقة والانحطاط خلال السنوات الخمسين المقبلة ، او اكثر من ذلك بقليل .**

لست أزعم ان تحديد الولادات ، هو الوسيلة الوحيدة لمنع سكان الارض من الازدياد . فهناك وسائل اخرى يفضلها على هذه الوسيلة خصوم طريقة منع الحمل . لقد قلت منذ حين ، إن الحرب لم تكن مجدية في هذا المجال ، ولكن ألا تكون الحرب الجرثومية اكثر جدوى ؟ فلئن أمكن نشر الطاعون الاسود في العالم مرة في كل جيل ، فان الاحياء الباقين يمكنهم أن يتوالدوا بحرية ، دون ان تتعرض الارض لزيادة مفرطة في السكان . مثل هذا الحل ، قد لا يؤذي ضمير المتدينين ، ولا يخيب جشع دعاة الحروب . ويجب ان نعترف بأن هذا الحل قد يكون سيئاً في بعض مظاهره . ولكن ما العمل ؟ إن الناس الذي يزعمون التهذيب . الرفيع لأنفسهم لا يأبهون بالسعادة ، ولا يأبهون بصورة خاصة بسعادة الاخرين . أراني أبتعد عن موضوع الاستقرار ، ويجب ان أعود اليه حالاً .

هناك ثلاث وسائل لايجاد استقرار لدى الجماعة في مجال السكان. الوسيلة الاولى هي تحديد الولادات. والثانية هي وأد الاطفال أو الحروب الدامية، والثالثة هي انتشار الفاقة عند جميع السكان، خلا أقلية ظالمة. لقد اتبعت هذه الوسائل كلها: اتبع الوسيلة الاولى سكان استراليا، واتبعت الوسيلة الثانية قبائل الأزتيك وأبناء إسبارطة والحكام المسؤولون في «جمهورية» افلاطون. اما الوسيلة الثالثة فاتبعت في العالم الذي يبنيه اليوم بعض الغربيين ذوي النزعة التسلطية، كما اتبعت في الاتحاد السوفيتي. على اننا يجب ألا نتخيل، بأن سكان الهند والصين يرغبون في الموت من الجوع، فالواقع انهم مكرهون على احتمال الجوع نتيجة لتفوق العالم الغربي في الميدان العسكري. من بين هذه الوسائل الثلاث نجد ان تحديد الولادات وحده، لا يلجأ الى العنف الصارم، ولا يسبب بؤساً لغالبية البشر. ومع ذلك مادام العالم يفتقر الى حكومة عالمية واحدة، فسيظل التنافس في القوة قائماً بين مختلف الأمم. وبما أن زيادة السكان تنتج ابداً تهديداً بالجوع، فان القوة الوطنية تبدو آنئذ الوسيلة الوحيدة لتجنيب الشعب الهلاك من الجوع، اذ تتكون آنذاك كتل من الامم الجائعة التي تتضامن فيما بينها لتسطو على الامم التي تتمتع بغذاء مناسب. بهذه الطريقة نفسر انتصار الشيوعية في الصين.

إن الاعتبارات السابقة تبرهن على أن جماعة علمية واسعة الانتشار، لن يكتب لها الاستقرار، مادام العالم يفتقر الى حكومة واحدة تنشر سلطانها عليه بأسره. وقد يكون في اقرار هذه النتيجة شيء من التسرع. ولكن ها هي النتيجة الضيقة التي تستخلص من الوقائع التي أتيت على ذكرها: مالم تقم سلطة عالمية تحدد نسبة الولادات على صعيد عالمي، فستندلع الحروب بصورة دورية، وسيكون من نتائجها انتشار المجاعة العامة عند المغلوبين مهما يكن شأنهم. ذلك هو واقع الامور في عالم اليوم. وكثير من المراقبين يعتقدون بان الامور ستظل كذلك خلال القرون المقبلة. أما انا فلا اعتقد بذلك. إن الحربين العالميتين الاخيرتين اللتين مررنا بهما، قد خفضتا مستوى الحضارة في عدد من بقاع الارض، واظن بأن حرباً مقبلة ستكون اسوأ من سابقتيها بكثير في هذا المضمار. ومالم يحن الوقت الذي تقيم فيه دولة أو مجموعة من الدول الظافرة،

حكومة عالمية واحدة تحتكر وحدها القوة العسكرية ، فمن الجلي ان مستوى الحضارة ، سيزداد تدهوراً بحيث تصبح الحروب العلمية مستحيلة ، أي بحيث ينطفىء نور العلم تماماً . بذلك يرتد « الانسان العاقل » الى عصر القوس والسهم ، ويتمكن اخيراً من بلوغ شيء من الهدوء ، ليبدأ من جديد صعوداً في طريق كئيبة ، تؤدي به بالنتيجة الى خصومة لا تقل عقماً عن سابقاتها .

ان ضرورة قيام حكومة عالمية ، ينبثق بالبداهة من مبادىء داروين ، ويحسن ان تأخذ هذه الضرورة بعين الاعتبار ، اذا رغبنا في ان نحل مشكلة زيادة السكان حلاً انسانياً . فما دامت ثمة فئتان ، واحدة يزداد عدد سكانها ، واخرى يظل عدد سكانها ثابتاً ، فان الفئة الاولى ستصبح بالتدريج هي الاقوى . وهي في حال انتصارها ستحرم الفئة المغلوبة من غذائها ، فيموت عدد كبير من الناس جوعاً ، ونتيجة لذلك يتحقق دوماً ظفر جديد لأمم لا تستحق النجاح من وجهة نظر سكانية محضة . ذلك هو الشكل الحديث للصراع من اجل البقاء . فاستناداً الى قوى الدمار الفائقة اليوم ، يمكن القول ، إن العالم الذي يقبل باستمرار مثل هذا الصراع ، لن يكون عالماً مستقراً .

الأسباب السيكولوجية

ان الشروط السيكولوجية لاستقرار جماعة علمية هي في رأيي مماثلة في اهميتها للشروط الطبيعية او البيولوجية . إلا أنها ليست مجال نقاش ، لأن علم النفس أقل تقدماً من علم الفيزياء ، او علم الحياة .

كان علم النفس العقلي في الماضي ، يرد الشر الى الجهل ، وكان الناس يظنون أننا لكي نبعد انساناً عن ارتكاب ذنب ، يكفي ان نبين له بأن هذا العمل الآثم لن يكون نافعاً له أبداً. وكان الناس يسلمون بأن ارادة الحياة موجودة لدى كل كائن بشري خلا أقلية مهملة تتألف من الافراد الشاذين . إلا أن اكتشافات التحليل النفسي خاصة أدت الى الاقلال من قيمة رأي « بنثام » الذي يقول : « ان الانسان يبحث عن مصلحته الخاصة ، بصورة معقولة » . وفوق ذلك فمن المؤسف الا نجد بين الذين يهتمون بالسياسة الا نفراً قليلا جدا ، حاولوا ان يطبقوا تعاليم علم النفس الحديث في تفسير الظاهرات الاجتماعية الكبيرة ، ان هذا هو ما أحاول ان اقوم به ، وبكل تواضع .

فلنتأمل في مثال هام ، هو النمو الراهن الذي يدفع بالانسانية الى حرب عالمية ثالثة ، انك تناقش في هذا الشأن انساناً متحمساً ، لم تدعمه السياسة ، بل هو سليم القصد ، انك تلفت انتباهه الى نتائج القنبلة النووية ، انك تقول له ماتجره احتلال الجيوش السوفيتية لاوروبا الغربية من آلام مختلفة ودمار في الميدان الثقافي ، وافقار حتى في حالة تحقق انتصار حاسم للغربيين فيما بعد . ان سامعك يعترف بكل ذلك ، وبالرغم من ذلك ، فلن تبلغ منه النتيجة التي كنت تتوقعها . انك تجده وكأنه يتلذذ بهذا الكلام . بل انك اذا ألححت على الفوضى التي ستنجم عن هذه الكوارث ، فستجده وكأنه يقذف في وجهك هذه الكلمات : « وما أهمية ذلك ، ان هذا يعفيني على الاقل من الذهاب الى العمل في كل صباح » . انك تصف له القتلى بأعداد كبيرة جداً ، فتجد المنطقة العليا من فكره تستهجن ذلك ، اما المنطقة الدنيا ، فكأنها تجمجم : « قد يؤدي ذلك الى ان اصبح مترملا ، وقد لا يكون في ذلك ضير ، » او يحدث وانت في قرف من موقفه ان يلجأ هو الى نوع من البطولة الظاهرية ، فيأخذ ينشد :

« اعصفي يا رياح ، واقتربي ايتها العاصفة »
« سنموت كلنا ، وعتادنا فوق ظهورنا »

لقد كشف علم النفس عن نزعتين مرضيتين متناقضتين ، منتشرتين انتشاراً عاماً في عصرنا ، بحيث اصبحتا عاملين رئيسيين في السياسة ، النزعة الاولى هي العنف ، والثانية هي التهاون . المثال النموذجي للاولى ، هو سلوك النازيين ، والثانية موقف بعض الفرنسيين الذين لم يحاولوا ان يقاوموا المانيا قبل الحرب واثنائها. **هاتان الظاهرتان الرهيبتان تنتشران في بلاد اخرى ، بصورة قد تكون اقل وضوحاً ، ويبدو لي انهما منبعثتان من اسلوب التنظيم الصارم الذي أتت به النزعة الصناعية . ان العنف يدفع الامم الى ارتكاب أعمال جنونية ، كان من اليسير عليها ان تتنبأ بنتائجها المدمرة . اما التهاون فيتجلى بفقدان المبادهة والحذر كما يتجلى على العموم بفقدان القدرة على اداء اي عمل جريء .** كلتا النزعتين ظاهرتان للتنافر العميق ، بين الاستعدادات الطبيعية من جهة واسلوب الحياة من جهة اخرى .

ان احد اسباب هذا التنافر هو التبدل الفجائي لشروط العيش المادية ، فليس غريباً أن نجد البدائيين الذين اخضعوا لضغط الاوروبيين ، يموتون لعجزهم عن التلاؤم مع اسلوب حياة جديد يختلف كثيراً عن اسلوبهم .

لقد بدا لي اثناء اقامتي في اليابان سنة ١٩٢١ ، انني كنت اقرأ في وجوه الاشخاص الذين تحدثت اليهم أو صادفتهم في الشوارع ، توتراً عصبياً شديداً قابلا لأن يتحول الى هيستريا . وافترضت ان هذه الظاهرة الفريدة متأتية من كون المطالب الراسخة في اللاشعور من نفسية هذا الشعب تلائم اليابان التقليدية ، بينما كانت تهيمن على شعوره الرغبة في ان يصبح شديد الشبه بالاميركيين . مثل هذا الفصام بين الشعور واللاشعور يجب ان يؤدي حتماً الى العنف ، أو الى القنوط تبعاً لطاقة الفرد المصاب به . اننا نلاحظ الظاهرة ذاتها في كل مكان طبق فيه التصنيع بسرعة زائدة . ومن الراجح أن تكون هذه الظاهرة شديدة الانتشار في الاتحاد السوفييتي .

وحتى في بلد كبريطانيا ليس الطابع الصناعي جديداً فيه ، نلاحظ حدوث تبدلات بنسق مقلق . فكم من تبدلات رأيتها اثناء حياتي ! لم يكن الهاتف اثناء طفولتي اكثر من اختراع جديد ، ضيق الانتشار . واثناء سفرتي الاولى لاميركا لم أر سيارة واحدة . وكان عمري تسعة وثلاثين عاماً حين رأيت الطائرة لاول مرة . لقد جعل الراديو والسينما من حياة الشباب شيئاً يختلف كثيراً عما كان عليه شباب امثالي . وحين بدأت أعي الحياة السياسية ، كان غلادستون ودزرائيلي يتناحران، وكانا من ابرز شخصيات العصر الفيكتوري . كانت الامبراطورية البريطانية تبدو لنا خالدة آنذاك . لم يكن هناك من يتصور أن تفوق بريطانيا البحري يمكن أن يصاب بتهديد جدي . كانت بلادي ارستقراطية وغنية ، وكانت تزيد من ثروتها آنذاك ، بينما كان الناس ينظرون الى الاشتراكية على أنها شبح مخيف لقبضة من القرباء الدوداويين الذين لا يطمأن اليهم .

ان انساناً كهلا في مثل سني ، يعسر عليه أن يشعر بالارتياح في عالم اليوم ، عالم القنابل الذرية والشيوعية والتفوق الاميركي . فالخبرة التي كانت في السابق عوناً كبيراً على اكتساب الحكمة في السياسة ، قد اصبحت اليوم عائقاً حقيقياً ، لأن اكتسابها في الماضي قد تم في ظروف جد مختلفة عن ظروف اليوم . ولئن اصبح اليوم مستحيلاً على انسان ان يبلغ — من دون تسرع — هذا الضرب من الحكمة التي كانت تجعل « الكبار » موضع احترام ، فلأن الدروس التي تنال اليوم بالخبرة سرعان ماتصبح عتيقة بعد اكتسابها . ان العلم الذي عجل في التبدلات الخارجية ، لم يكتشف بعد وسيلة يعجل بها النمو السيكولوجي لكل من اللاشعور وما تحت الشعور .

فقليلون جداً اولئك الافراد الذين لاينتاب الاضطراب عقلهم الباطن حين يضطرون الى العيش في شروط تختلف عن الشروط التي كانت موجودة اثناء طفولتهم .

على ان سرعة التطور هذا ، ليست سوى سبب من اسباب الاضطراب النفسي . وهناك عامل آخر ، قد يكون اكثر خطورة ، هو ازدياد خضوع الفرد للمنظمات المختلفة. ومع ذلك يبدو ان هذه المنظمات هي من ضرورات الجماعية العلمية . ففي مصنع يستخدم الآلات الثمينة ويتطلب تنسيقاً لجهد عماله العديدين ، لايسمح طبعاً لأي فرد ان يقوم بأية مبادهة ، مالم يكن واحداً من رؤساء هذا المصنع . وكل دلال او تراخ محظوران بالبداهة . وبالاضافة الى هذا الخضوع اليومي ، فان اكثر العمال لايظفرون الا بالقليل من اوقات الفراغ . ان الذهاب الى العمل والعودة منه يتطلبان زمناً ، وحين ينتهي النهار لايجد العامل لديه الوقت ولا المال ليرفه عن نفسه بعض الشيء . ومايصح على عمال المصنع ، يصح بدرجات متفاوتة على معظم الافراد المنتمين الى جماعة حديثة ، دقيقة التنظيم ، فما ان يبلغ اكثر الافراد رشدهم حتى يقبعوا في نطاقهم الضيق . اما العنيفون فيتمردون واما الخجولون فيصيبهم التبلد وتصبح الحرب بالنسبة اليهم جميعاً ، مخرجاً من المأزق الذي كانوا فيه . كنت اتمنى ان يجري استقصاء حول السؤال التالي: « هل انت اليوم اكثر ام اقل سعادة مما كنت عليه اثناء الحرب الاخيرة ؟ » ، واتمنى ان يطرح هذا السؤال على النساء والرجال ، واظن بان كثيرين قد يجيبون بانهم اليوم اقل سعادة .

هذا الواقع يطرح مشكلة نفسية قل ان عالجها رجال الدولة . ان من العبث وضع مشاريع لحفظ السلام ذاته ، وبما ان اكثر الناس لايريدون ان يعترفوا (او ربما كانوا يجهلون) بانهم في قرارة نفوسهم يفضلون الحرب ، فيخشى ان يدفعهم اللاشعور الى تأييد مشاريع صورية فقط ، لاتستهدف ابداً تحقيق الاماني التي تدغدغ شعورهم .

ان صعوبة هذه المشكلة ناشئة من شدة التنظيم في الجماعات الحديثة التي تجعل الفرد تابعاً للمجموع ، أكثر مما كان تابعاً في العصور التي سبقت الصناعة ، ولهذا ينبغي كبح جماح

الاندفاعات اليوم أكثر مما كانت تكبح في الماضي . ولكن المبالغة في كبح الاندفاع خطيرة جداً . فهي توقظ غريزة التدمير، وتدفع الانسان الى القسوة وتحرض على التمرد الفوضوي . وبالنتيجـــة ، اذا كان من المستحسن أن نتجنب العنف الذي يجعل الشعوب لتمرد وتدمر مابنته بأيديها ، فضروري أن نمنح الفرد مزيداً من الحرية التي لم يحصل عليها بعد في أكثر دول العالم اليوم.

حقاً ، لن يكتب الاستقرار لجماعة لايرضى عنها قادتها بوجه عام ، ويتهددها خطر ثورة كاسحة. ولكن ، لن يكتب أي استقرار لجماعة ركب قادتها رؤوسهم ، وارغموا في خضم مغامرات مدمرة كما فعل القيصر وهتلر . تلك هي مناطق الخطر التي يدلنا عليها علم النفس الجماعي . وليس بالامر اليسير أن نسبح فوقها دون ان نغرق . ان المغامرة شيء مقبول ، ولكن المغامرات الجنونية التي تطلق العنان لاهواء التخريب ، أمر لايمكن القبول به .

ـ خاتمة ـ

نورد فيما يلي نتائج هذا البحث الذي خصصناه لبيان شروط استقرار الجماعة العلمية .

ونبدأ بالمسلمات الطبيعية : ينبغي الا يبلغ استثمار الارض ومناجم المواد الاولية درجة من السرعة تجعل تقدم العلم عاجزاً عن التعويض عن هذه المواد عند نفادها باختراعات واكتشافات . **فليس التقدم العلمي شرطاً للتقدم الاجتماعي وحسب ، بل هو عامـــل اساسي في المحافظة على درجة الرخاء التي بلغها الانسان .**

فاذا استخدمنا تكنيك الاستثمار دون أن نحتاط لتحسين وتطوير هذا التكنيك بصورة مستمرة ، فان احتياطي المواد الاولية سرعان ماينفد . ولكي نتفادى تبديد هذا الاحتياطي ، ينبغي أن نوقف المنافسة الحرة التي تقوم على امتلاك المواد الاولية واستخدامها . كما يجب أن تتولى سلطة دولية تحديد استعمال هذه المواد ، بقدر مناسب ، وفق الظروف ، مع المحافظة على الازدهار الصناعي ، وينبغي أن تتخذ في الوقت ذاته تدابير لحماية الارض القابلة للزراعة .

ثانياً : السكان ـ لكي نتجنب النقص المستمر الخطير في المواد الغذائية يجب ان نمارس الزراعة وفق اساليب لاتفقر الارض ، كما ان زيادة السكان ينبغي الا تتجاوز زيادة انتاج المحاصيل الغذائية استناداً الى تحسن وسائل هذا الانتاج . ان كلا الشرطين المذكورين لم يتحققا بعد . فسكان العالم يتزايدون ، بينما طاقة العالم الانتاجية من المواد الغذائية تتناقص ، ولا يمكن لهذه الحال أن تستمر طويلا دون أن تخلف كوارث رهيبة .

وللحؤول دون وقوع هذا الخطر ، يجب ان نجد وسيلة لايقاف ازدياد سكان العالم . واذا اردنا ان نبلغ هذا الهدف دون حرب أو وباء أو مجاعة ، فيجب ان ننشىء سلطة عالمية وأن نمنحها الصلاحيات اللازمة . وسيكون من مهمات هذه السلطة توزيع محاصيل العالم على جميع الأمم ، بنسبة عدد سكان كل أمة حين قيام هذه السلطة . فاذا زاد عدد سكان أمة فيا بعد ، فلن يتاح لنا أن تنال مزيداً من هذه المحاصيل . بذلك تضطر كل أمة الى ان تحد من نسلها ويترك لها ان تختار الوسيلة الناجعة لبلوغ هذه الغاية .

ورغم أن هذا الحل منطقي تماماً ، فمن الواضح أنه لم يطبق حتى اليوم . ان انشاء سلطة دولية مجدية أمر عسير . بل ان امكانية انشائها تستحيل حين تكون من مهامها مثل هذه الالزامات المنافية لرغبات الشعوب . والواقع ان أمامنا عقبتين متناقضتين . فاذا بدأنا منذ الآن بتقنين استهلاك المواد الغذائية في مجموع انحاء العالم ، شعرت بلاد الغرب فجأة بانها معرضة للموت من الجوع . ومن ناحية اخرى ، بما أن بلاد الشرق هي الأشد فقراً والاسرع في تزايد السكان ، فان تأثرها من هذا التقنين والتوزيع أكبر من تأثر الغرب ، لان حالها لن يتحسن من جراء ذلك . والنتيجة هي أننا في الاوضاع الراهنة نجد العالم كله يقف في وجه مثل هذا الحل الذي اقترحناه ، وهو حل لامأخذ عليه من الناحية المنطقية .

على اننا اذا نظرنا الى المستقبل البعيد ، الفينا أن مشكلة السكان قادرة على أن تحل نفسها بنفسها . ان نسبة المواليد ضعيفة في المناطق الصناعية المزدهرة . كما ان سكان البلاد الغربية مستقرون ، فاذا اراد الشرق ان يبلغ درجة الرخاء التي بلغها الغرب ، فان تزايد سكانه يقل تدريجياً ، بحيث لاتعود مشكلة السكان مستعصية على الحل . ان كلا من الاتحاد السوفييتي والصين والهند مركز كبير من مراكز الانجاب والفقر . فاذا بلغ مستوى الرفاه العام في هذه المناطق نسبة ما هو عليه في امريكا ، فان زيادة السكان في هذه المناطق لاتعود تشكل خطراً على العالم .

ويمكننا القول على وجه العموم ، اذا اتيح للجماعة العلمية ان تنتشر

فوق الارض كلها وان يعم الرخاء العالم كله كما هي الحال اليوم في امريكا ، فان هذه الجماعة ستصيب الاستقرار ، والمشكلة الشائكة هي في بلوغ هذا الفردوس الاقتصادي دون فرض أي تحديد للنسل . ويبدو أن تنسيق العالم على هذا الاساس لن يكون ممكناً في الظروف الراهنة دون أن يحدث هزات عنيفة . وليس الا الدعاية الواسعة التي قد تقوم بها الحكومات ، قادرة على أن تبدل من عادات آسيا البيولوجية ، والواقع ان اكثر حكومات الشرق لن تقبل بنشر مثل هذه الدعاية الا اذا كانت مغلوبة على امرها عسكرياً . واذا لم تحدث آسيا مثل هذا التبدل في عاداتها البيولوجية ، فهي لن تزدهر الا بعد أن تسحق البلاد الغربية ، وبعد أن تبيد عدداً كبيراً من سكان الغرب ، وتفتح بلاد اوروبا في وجه المهاجرين الشرقيين . مثل هذه الفرضية لن ترضي الغرب طبعاً . ولكن هذا الاحتمال ليس أبداً مستحيلاً .

اما شروط الاستقرار السيكولوجية ، فنلاحظ بشأنها ان ازدهار المستوى الاقتصادي امر اساسي لها . ان هذا الازدهار هو الذي يسمح للعمال بالحصول على اجازات سنوية مأجورة . واذا امكن للسلام ان يصان ، ولشعوب الارض ان تحافظ على مستوى لائق ، وللتقنية العلمية ان تطبق على الانتاج تطبيقاً حصيفاً ، فسيكون في استطاعة جميع الناس ان يصيبوا بعض الملذات . وسيصبح ضرورياً تخفيف حدة المركزية عند الحكومات ، واقامة أشكال من الحكومات الفيديرالية ، وتعميم أسلوب الاستقلال الذاتي الضيق ، على غرار الجامعات الانجليزية .

والخلاصة هي ان الجماعة العلمية يمكن أن تصيب الاستقرار ببعض الشروط . أول هذه الشروط وجود حكومة واحدة تقود العالم بأسره ، وتوضع تحت تصرفها وحدها القوة العسكرية ، وتكون قادرة على حفظ السلام . وثاني هذه الشروط نشر الرخاء وتعميمه بحيث يزول التباغض بين مناطق العالم المختلفة ، وثالث هذه الشروط (وهو يفترض تحقق الشرط الثاني) هو أن تكون نسبة زيادة المواليد ضعيفة في جميع البلدان ، بحيث يصبح سكان العالم في وضع مستقر أو قريب من الاستقرار . ورابع هذه الشروط الحفاظ على المبادهة الفردية في العمل واللهو ، وتوزيع السلطة بقسط متساو يجمع تماسكاً سياسياً واقتصاديا .

ان العالم ما زال بعيداً عن تحقيق هذه الشروط . فعلينا أن نتوقع

إذن اضطرابات واسعة وآلاماً رهيبة قبل أن نظفر بالاستقرار، ولئن كانت الاضطرابات والآلام من نصيب الانسان حتى اليوم، فإن باستطاعتنا أن نلمح منذ الآن، ولو بصورة خافتة، ارتقاء مقبلاً، تقهر فيه الفاقة، ويقضى على الحروب، ويصبح الخوف، في حال بقائه، مجرد عارض مرضي. أخشى أن تكون الطريق أمامنا طويلة، ويهمنا مع ذلك ألا نفقد هذا الأمل الأخير.



هدف الفلسفة

بقلم : السير ايسايا برلين
Isaia Berlin

ترجمة : قلم التحرير

« السير ايسايا برلين فيلسوف لامع ومحاضر شهير في لغات عديدة . ولد في روسيا وهاجر مع ابويه الى انكلترا اثناء الثورة ، وكان في الخامسة عشرة وهو الآن في اوكسفورد استاذ للنظريات السياسية والاجتماعية . له مؤلفات عديدة في الأدب والتاريخ والفلسفة ، وقد اشتهر بمؤلفه عن سيرة كارل ماركس وترجمته لآثار تورجنيف . »

ماهو موضوع مادة الفلسفة ؟ ليس لهذا السؤال جواب عام يقبله جميع الاطراف . ان الجواب يختلف بحسب المتكلمين . فثمة من يعتبرون أن الفلسفة هي امعان النظر في الوجود كله . فهي ملكة العلوم ومفتاح المعرفة الانسانية . وهناك من ينظر الى الفلسفة نظرته الى السفسطة اللفظية التي يتهجبا المثقفون قبل أن يصلوا الى النضج ؛ او نظرته الى سبب من اسباب تأخر العلوم ، أو الى نظام فكري يستحق أن يودع في متاحف التاريخ .

ولعل أفضل وسيلة تصل بنا الى تحديد موضوعنا هو أن نتساءل: مم يتألف نظام أي حقل من حقول المعرفة؟ كيف نحدد الدائرة التي يشتمل عليها علم الكيمياء أو التاريخ مثلا؟ في مثل هذه الأسئلة نجد ان موضوعات الدراسة محددة بنوع السؤال الذي يتطلب الاجابة. إن الاسئلة في حد ذاتها، مفيدة إذا عرفنا اين نبحث لها عن اجوبتها. وما يجعل بعض الأسئلة مفيدة في نظرنا هو أننا نعتقد أن بامكاننا اكتشاف أجوبتها عن طريق التجربة أو الملاحظة أو التفكير؛ وغالباً ماتتعلق هذه الأسئلة بالمسائل العامة أو بالعلوم الطبيعية. هناك نوع آخر من الأسئلة يستوجب الرجوع الى أصول المسائل التي توضع موضع البحث، كالاسئلة التي تتعلق بالرياضيات والمنطق وقواعد اللغة وبكل العلوم الخاضعة لنظام عام ومبادىء ثابتة وتعاليم مقررة بحيث نجد الجواب عنها إذا رجعنا إلى أصولها. وكلا هذين النوعين — العملي والشكلي — يحوي تقنيته الخاصة به. وقد اكتشف هذه التقنية أناس نوابغ وسهلوا استعمالها لغير النوابغ بحيث صار في مقدورهم أن يصلوا الى نتائج صحيحة إذا التزموا مناهج معينة في البحث.

ان الطابع الغالب على حقول التفكير البشري هو اننا حين نتلقى السؤال نسعى الى معرفة المكان الذي نجد فيه الجواب. وإن تاريخ نظام التفكير البشري يتجه الى صياغة الاسئلة التي تعترض الانسان بطريقة تصرف الذهن الى أحدهذين الحقلين: **الحقل التجريبي**، ويعني المسائل التي تعتمد في نهاية بحثها على بديهية الملاحظة؛ **والحقل الشكلي** ويعني المسائل التي تعتمد في جذورها على الحساب الصرف دون أن تسمح لعامل التجريب بالمشاركة فيها.

نوع آخر من الأسئلة:

إني إذا سألت «ماهو الغزل» أمكن ايجاد الجواب بالملاحظة والتجريب

وإذا سألت ماهو الجذر التكعيبي لـ ٧٢٩ أمكن حل المسألة باتباع القواعد المعروفة للجذر التكعيبي . ولكن هناك أسئلة لا تدخل في هذا التصنيف . فاذا سألت : « ماهو الزمان ؟ » أو « ماهو العدد ؟ » أو « هل صحيح أن جميع البشر أخوان » خرجت عن نطاق التصنيف المألوف وربما اذا فكرت جدياً في الموضوع — وقعت في غيظ محنق . كذلك إذا سألنا « كيف يصاغ الفعل الذي يدل على المستقبل » أمكن للنحاة أن يجيبوا بصورة آلية بحسب القواعد المتبعة . ولكن لو سألنا : « مامعنى المستقبل » فأين نجد الجواب ؟

إن هذه الأسئلة تختلف عن أسئلة الحقلين الماضيين بأنها لا تشير الى المظان التي يمكن لنا فيها أن نجد الجواب . إن الاسئلة العادية تشير بالضبط الى مكان الجواب ، أما اسئلة الزمان والوجود فانها تحيل السائل الى الحيرة وتزعج الاشخاص العمليين لأنها لا تقودهم الى جواب واضح أو معرفة عملية .

وهذا يبين لنا أن بين حقلي المعرفة الأصليين ، حقلاً ثالثاً تعيش فيه كل الأسئلة التي لا تلائم المعرفة الشكلية ولا المعرفة التجريبية ولهذه الاسئلة طبيعة متنوعة ، فبعضها يبحث في الحقيقة ، وبعضها الآخر في القيمة ، والبعض الآخر في مسائل فنية أو علمية أو نقدية . وهي غالباً ما تعترض الباحثين الذين يطرقون أكثر من حقل من حقول المعرفة الانسانية ، وخاصة حين يبحثون في الأخلاق أو في السياسية . والعلاقة التي تميز هذه المسائل ، هى أنها لا تخضع للملاحظة أو للحساب ، ولا تفسر بالاستنتاج ولا بالاستقراء وهي توقع السائل في حيرة شديدة لأنه لا يعرف أين يبحث عن الجواب ولا أين يجده . إذ أن المعاجم ودوائر المعارف والمؤلفات الجامعة لتعاليم الأولين تخلو من أية اشارة واثقة في أن كلامها في هذه الموضوعات هو القول الفصل . كما أن هذه الأسئلة تتصف بالتعميم وبالمس بالمبادىء والقيم .

هـذه الأسئلة توصف عادة بأنها أسئلة فلسفية ، وينظر إليها عامة الناس بشيء من الاحتقار أو الرهبة أو الشك ، كل بحسب مزاجه . ولهذا السبب ـ إن لم يكن هناك سبب آخر ـ ساد على مدى العصور اتجاه واضح يميل إلى اعادة صياغة هذه الأسئلة بشكل تخضع معه إلى أحد الاتجاهين السابقين ، بحيث يمكن الاجابة عليها عن طريق لتجريب العملي أو القياس النظري .

دور العلم

يكاد يكون تاريخ المعرفة الانسانية ، إلى حد كبير ، محاولة عنيدة في تحويل جميع أنواع الأسئلة إلى سؤال يمكن أن يعالج بطرق تجريبية ، وآخر يمكن أن يناقش بصورة شكلية . فاذا خضع السؤال لأحدى هاتين الطريقتين كف عن أن يكون سؤالاً فلسفياً وأصبح سؤالاً علمياً . وعلى ذلك فاننا لا نخطىء إذا اعتبرنا « علم الفلك » في القرون الوسطى مثلاً ، مسألة فلسفية ، ما دام تساؤلنا عن النجوم والكواكب ، لا تنتج عنه أية اجابة مبنية على الملاحظة أو التجربة أو الحساب ، بل تأتي الاجابة خارجة على قوانين تلك النظم ، كقول الفلكيين القدماء : « الكواكب أجسام كاملة ، صممت لتقتفي أثر الدوائر المرسومة لها في الفلك » أو قولهم « إنها عناصر تتحرك بقدرة الله أو الطبيعة . » وحتى لو كانت هذه الاجابات صادرة عن الملاحظة التجريبية ، فاننا لا نعتبرها علمية ، لأننا لانعرف كيف استخلص الفلكي ملاحظته العملية عن « الأجسام الكاملة » ولا كيف استخلص ملاحظته الميتافيزيكية ، وليس لدينا أي منهج يفصل هذين القسمين ويحدد ما للعقيدة وما للملاحظة من نصيب في هذا الحكم .

وحين صيغت أسئلة علم الفلك صياغة واضحة إلى حد أننا نستطيع أن نعتمد على الأفكار الناتجة عن الملاحظة والتجربة ، ونضعها في نظام يحيل المسائل

الطارئة إلى أصولها المنطقية والفكرية .... عند ذلك فقط خلق علم الفلك الحديث مخلفاً وراءه ركاماً من الأفكار الميتافيزيكية الغامضة التي لا تخضع للاختبار ولا للمنطق وقد تم في عصرنا مثل هذا الانفصال في نظم فكرية عديدة كالاقتصاد وعلم النفس وعلم الدلالات (السيمانتيك)، والمنطق .. وكثير من العلوم الأخرى التي حررت نفسها من ربقة المسائل التي لا تخضع للملاحظة ولا للنظام الشكلي . وإذا واصلت هذه العلوم تقدمها فسوف تستقل بسيرها كعلوم طبيعية أو شكلية رغم غنى ماضيها الفلسفي . وما تاريخ التفكير إلا سلسلة من المذابح التي يرتكبها علم جديد لا يحقق حريته إلا بطعن العلوم التي سبقته وكانت بمثابة والد وأم له . والعلوم جميعها تسعى إلى هذا الانفصال ونبذ ما تبقى عليها من آثار فلسفية ... أي من مسائل لا تحمل حلولها في طيات اهابها . ومع ذلك فمن الخفة في التفكير أن نزعم أن هناك علماً ـ مهما كان مستواه عالياً ـ قد استطاع أن ينفصل عن الفلسفة انفصالاً نهائياً . ففي الفيزياء مثلاً ، ما تزال الأسئلة الأساسية قائمة في عصرنا الحاضر بصبغتها الفلسفية التي لا تهتدي إلى جواب شاف لا عن طريق الأصول المتبعة ولا عن طريق الملاحظة التجريبية . وما زلنا نسأل : ما هي الصلة بين الأشكال الموجية والنماذج الذرية ؟ وهل اللانهاية هي أقصى حدود النظرية تحت الذرية (Sub - atomic) ؟ ومن البديهي أنه لن يتعرض لمثل هذه الأسئلة إلا عالم فيزيائي ، وأن أية اجابة عليها سوف تفيد علم الفيزياء نفسه وتساعد على تقدمه . وبالرغم من تقدم العلوم الوضعية المنفصلة عن الفلسفة ، فان الفلاسفة لم يوجهوا إلى هذه العلوم أي سؤال فيزيائي ؛ في حين أن الفيزيائيين ما انفكوا يطرحون أسئلة فلسفية !! .

المشاكل الملحة

ذاك واحد من الاسباب الذي احتفظ للفلسفة بسلطانها على التفكير في

ايامنا هذه ، بالرغم من التحات المتزايد في اطرافها فمها بلغ عدد المسائل التي صيغت بحيث تتلاءم مع المنهج التجريبي او المنهج الشكلي ، فان عدد المسائل التي لم تخضع بعد لهذا التحويل ، لاينقص كثيرا أو قليلا . ومامن ريب في أن هـذه الحقيقة سوف تدخل الحزن على قلوب فلاسفه التنوير الذين كانوا يأملون بحل المبهمات على أيدي علماء القرن السابع عشر وأول الثامن عشر

ولقد كان من الواضح آنذاك ، أنهم مازالون بعيدين عن الوصول الى الحل النهائي للمشاكل الفلسفية المعلقة ، لانها كانت تطرح بشكل لايمكن الاجابة عليه ، كتساؤلهم ما اذا خلق الانسان وبقية المخلوقات لتحقيق غرض معين حدده الله أو الطبيعة ، واذا كان ذلك صحيحا فما هو هذا الغرض ؟ او التساؤل عما اذا كان الناس احرارا في الاختيار بين نظم متناوبة او أنهم خلقوا وهم خاضعون للعلية التي تسود الطبيعة ؟ او التساؤل عن طبيعة الحقائق الجمالية والاخلاقية ، وهل هي عالمية وموضوعية أم نسبية وذاتية ؟ وهل الانسان الا كومة من اللحم والدم والعظم والعصب ، أم أنه روح خالدة كتب عليها أن تقيم في الارض .وهل للتاريخ الانساني ملامح مميزة ، أو هو سلسلة من الاسباب والنتائج أو مجموعة من المصادفات السعيدة والسيئة . ان هذه الاسئلة القديمة أقضت مضجعهم كما أقضت مضاجع اسلافهم قبلهم .

ان علمي الفيزياء والكيمياء لايخبران أحداً عن السبب الذي يوجب على بعض الناس طاعة البعض الآخر ، ولايحددان ظروف هذه الطاعة ولاطبيعتها ولامافيها من خير أو شر . ولا يقولان ماذا كانت : السعادة والمعرفة ، والعدالة والرحمة ، الحرية والمساواة ، المقدرة واستقلال الشخصية . . أهدافـا متساوية القيمة في الحياة الانسانية . وان كانت متساوية فهل يمكن ان تقارن احداها

بالاخرى . وان لم تكن المقارنة فأيها تختار وتحقق ، وماهو المقياس الذي نستخدمه ليكون اختيارنا صحيحاً ، وكيف نتأكد من صحته ، وماذا تعني لنا فكرة صحة الاختيار . . الى آخر هذه الاسئلة التي أربكت معظم فلاسفة القرن الثامن عشر وجعلت الشك عندهم يجتاح حتى ايمانهم بالعلوم الطبيعية ، وفي ذلك الحين انتصرت عبقرية الانسان انتصاراً حاسماً وخلقت نظاماً :

فاذا استطاع نيوتن ، ببضعة قوانين عامة ، أن يمكننا ـ ولو نظرياً ـ من أن نعين وضع وحركة كل موجود في العالم ، وبذلك استطاع بضربة واحدة أن يمحو الغموض والارتباك من منطقة واسعة جداً في معرفة الانسان للطبيعة . . أفليس من المعقول أن نتمكن من جلاء طبيعة السلوك الانساني بتطبيق قوانين مشابهة لقوانين نيوتن ، وبتحليل طبيعة الانسان تحليلا يؤدي الى توضيح غوامضه مثلما وضحت قوانين نيوتن غوامض الطبيعة ؟ وبذلك نؤسس العلوم الانسانية على أساس ثابت ثبات الاسس التي قامت عليها العلوم الطبيعية ! !

ان الفلسفة تتغذى من تشويش اللغة وغموضها ، فاذا توضحت اللغة فمن المؤكد أننا ستجد أن المسائل المتبقية بعد هذا الغموض ذات علاقة بمعتقدات الانسان وآماله ومخاوفه . وتلك هي الدراسات التي تناسب علماء النفس ، وعلماء الانسان ، وعلماء الاجتماع ، وعلماء الاقتصاد . وكل ماننتظره هو قدوم نيوتن جديد أو سلسلة من أمثال نيوتن لتنظم العلوم الانسانية ، وبهذه الطريقة يمكن التغلب على المشاكل الفلسفية مرة والى الابد . وعلى مثل هذه الارض السهلة الممهدة يمكن أن يشاد صرح العلم الطبيعي الذي يضم الانسان الى الكون من جديد.

كان هذا أمل فلاسفة التنوير جميعا من هو بز ، وهيوم الى كوندوروسه وبنتام ، وسان سيمون ، وكونت وأخلافهم . لكن هذا البرنامج كتب عليه الفشل

اذ ان مملكة الفلسفة لم تنقسم الى ولايات صغيرة يسهل على العلماء حكمها ، واستمرت مسائل الفلسفة (ومازالت) تقض مضاجع العلماء واصحاب الاذهان النافذة والقرائح الحادة .

لماذا ساءت الأمور إلى هذا الحد ؟ إن (كانت) تولى عنا توضيح المسألة فقد كان أول مفكر وضع حداً فاصلاً بين الحقائق وبين النماذج التي تتبدى لنا فيها هذه الحقائق . وقال إن النماذج ثابتة لا تتغير مهما تغيرت الحقائق أو معرفتنا بها إن النماذج أو المقولات أو أشكال التجربة ليست موضوع المعرفة بالنسبة للعلوم الطبيعية . لقد كان (كانت) أول مفكر فرق بين الحقائق - أي معلومات التجربة والاشخاص والاشياء والحوادث والصفات والعلاقات وكل مانلاحظه عنها ونستنتجه منها ، وبين المقولات والتعابير التي نصوغها لنبين مافهمناه وتخيلناه عنها . لقد نظر الى المقولات وكأنها مستقلة عن العالم ، ورجع بها الى أصول دينية وميتافيزيكية تخص عصوراً حضارية متعددة . ولأن المقولات تنتقل عبر التاريخ ظن فلاسفة اليونان - وعلى رأسهم ارسطو - أن جميع الاشياء تحمل في ذاتها علة وجودها وغايته ، وتسعى خلال وجودها الى تحقيق هذا الهدف وتلك الغاية .

وكان مسيحيو القرون الوسطى ينظرون الى العالم وكأنه مؤسس على نظام هرمي تجري فيه الاشياء الى غاياتها التي قدرها لها خالق عزيز حكيم . وهو وحده عليم بهدف الخليقة ، وهو يقدر الحظوظ السعيدة والتعيسة لمن يشاء من عباده بمقدار مايخضعون لاوامره التي تسيّر كل مخلوق الى الهدف الذي خلق من أجله . وهذه الاهداف اذا تحققت بمجموعها تناسق الكون بحسب الحكمة الالهية التي يعرفها الخالق ويجهلها المخلوق .

لكن عقلانيي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم يروا هدفاً ما لأي

مخلوق . وقالوا ان الانسان يبتدع هدفه بحسب حاجته واعتبروا أن جميع الاشياء خاضعة لمبدأ العلة والمعلول . وعلى هذا فليس للمخلوقات هدف ما وهي تتغير وتتبدل كما تريد . وقد اعتبرت هذه الاقوال آنذاك حقائق « وحشية » لأنها نظرات تخالف المألوف مخالفة تامة . ومع ذلك فان اصحاب هذه الاقوال رأوا في العالم الوانـاً متشابهة واشكالا متشابهة وتجارب ومشاعر وحركات متشابهة تتجه جميعهـا الى اهداف متشابهة وتقوم بأفعال متشابهة !!

كيف نظروا إلى الامور

ينص مذهب كانت أن جميع الناس يرون العالم الخارجي من خلال المقولات. ولذلك فان رؤيتهم له متطابقة ثابتة دائمة . وهذا مايجعل عالمنا موحداً ويجعل الصلة فيه ممكنة . لكن من يدرس التاريخ أو الأخلاق أو علم الجمال يجد فيه اختلافاً وتغيراً . لكن مايتغير فيه ليس هو المضمون التجريبي لما رأته الحضارات المتعاقبة أو سمعته أو فكرت فيه ، بل ان مايتغير هو اساليب التعبير وطرق الفهم وأشكال المقولات التي يرى الانسان عالمه من خلالها .

إن عالم الانسان الذي يؤمن بأن الله خلقـه ليحقق غاية ما من وجوده ، ويؤمن أن روحه خالدة وسوف تبعث بعد الموت وتحاسب على خطيئاتها ، هو عالم يختلف تمام الاختلاف عن عالم انسان لايؤمن بشيء من ذلك كله . وان دوافع العمل وتعاليم الاخلاق ، والمعتقدات السياسية ، والذوق الشخصي والعلاقات الخاصة لتختلف أعمق الاختلاف عند المؤمن وعند غير المؤمن .

ان نظرة الناس الى بعضهم وبعض تختلف باختلاف مفاهيمهم عن العالم . ولو اخترنا دون قصد مفاهيم عامة كالخير والشر والحرية والعبودية والعدالة والظلم والحق والواجب والقانون لوجدناها تعتمد اعتماداً مباشراً على النظرة العامة التي يصوغها كل انسان لنفسه . ومع أن الحقائق التي تترتب على هذه الافكار ليست

متماثلة عند جميع الناس وفي كل العصور فان هذه الفروق التي يتفحصها العلماء، ليست بنفس العمق الذي يظهر في المجالات الأخرى. فاستعمال مقولات مختلفة، والتفكير بتعابير مدارس مختلفة يجب أن يختلف باختلاف العصور والحضارات والقارات.

فالفلسفة إذن تمحيص نقدي للطرق التي ننظر من خلالها الى الوجود ونفهمه. وهي ليست بحثاً لما وجد أو يوجد أو سوف يوجد ـ فهذا من اختصاص العلوم الطبيعية كما أنها ليست بحثاً تجريبياً لكنها تحليل للمقولات من خلال التعابير التي فهمناها وصنفناها بها.

ليست الفلسفة دراسة تجريبية، ولا هي نوع من التعاليم الشكلية كالرياضيات والمنطق. ان مادة بحثها هي المقولات الدائمة او شبه الدائمة بأسلوب يجعل التجربة مفهومة وقابلة للادراك. فالهدف ضد السببية الآلية، والعضوية ليست مجرد الالتحام بين الاجزاء، والنظم ليست مجرد حشد الجزئيات، والواجب ضد الرغبة ـ هذه المقولات والنماذج والشاهد: بعضها قديم قدم الانسان نفسه، وبعضها أكثر زوالاً.

وكلما كانت المشاكل التي يبحثها الفيلسوف عابرة زائلة أكثر من غيرها، اتخذت مشاكله مظهراً تاريخياً وطابعاً ديناميكياً يفوق غيرها من المشاكل. ان النماذج والنظم المختلفة ومايتبعها من الصعوبة والغموض، تظهر في كل زمان، والمثال الذي ذكرناه آنفاً عن مشاكل الفيزياء المعاصرة بصدد ايضاح النظام الذري، واحد من كثير غيره. ولكن هناك مشاكل اخرى لاتمس الفيزيائيين وحدهم بل تتعلق بالناس كلهم:

نماذج

لو اخترنا ميدان السياسة كمثال على ما نريد اظهاره من مشاكل، لوجدنا

أن المفكرين حاولوا أن يفسروا وجودهم الاجتماعي بالقياس على نماذج مختلفة . فقد حاول أفلاطون أن يصوغ نظامه للمجتمع بالقياس الى الهندسة ، ثم تلاه أرسطو بنموذج للنظام البيولوجي ، أما صورة المجتمع عند المسيحيين كما تظهر في كتابات آباء الكنيسة فانها قد تأثرت بالتوراة ، ولذلك صاغت نموذجها بالقياس الى الاسرة مما يلقي ضوءاً على العلاقات الانسانية ، وهذا ماتفتقده الأنظمة الميكانيكية التي استمدت أفكارها عن المجتمع بالقياس الى الجيش في زحفه ، وما يحتاجه خلال تقدمه من فضائل تصون سلامته ، وقد اقترح هوبز وماركس مثل هذا النظام ولذلك اكدا على قيمة الولاء والطاعة والخضوع للتعاليم والحاجة الى النصر وسحق العدو دون رحمة . اما فكرة النظر الى الدولة وكأنها شرطي سير وحارس ليلي : تمنع التصادم وتحمي الملكية فهي من نتاج الفردية والليبرالية . كما ظهر مفهوم للدولة على انها تعاونية انتاجية توزع الافراد في كل باب وثغر ، على نحو يتلاءم ومبدأ « العضوية » الذي نادى به فلاسفة القرن التاسع عشر . لقد استعارت الانظمة كثيراً من علم النفس أو من نظريات علمية أخرى وصاغت بناءها بتعابير تحمل الى ذهن الانسان تجارب الجماعات والحضارات .

إن هذه الانظمة تتصارع غالباً بسبب فشلها في مجابهة العديد من التجارب، ثم ماتلبث ان تتلاشى وتحل محلها أنظمة جديدة تؤكد على أهمية ما أهملته النظريات السابقة ، لكنها تغمط حق بعض النواحي التي يعتبرها الآخرون — بدورهم — ذات أهمية فائقة . ان عمل الفلسفة صعب مؤلم ، فهو ينحصر في القاء الضوء على المقولات التي أهملها أحد النظم الفلسفية ، بتعابير تكشف الغموض والتناقض في النظام الفلسفي موضوع البحث ؛ وتصف مايحصل ما بين النظم من صراع يمنع قيام نظام أكثر دقة وعضوية . وبعد ذلك — وعلى مستوى أفضل — يبدو عمل

الفلسفة أن تبحث في طبيعة النشاط الانساني نفسه ((أي في فلسفة المعرفة وفي المنطق الفلسفي وفي التحليل اللغوي) وأن تكشف النقاب عن النظم الخفية التي تلعب دورها في تنظيم النشاط الانساني.

وإذا وجد من يعترض بأن هذا العمل يبلغ درجة من التجريد تبعده عن تجارب الحياة اليومية وعن محور اهتمام الانسان العادي بشقائه وسعادته ومصيره فانني اجيبه بأن هذا الاعتراض زائف. لأن الناس لايستطيعون أن يعيشوا دون أن يصفوا ويشرحوا لأنفسهم هذا العالم. والطريقة التي يتبعونها في هذا العمل، تؤثر تأثيراً عميقاً في حياتهم، على الأقل حين يتصرفون تصرفاً لاشعورياً؛ مع العلم أن معظم شقاء الانسان ينتج من اصراره – بصورة شعورية حرة او لاشعورية آلية – على تطبيق نظام ما في حالات لا يصلح لها. ومن ذا الذي يمكنه ان يحصي العناء الذي سببته المبالغة في تطبيق النظام العضوي في السياسة؟ او ماهي نسبة الخير والشر حين بالغ الحكام والكهنة في حمل الدولة مطابقة لقياس النظام العائلي؟

وإذا كان للانسان ثمة أمل واحد بنظام عقلي على الأرض، أو أمل بتقدير عادل للمصالح المتعددة التي تقسم الناس إلى فئات مختلفة – مع العلم أنه لا غنى لأية محاولة عن إيجاد التوازن بينهم، وعن ايجاد تسوية يستطيع معها كل انسان أن يعيش ويرضى رغباتهم – فان هذا الأمل يكمن في تسليط الضوء على هذه النظم الاجتماعية والاخلاقية والفلسفية؛ وفوق ذلك جميعاً: الكشف عن جذور هذه النظم في النماذج الميتافيزيكية، بنظر ثاقب يقرر ما إذا كانت هذه النظم تتلاءم والعمل الذي وضعت له. إن مهمة الفلاسفة الأبدية، هي عرض كل مايبدو جامداً عديم الحس على محك النظريات العلمية والملاحظة اليومية. أي عرض المقولات والمفاهيم والنظم وطرائق التفكير أو السلوك، وبخاصة الطرائق التي تتعارض بعضها مع

بعض ، بغية بناء طرائق أخرى أقل في عدد تناقضاتها الداخلية ، وأقل تضليلاً في صورها ورموزها واستعاراتها ونظم مقولاتها . ومن المؤكد أن السبب الرئيسي للفوضى والخوف والتعاسة ، هو التعصب الأعمى للأفكار البالية ، والشك المرضي بأي نوع من أنواع النقد الذاتي ، والضغط الجنوني في سبيل منع أي نوع من أنواع التحليل العقلي لما نعيش به وما نعيش من أجله .

وهذا الخطر الاجتماعي ، والخطر النفسي ، غالباً ما يرهقان الفكر ويجحدان قيمته ، وإن لم يستطيعا أن يقللا أهميته ، سواء أعالج الفلاسفة قضايا العلوم الطبيعية أو القضايا الأخلاقية أو السياسية أو الشخصية المحضة .

إن هدف الفلسفة دائماً هدف واحد لا يتغير ، وهو حث الناس على فهم أنفسهم وبذلك وحده ينفتح الانسان على العالم ولا ينكفيء إلى الظلام .



التأثير العربي الإسلامي

في مجتمع افريقيا الغربية

بقلم : نعيم قداح

ان الاسلام بالنسبة للوثنية الافريقية صنو للرقي والتقدم والحضارة ، لذا كان خطوة هامة في تطور المجتمع الافريقي في كثير من نواحيه (١) .

فقد ساعد على نشوء ونمو كثير من المدن التجارية ، وساهم في التقدم السياسي للدول والامارات الافريقية ، وفي ظهور المراكز الثقافية ، وقد اظهر الاسلام ايضاً تغييراً اساسياً في العادات والاخلاق .

وقد اختفت بتغلغل الاسلام اقبح العادات ، مثل اكل اللحم البشري وتقديم القرابين البشرية ووأد الاطفال ، تلك الشرور التي كانت الطابع الاساسي للوثنية وكان الناس عراة ، لايغتسلون ، فأصبحوا بعد الاسلام يأتون في ملابسهم من اجل الصلاة . وشرعوا يغتسلون يومياً ، لأن الشريعة تتطلب منهم الطهارة بل انهم قد اصبحوا ياهون مواطنيهم الوثنيين بملابسهم البيضاء النظيفة .

---

(١) مصادر البحث : ١ ـ افريقيا قبل الاستعمار للشيخ انتا ديوب السنغالي (بالفرنسية) . ٢ ـ الدعوة الى الاسلام لأرنولد . ٣ ـ الحضارات الافريقية لبولم (بالفرنسية) . ٤ ـ دراسات عن الاسلام في افريقيا لماركي ، من سلسلة مجلة العالم الاسلامي (بالفرنسية) . ٥ ـ دراسات افريقيا لنيان (بالفرنسية) . ٦ ـ الاديان في افريقيا السوداء لديشان . ٧ ـ الاسلام في الغرب المؤلف دو . ٨ ـ مجلة افريقيا الفتاة التي تصدر باللغة الفرنسية بتونس .

وكان لمنع الاسلام شرب الخمر اثر في الاستقرار النفسي والصحي وفي اقبال الناس على اعمال الخير ، والقيام بالواجبات . وقد حث الاسلام في المجال الاقتصادي على الكسب الحلال ونزاهة الطعمة ، فأقبل اقوام على المهن الشريفة . وكان تحريم الاسلام الرقيق سبباً في صون القوى البشرية في افريقيا . واتاحت مرونة الاسلام للافريقيين ان يصبغوا بعقليتهم بعض النواحي الفقهية والسياسية والاجتماعية في الدين الحنيف ، وقد بدا ذلك واضحاً في ظهور الطرق الاسلامية الافريقية باتجاهاتها السياسية المختلفة .

وفي المجتمع الوثني كانت السلطة الامومية مهيمنة ، فان حبل النسب مرتبط بالام ارتباطاً وثيقاً (فقد نقل احد ملوك غانه الدولة الوثنية القديمة عاصمة ملكه الى بلدة امه) .
ولما جاء الاسلام اعطى القرابة الدموية من جهة الاب قوة عظيمة . ومن ثم فقد اصبح للرجل دور هام في الحياة الاجتماعية ، ومن جهة اخرى فقد حث الاسلام على صيانة حقوق المرأة كما سنرى بعد قليل :

لقد كان الافريقي الوثني يحمل اسمه واسم عائلة امه حسب نظام السيطرة الامومي ، ثم اضيف الى كل ذلك فيما بعد الاسم الاسلامي (كان احد سلاطين مالي في القرن الرابع عشر يدعى « كانكو موسى » Kan Kou و « كانكو » اسم امه) وتطور الامر الى الاحتفاظ باسم القبيلة بدلاً من اسم الام ، الى جانب الاسم العربي الاسلامي . وذلك بعد ان ازداد الدور الاقتصادي للرجل الذي قدمه الاسلام على المرأة (اسماعيل توري Touré ، ابو بكر تراوري Traoré ، ابراهيم سوري Sori ، ان الاسم الثاني هو اسم القبيلة) .

وقد بدأ تفتت النظام القبلي تدريجياً بعد دخول الاسلام الى تلك البلاد ، فقد اتيحت الفرصة لتآخي القبائل في ظل هذا الدين ، في وحدة افريقية ، بعد قرون من الحروب القبلية الدامية . وكان من نتيجة ذلك ان قامت الدول الافريقية الاسلامية على التجمع القبلي الديني : فمملكة مالي ، في وادي النيجر الاعلى ، قد ظهرت بتجمع قبائل الماندينغ Manding المسلمين ، ومملكة كايور في السنغال قد اعتمدت على سواعد قبائل الولوف Oulof التي اعتنقت الاسلام في القرن السابع عشر اما مملكة غاو ، في وادي النيجر الاوسط (جمهورية مالي) ، فقد كانت تجمعاً قبلياً ، اسلامياً لقبائل السونراي Sonrani وكذلك حال الامارات الاسلامية في نيجيريا الشمالية فقد كانت رمزاً لاتحاد الهاوسا Haoussa وقد ساعد الاسلام على تكوين طبقة جديدة خلفت طبقة الزعماء القبليين . وهذه الطبقة الجديدة هي طبقة المثقفين من رجال الدين ، وقد عرفوا باسم الأئمة ، وقد قاد بعض هؤلاء حركات سياسية واجتماعية ودينية ابان القرن التاسع عشر . ومنذ ان وطئت اقدام المستعمرين ارض افريقيا الغربية كان لبعض الأئمة دور واضح في ايقاد شعلة

المقاومة وقد تولى بعضهم قيادتها . تجلى ذلك في النضال المستميت الذي قام به محمد الامين واحمد الشيخ وغيرهما في السنغال والحاج عمر وولدماحمد في واديالنيجر (السودان الغربي) وفرحون في مناطق النيجر الشرقية والسلطان رباح في تشاد ، وساموري توري في غينيا وقد تمتع المثقفون من الأئمة بمميزات الحكام ولاقوا كل احترام وتبجيل يعبران بشدة عن تدين الشعب الافريقي ، وقد اصبح هؤلاء نواة لاقطاعية جديدة ، يملك الواحدمنهم كثيراًمن الاراضي الخصبةالتي يعمل فيها اتباعه وفق نظام المشاركة (١) .

وقد تجسدت مؤثرات الاسلام بشكل جلي في الحياة اليومية في مملكة مالي ومملكة غاو (من القرن الثالث عشر الى نهاية القرن السادس عشر) فكان الأئمة والعلماء يتناولون طعامهم والسلطان على مائدة البلاط وكان سلاطين هاتين المملكتين يجمعونهم في الخطوب ويتداولون معهم في شؤون الدولة وفي الاقطار التي تتعرض لها ، ثم يتخذ المجتمعون التدابير اللازمة .

وكان سلطة العلماء والأئمة ، وهم ممثلو الثقافة العربية ، زمن السلطان محمد الحاج (مطلع القرن السادس عشر) غير محدودة . وقد آمن الافريقيون بما زعمه بعض رجال الدين من ارتباط انسابهم بالاسرة الهاشمية من الأدارسة وقد لقب هؤلاء بالأشراف ووصل الاعتقاد ببعض المجتمعات الى أن كثرة الأشراف في بلدما تؤدي بأهله الى الجنة (٢)

ولقد كانت حياة البلاط الملكي في مالي وغاو – كما يقول المؤرخ الغيني المعاصر جبريل تيان – صورة لما كان سائداً في بلاط مراكش والقاهرة (٣) وكانت العادة أن يعفر الوثنيون الذين يريدون مقابلة الملك رؤوسهم بالتراب ويجلسون على الركب حاسرين ، الا أن الاسلام قد خفف من وطأة هذه التحية الوثنية فاقتصرت على التصفيق وفي الجمعة والاعياد يحضر السلطان الصلاة الجامعة ويستمع الى الخطبة التي يلقيها الامام بالعربية وكان السلطان يتلقى في المسجد الشكاوى كما يقول ابن بطوطة ، وينظر في حلها فوراً تشبهاً بعدل الحكام المسلمين في الشرق (٤) وقد أخذ الملوك الافريقيون بالتقاليد الاسلامية التي فرضت على الحاكم ان يتجول في شوارع عاصمة ملكه متفقداً شؤون الرعية .

وقد سادت الشريعة الاسلامية بجذافيرها في نظام الحكم في السلطات الافريقية ، كانت الملكية في مملكة غانه الوثنية تستند الى قرابة الأم ، إذ كان يرث الملك ابن اخت الملك فأصبحت

---

(١) Les civilisations Africaines D . Paulme

(٢) ديوب ، مارتي .

(٣) دراسات افريقية .

(٤) المصدر ذاته .

الملكيه وراثيــة في الابن الأكبر ، كما هي الحــال في الخلافة في الدول الاسلامية في الشرق وقد قوى الاسلام الروابط بين عاصمة المملكة والمقاطعات فامتنع كثير من الولاة عن الانفصـال ايمانا منهم بأن خلع طاعة السلطان من باب الارتداد عن الدين ، وفي مملكة غانه الدولة التي اصطدم فيهـا الاسلام بالتنظيم الوثني الوحيد ، اعترف الغانيون . كما يقول ديوب ، للمسلمين بالتفوق الثقافي ، وطلبوا اليهم ان يشاركوا في ادارة البلاد ، بخبراتهم الواسعة . وقد ذكر البكري في رحلته أن كثيراً من وزراء الملك الوثني في كوبي عاصمة غانه ، كانوا من المسلمين وكان التراجمـة منهم . وكان وزير الخزانة عندهم مسلماً .

وقد ادخل المسلمون من شمال افريقيا تنظيمات كثيرة على الشؤون الماليـة لخبرتهم بها ، وللثقة الكبيرة التي كان الملك الوثني يحس بها نحوهم .

واسوق فيما يلي ، صورة للحياة الاجتماعية للمسلمين في نيجيريا رسمها لنا في مطلع القرن العشرين ، الرحالة الانكليزي جوزيف تومسون في كتابه (القبائل الافريقيـة في الامبراطورية البريطانية) وفيما ذكره تومسون تتوضح الآثار الاسلامية في المجتمع الافريقي بينما كانت تجارة الخمور والرقيق الاوربية تفتك بالقبائل الوثنية (١)

يقول تومسون الانكليزي :

بينما كانت الباخرة تسير في صعداً في مياه نهر النيجر ، لم أجد الا قليلا من التغيير للمناظر التي شاهدتها في المائتي ميل الاولى حيث تسود الوثنية والوحشية وتجارة الخمور في ازدهار عجيب.

ولكني لما تركت ورائي المنطقة الساحلية المنخفضة والتي على مقربة من الحدود الجنوبية للسودان الاوسط (وادي النيجر الادنى) لاحظت تحسناً مطرداً في المظهر الاخلاقي عند الاهلين لقد اختفت الوحشية والوثنية ، وزالت تجارة الخمور الى حد بعيد وصارت الملابس أكثر احتشاماً وأصبحت النظافة عند القوم عادة ودلت مظاهرهم الخارجية على وقار زائد وأدب جم وقد دل كل شيء على ان ثمة نواة لمبدأ أكثر رقياً ، ومن الواضح انه كان يؤثر تأثيراً عميقاً في طبيعة الزنجي ويجعل منه انساناً جديداً ، وان هذا المذهب هو الاسلام .

ولما مررت بلوكوجا (Lokoaja) عند ملتقى نهر بينويـه Béunué بالنيجر (الى الشمال الشرقي من لاغوس) ، تركت ورائي المراكز الامامية لنشر الدعوة الاسلامية ، ولما دخلت السودان الاوسط ، وجدتني في دولة تقوم على العدل وتغص بجماعة نشيطة من التجار الاذكياء وكان هناك صناع مهرة في المنسوجات والنحاس والجلد . والواقع انهم شعب متقدم تقدما عظيما في مراقي الحضارة . (٢)

---

(١) الدعوة الى الاسلام : أرنولد .
(٢) أرنولد

وكان موقف الاسلام من الطبقات المستضعفة يتسم بالتأكيد على الصفات الانسانية ومراعاة قيمها ، وقد وجد امامه مشكلة ملحة مشكلة جماعة من الرقيق الذين هم في اسفل درجات السلم الاجتماعي . كانت هناك قبائل مسترقة للسلطان ، أو لزعيم القبيلة ، وهم يشكلون الاكثرية الساحقة من الجيوش المحاربة . وقد اوجد الاسلام نظاماً لتحرير الرقيق ، وفقاً للشريعة المطهرة . ولهذا طبقت طريقة المكاتبة في كثير من الاحيان ، فقد يشتغل عـدد من الافراد او القبائل عند السيد او السلطان مدة من الزمن يصبحون بعدها احراراً (١) .

وقد شن المسلمون حملة شعواء على الرقيق وعلى المتاجرين وحاربوه بكل وسيلة . وكان المسترقون من الوثنيين ، ولكنهم دخلوا في الاسلام ليتحرروا . على أن نظام الرق الافريقي لو قورن بمثيله الاوروبي في العصور الوسطى ، يمثل سوية مرتفعة ، لأن الافريقي المستعبد يتمتع بحياة مزاياها افضل من تلك التي يعيش في ظلها الرقيق الاوروبي (٢) وقد اعترف بذلك الرحالة الفرنسي René caillé الذي زار افريقيا الغربية في حوالي عام ١٨٣٠ (٣) .

على أن المخطط البناء الذي اتبعه الاسلام للقضاء على الرق ، قد اصطدم بتجارة الرقيق التي اوجدها الاوربيون على سواحل افريقيا الغربية . وكانت اعمـالهم في هذا الشأن سلسلة من الخزي والعار (٤) .

المرأة في مجتمع أفريقيا الغربية

لابد لـكي تتم صورة الحياة الاجتماعية ، من البحث في اوضاع المرأة الافريقيـة وتأثير الاديان السماوية في تطورها (٥) .

ويعترف كثير من البـاحثين بالدرجة المنحطة التي وصلت اليها المرأة الافريقية في تلك الاصقاع وان هذا الانحطاط يعود الى موروثات تاريخية لها صلة وثيقة بالمجتمع الافريقي الوثني

---

(١) نيان .
(٢) ديوب .
(٣) الصحراء الكبرى لجورج غيرستر .
(٤) انظر مقالا في الرقيق وتجارته في مجلة المعرفة (ايلول عام ١٩٦٢) .
(٥) انظر في هذا البحث المصادر السابقة .

المرأة الوثنية

كانت المرأة الوثنية عبدة للرجل ، لكنها مارست حريتها بأشكال مختلفة ليس للاخلاق اية قيمة فيها ، فالوثنية الافريقية لاتتقيد بالقواعد الاجتماعية ، ولا تخضع لعرف في مظهرها الخارجي. يشتريها الرجل . لهذا فهي تساوي بالنسبة لذويها ثروة تجارية عليهم أن يستفيدوا منها . وبما أن نظام تعدد الزوجات تقليد وثني قديم ، اريد منه اكثار النسل ، والحفاظ على التوازن الاجتماعي، فانا نجد القلة من الاثرياء الشيوخ تقتني عدداً كبيراً من النساء الجيلات ، ويترتب على ذلك اخطار من النواحي الاجتماعية والاخلاقية والبشرية وان امتلاك احد المسنين لعشرين امرأة امر يلفت النظر في المجتمع الوثني ، ويستطيع الانسان أن يدرك مبررات هذا الامر ، اذا علم أن هذا المسن قد جمع هذه النسوة ليلدن له اولاداً ليسوا من صلبه ، يشتغلون فيما بعد في حقوله في مقابل الطعام اليومي.

لهذا تنتقم المرأة الوثنية لنفسها من هذه العبودية التي ارادها لها الرجل ، فتعيش عارية وتستسلم لكل رجل بقصد التسلية او رغبة في المال لتقتني به ادوات الزينـــة ، فالدعارة والزنى والعلاقات المحرمة بين الاقارب مظاهر عادية في المجتمع الوثني وكانت الوثنية المتزوجة تحتفظ بثروتها عند اهلها وفق قواعد قبيلتها ولئن وصلت بعض النسوة الى مراتب الكاهنات في المجتمعات الوثنية على السواحل الجنوبية من افريقيا الغربية ، فان كثيرا منهن قد حلق سفاحاً وهن معتزلات في الاديرة ، وكان جواب الكهان على ذلك قتل تلك النسوة الفاسقات (كما جاء في كتاب الوثنية في افريقيا السوداء) .

المرأة الافريقية والاسلام :

وصل الباحثون الاوربيون الى الحقيقة الساطعة التالية وهي : ان الاسلام قد رفع من قيمة المرأة الافريقية .

ويقول (رو) لقد شذب الاسلام كثيراً من العادات التي تعيش عليها المرأة الوثنية ، ولو ان بعض المؤلفين قد تحفظوا فيما يتعلق بنتائج التأثير الاسلامي على المرأة الافريقية نظراً لما يراه البعض من تهاون بعض المجتمعات الافريقية الاسلامية ببعض الاشياء الاساسية في الدين الاسلامي .

ويبدو أن التنظيم الاسلامي لحياة المرأة الافريقية قد اتسم بشيء من النظام الاخلاقي المتماسك اذا ماقورن بالمظاهر الوثنية الخلاعية .

ان المرأة المسلمة ، على العموم ، ترتدي اليوم ملابسها ، فهي تضع وزرة حول وسطها ثم تغطيه بمجموعة ملونة من القمصان والثياب الداخلية ، وتستر أعلى الرأس فقط بمنديل زاهي الالوان ، وقد يبقى ذراعاها وكتفاها عاريين وان ما رآه ابن بطوطة خلال رحلته الى افريقيا

الغربية من النسوة العاريات بصورة جزئيــة (كشف الصدور) وما أثار دهشته ، وما يراه الانسان اليوم من العري الجزئي في بعض القرى وفي الريف ، يعود الى طبيعة الاقليم الذي يفرض على المرأة ان تتخفف من بعض ملابسها اثناء العمل ولكن ذلك لم يصل بالمرأة المسلمة الا الى كشف الاجزاء العلوية من جسدها . وفي الوقت ذاته التزمت الحشمة في بقية أعضاء جسدها الامر الذي لم تألفه الوثنية في الغابات حتى الان . وقد خفت وطأة العري بجميع أشكاله ، وأخذت الافريقيات يقلدن الزي الاوربي .

الزواج والطلاق والحياة الأخلاقية

من المظاهر التي رفع بها الاسلام قيمة المرأة الافريقية ظاهرة (المهر) فقد أصبح من حق المرأة ، وقد يقاسمها فيه أهلها الا أن مؤخر الصداق قد أضحى حقاً اساسياً تحصل عليه المرأة عند الطلاق .

وتتزوج المرأة بين العاشرة والثانية عشرة لبلوغهـا في سن مبكرة . ويجري الزواج وفقاً للشريعة الاسلامية ، فيذهب الخاطبون الى دار الفتــاة وهناك يقدمون الهدايا من الكولا والقماش والارز ثم تجري مراسم الزواج في احتفال كبير ترقص فيه الفتيات والشبان على أنغام طبول التام تام ، ويدوم ذلك نحو اسبوع او اكثر وقد تستمر النسوة في احتفالاتهن الى مابعد ذلك ، فيحملن قطعة القماش الملوثة بالدماء ، التي تثبت شرف عائلة الفتاة ، ويتجولن في الاحياء مزغردات . وفي الحالة التي تكون فيها الفتاة غير عذراء يكتفى باحتفال بسيط ليست فيه أية ضجة .

وقد جرت العادة في وادي النيجر الاوسط أن تحرص العائلة على رؤية مئزر العروس ملوثاً بالدماء لتفخر بالشرف والكرامة . وفي بعض الاحيان يعلن الزوج هناك على الملأ أنه سيعيد زوجته اذا لم يجدها بكراً . وفي افريقيا الغربية ظاهرة كثر وقوعها وهي أن العرب الذين قدموا الى هناك للتجارة في مطلع هذا القرن ، قد تزوجوا الافريقيات المسلمات .

ومشكلة البكارة تقودنا الى البحث في الاخلاق ، ويقول «رو» في الاخلاق الاسلامية الافريقية : ان المجتمع الاسلامي الافريقي صارم مستقيم بالقياس الى المجتمع الوثني . وقد زعم بول مارتي المختص بدراسة الاسلام في افريقيا الغربية أن الحرية الجنسية التي كانت سائدة زمن الوثنية قد بقيت في المناطق الاسلامية . وقد يصور هذا العالم بعض الحقائق الا انه اذ يعممها يقع في خطأ كبير توضحه المظاهر التالية :

١ ـ ان الحوادث الفردية التي شوهدت في بعض المجتمعات ، لا يمكن أن تكون صورة صحيحه عن الحالة العامة .

٢ ـ ان الاختلاط المعقد بين العادات الاسلامية والمحليـة القديمة ذات الرواسب الوثنية يضع على أعين الباحثين غشاوة لا يستطيعون معها التمييز بين ماهو اسلامي ، وما هو وثني على الرغم من أن الاسلام باعتراف كثير منهم ، قد استخدم المقص لتقليم المظاهر الوثنية .

٣ ـ وقد توجد في بعض الانحاء عادات تتسم بالتحرر الزائـــد فتكون المرأة راضخة للشريعة خاضعة لسلطة زوجها تصون الرابطة الزوجيه لانها جزء من الاسرة التي تعمل مع زوجها على بناء حرمهـــا ومع ذلك فهي في الوقت نفسه تستهين ببعض القيود الاجتماعية والاخلاقية في مظهرها الخارجي أو في تصرفاتها الشخصية .

وينبغي ان نشير هنا الى ان الطلاق شائع في المجتمعات الافريقية الاسلامية لاسباب متفرقة أهمها العقم والخيانة الزوجية .

ويحمل الشيوخ المثقفون على الطلاق ويقودون حملة عنيفة ضد هذه الآفة الاجتماعية ...

وفيما يتعلق بتعدد الزوجات المأساة الخالدة في حياة المرأة الافريقية مهما كان دينهـا ، فان الاسلام قد طبقها للقضـاء على الدعارة التي تنتشر في المجتمع الوثني ، وهو بذلك لم يخالف قاعدة شرعية من صلب مبادئه وان مشكلة تعدد الزوجات بالنسبة للاسلام تتعلق بمقدار الثقافة التي تتلقاها المرأة في المجتمع . ففي موريتانيا لاوجود لتعدد الزوجات لان المرأة هناك تتلقى درجة جيدة من التعليم أفضل من أختها الافريقية . وفي تومبوكتو وماحولهـا يندر تعدد الزوجات للسبب نفسه ولسبب آخر يرجـــع الى ان الطوارق الذين يسكنون في تلك المنطقة حريصون على وحدانية الزوجة لانها تلعب دوراً بارزاً في المجتمع الصحراوي وقد اعتاد الطارقي أن يخضع لزوجته خضوعاً تاماً لانها هي التي تقوم بأود الاسرة ، وهي سافرة تفاديا من حرارة الصحراء بينما يخفي الرجل وجهه باللثام لان عليه أن يحارب في صحراء شاسعه تجتاحها العواصف الرملية .

وقد لاحظ العلماء أن مشكلة تعدد الزوجات تسير من سيء الى اسوأ كلما اتجهنا جنوباً من الصحراء . ولهذا معنى آخر ، انه كلما كان الاسلام سطحياً في النفوس اصبح تعدد الزوجات أمراً لامناص منه تعبيراً وثنياً ، محطاً لقيمة المرأة وفي افريقيا الغربية وجـــدت مبررات لتعدد الزوجات قد تكون منطقية ، ولكنها لا تنفي فكرة الاساءة الى المرأة فمن الناحية الاقتصادية ، لا تشكل المرأة عبئا ثقيلا على الرجل لان اقامة منزل عائلي امر سهل وميسور بأقل تكاليف ، وفي الريف يتولى الرجل الاعمال الزراعية ، بينما تنفق المرأة طيلة يومها في شراء الحاجات ، أوفي

تهيئة الطعام وتنظيف الدار والاعتناء بالاطفال ، ومن ثم تحمل الطعام الى زوجها في الحقل وهي في اوقات الفراغ تعمل في الشؤون الزراعية الخفيفة وتقوم المرأة بالاعمال التجارية في القرى والمدن، الاعمال التي تكفيها مؤونة يومهـا : فهي تذهب صباحا الى السوق العامة لتشتري البضائع ، او لتحمل الخضار الى الاماكن البعيدة لتقوم ببيعها وهي تضع ولدها على ظهرها ، ومن هذا لا يجد المرء صعوبة في الزواج من اكثر من واحدة .

وثمة أمر آخر له صلة بالحياة الاجتماعية الافريقية فقد جرت عادة الافريقيين ان يبتعد الرجل عن زوجته مدة حملها ثم مدة الرضاعة التي تدوم ثلاث سنوات وذلك حرصاً على استمرار تغذية الطفل . ولا زلت اذكر قصة تلك المرأة التي حدثني عنها أحد التجار في كوناكري ملخصها ان امرأة قتلت طفلها لكي لاينصرف زوجها عنها .

وسوف ترى أن الكنيسة قد وقفت امام هذه المشكلة مذهولة انها لم تستطع ان تجد لها حلاً ولهذا اضطرت الى الاعتراف بتعدد الزوجات على الرغم من أنها خالفت بصراحة تعاليم المسيح . وقد لخص الصحفي الافريقي Kala Lobé مشاكل المرأة الافريقية على اختلاف مذاهبهـا في مقاله المنشور في العدد (٩٥) من افريقيا الفتاة ، جاء فيه :

يقول البعض ان ظاهرتي المهر وتعدد الزوجات تأثيراً ملحاً في مصير افريقيا ، وهما تساهمان في وقف التطور في المجتمع الافريقي وهما تدعمان طغيان الرجل الافريقي الذي يعتبر بعناد واضح: المرأة الافريقية سلعة تجارية ، وفي ذلك يبدو الرجل الافريقي بعيداً عن موكب الحضارة ، ومن الثابت أن المرأة الافريقيـة تعاني من كل هذا اشد انواع العبودية التي ليس لها مثيل في انحاء العالم الاخرى .

ان للمهر معنى جميلا وهدفاً نبيلا انه في شكله الافريقي نوع من التعاون وتبادل الخدمات بين عائلتين على الرغم من أن هذا المعنى لايظهر الآن بأصالته الافريقية بسبب انهيار المفاهيم الانسانية امام الاستعمار . أما تعدد الزوجات فانه برأي هذا الكاتب ، يقصد أن يقيم توازناً اجتماعياً بعد ان افنت تجارة الرقيق الاوروبية عدداً ضخما من الرجال الا ان هذا الهدف قد تحول الى وسيلة لاذلال المرأة والحط من شأنها .

وقد اصبح مفهوم تعدد الزوجات ان يجمع الرجل عدداً من النسوة في داره لاشباع نهمه الجنسي المنحل ، ويحق للانسان ان يتساءل بعد ذلك لماذا يعمد الرجل الى هذه القاعدة كوسيلة للتوازن ؟ ثم ان الكاتب يعزو استمرار هذه القواعد الاجتماعية التي تصور وضعاً مهترئاً بالياً ، الى ان الاستعمار قد عمل على بقاء هذه المخلفات على نحو آخر ، فبعد ان كان (المهر) نظامـاً نبيلا للتعاون أضحى نوعا من الاختلاس والاستغلال . كما اضحى تعدد الزوجات تجارة واضحة تجنى منهـا الارباح . وقد تبنى كثير من الافريقيين هذه المفاهيم الجديدة لانهم فقدوا في ظل

الاستعمار الوجدان الاخلاقي واصبحوا يعيشون في الفردية التي غاها المستعمرون للقضاء على المعنى الجماعي الجوهري في الحياة الافريقية .

ان المهر وتعدد الزوجات لم يكونا بالنسبة للمجتمع الافريقي قوانين الزامية فلقد صدر الاستعمار الى بلادنا الفساد بأشكال مختلفة فقد أتوا بالديانة المسيحية على صورة مشوهة وزعموا أن من مبادئها تعدد الزوجات ، بل انهم سمحوا للرجل بان يدفع المهر لاهل زوجته .

وعمل الاستعمار على انشاء طبقة من الموظفين المنغمسين في الفساد وقد أوفدوا بعضهم الى فرنسا ، لتشويه شخصياتهم في عالم باريز وقد عاد كثير منهم الى بلده وهو يعلن بفخر أنه صادق عشرات البنات الفرنسيات كما يقول الكاتب الداهومي البيرتيغودجري Tevodjré . وقد شكا المؤرخ الانكليزي دافيد سون من تدهور الاخلاق في بيوت الدعارة في بعض مدن غانا ابان عهود الاستعمار .

ولقد ساهم الاستعمار في كثير من العيوب الافريقية التي ادت الى اسقاط شأن المرأة بأساليبه المعروفة ، كاستيراد الخمور وتشجيع الفساد واستيراد ادوات الزينة وغض الطرف عن اعمال الفحشاء وتجار النساء وبيوت الدعارة المكيفة التي تغري الفتيات الجاهلات والفقيرات بالعيش السعيد في دور مكيفة مزودة بوسائل الرفاه ، وكان لنشوء طبقة الموظفين وبعض العملاء الذين أثروا من العمل للمصالح الاجنبية اثر في الخطة التي اريد منها ابعاد الافريقيين عن حل مشاكلهم الاجتماعية وان الادعاءات التي يطلقها المستعمرون حول اوضاع المرأة الافريقية ليست الا من صنعهم ، فلو ترك الافريقيون لعملوا من أنفسهم على ازالة العيوب الاجتماعية . ان افريقيا مريضة بامراض الحضارة التي تشكو منها المجتمعات العالمية على نحو آخر . ولكن المشكلة هي ان الاستعمار نقلها الى بلادنا ثم جعلها عيوباً فينا . ان المرأة الافريقية قد نالت احتراماً بالغاً ، ولايريد المجتمع الافريقي لها ان تهدر قيمتها او طاقتها انه يبحث لها عن الكرامة بانشاء عدد من مدارس البنات .

ويقول (رو) : ان التأثير الاسلامي واضح في افريقيا الغربية ، وينتظر ان تؤثر الاتجاهات التقدمية في الشرق في ابطال العادات التقليدية التي تجعل المرأة سلعة تجارية ، لأن الدين الاسلامي قد اعترف بشخصية المرأة واستنكر الانحراف وان تعدد الزوجات قد بدأ يختفي تحت تأثير التعليم ، الا ان الافريقية محرومة منه لعاملين: الاول تاريخي محلي متخلف تابع لرواسب قديمة يهدف الى ابقاء المرأة جاهلة بحقوقها ، والثاني استعماري لاتخفى مراميه على احد .

ولقد ادرك الزعيم الافريقي باتريس لومومبا بثاقب بصره مالتعليم المرأة الافريقية من قيمة في تحرر افريقيا فقال :

اذا علمت الرجل فانك بذلك تعلم فرداً ، ولكن اذا علمت المرأة فانك تربي جيلا (١) .

---

(١) مجلة Jeune Afrique .



نموذج من محاولات العلم ،
حل مشاكل الانسان
التي يواجهها مستقبله

تشكل المحيطات ثلاثة ارباع الكرة الارضية ، ومعدل ما يهطل يومياً على مجموع القارات من المياه ، يقدر بـ (١١٤,٠٠٠) ليتر للشخص الواحد ... ناهيك عن المقادير الهائلة من المياه العذبة التي تصبها الانهر في المحيطات هدراً وكأنها كميات فائضة او زائدة ...

هذا ، وان كل مانعلم ، يحملنا على الاعتقاد انالمياه قليلة في المريخ واذا فرضنا ان مريخيا حلق فوقالارض ثم قدم تقريراً بمشاهداته بهذا الصدد ، فلا يسعه الا ان يظهر دهشة مقرونة بحسدابناء جنسهمن سكان الارض.

ولكن :

ولكن .. مايبدو غريباً ، ان الكرة الارضية مهددة بالجفاف بالنسبة للمياه ، على الرغم من ان الجمهور الاكبر لايلمس ذلك بعد ، وتظهر حالياً طلائع هذا الجفاف في الولايات المتحدة الامريكية .

ومما لاشك فيه ان لهذه الازمة ، اسباباً متعددة ، فهناك اولا ، التزايد الدائم للحاجات الصناعية : فلتكرير ليتر واحد من البترول نحتاج الى ٢٠٠ ليتر من الماء ... ولانتاج كيلو غرام واحد من الفولاذ نستهلك ٢٥٠ ليتراً من الماء ... بينما نحتاج الى ٢٠٠٠ ليتر من الماء لصنع متر واحد من الجوخ والى ٢٤٠٠ ليتر لصنع كيلو غرام واحد من المطاط الاصطناعي ...

وفي الولايات المتحدة الامريكية ، حيث شكل هذا الامر موضوع دراسات احصائية دقيقة جداً ، وجد ان الصناعة تمتص مايقارب نصف الـ ٤٧٠٠ ليتر من المياه التي يستهلكها الفرد يومياً في جميع احتياجاته .

الا ان حاجات الصناعة لاتقف عند استهلاك المياه بالمعنى المعروف لكلمة الاستهلاك بل انها غالباً ما تستخدمها ثم لاتلبث ان تصبها في بحار مائية ملوثة وملطخة بسموم وفضلات على اختلاف اشكالها وانواعها ، اي ان المياه لم تنقص كثيراً من حيث الكمية ولذلك يجب ان يضاف الى المياه المستهلكة بالمعنى الحقيقي كميات المياه الهائلة الملوثة والتي لم يعد بالامكان الاستفادة منها لعدد لايستهان به من الاعمال ، وهذا مايجعل مدناً كبيرة كباريس وغيرها تنقصها المياه في الصف الحار على الرغم من ان هناك انهاراً تخترقها ، لكنها ملوثة بعد الاستعمال الصناعي .

وهناك ايضاً تزايد ملموس لاستهلاك المياه في الزراعة ، اذ يتبخر من الهكتار الواحد من المرج ١٢٠٠ طن من المياه في الفصل الواحد . كما ان النباتات تسقى ٥٠٠ طن من المياه لتنتج طناً واحداً من الذرة مثلا ، وعملية الارواء في

الولايات المتحدة الامريكية (حيث ، ٤٥٪ من المياه المستعملة فيها تستعمل للزراعة) تخفض سعر كلفة الذرة بمعدل ٢٤٪ من كلفتها فيما لو تركت بدون ري.

ثم ان تطور الصحة العامة يستوجب زيادة استهلاك المياه المنزلية بصورة دائمة : فالاحتياجات اليومية تشكل في باريس استهلاكا يومياً بمعدل ٥٠٠ ليتر من المياه للشخص الواحد ، بينما يزيد هذا الاستهلاك في بعض المدن الاخرى بمعدل ٥٠٪ عما هو عليه في باريس .

ان مشكلة المياه لاتعرض بنفس الحدة في كل مكان ... ففي فرنسا مثلا حيث تتوفر شبكة من خير شبكات المياه السطحية ، يسهل حل هذه المشكلة من الوجهة الفنية اذ يقتصر هذا الحل على توفر الاعتمادات اللازمة .

وليس الامر كذلك في مناطق كثيرة ولاسيما في البلاد الحارة الفقيرة بمجاري المياه ، حيث يرافق غالباً تزايد السكان السريع تزايد النمو الصناعي .

وجميع الاحتياطات المتخذة لتقنين استعمال مصادر المياه الفقيرة بغية تجنب هدر المياه لا تكفي لايجاد الحل المرجو .

ومن جهة اخرى لا يزال كثير من المصالح الرسمية يجهل ان طبقة بسيطة رخيصة التكاليف من بعض المواد « كالهيكزا ديكانول Hecsadecanol » اذانثرت على سطح الخزانات تخفف البخر بنسبة ٤٠ ٪ .

وهنالك وسيلة اخرى لاستثمار طبقات المياه التي يمكن ان يخفيها باطن الارض في الاعماق الكبيرة . فمن الظواهر الغريبة اننا نجد احياناً بعض الترب الجافة فوق مجاري مائية غنية تشهد بذلك الصحراء الكبرى حيث تمتد طبقة ذات مسام على شكل طست واسع محصورة بين طبقتين كتيمتين وهي طبقة مشبعة بالمياه لكنها تصب هذا السائل الثمين بصورة عامة ، بواسطة عدد من الابار الارتوازية

تبلغ اعماقها ۲۰۰۰ متر . ويبلغ تفجير المياه في احد هذه الابار علوا يمكن ان يتخطى قمة برج ايفل (لو تسنى وجود هذا البرج في الصحراء) لولا الغطاء الحاجز المخفف من عنف هذا التفجر .

ومن الجدير بالذكر انه لدى اثارة قضية المياه يتبادر الى ذهن الكثيرين ، فكرة الامطار الاصطناعية التي بحثت ملياً ... ولكن ! ... أقل ما يمكن ان يقال في هذا الصدد هو ان جميع الطرق المقترحة ، بعد خمسة عشر عاما من التجارب ، لم يزل نجاحها متوقفاً على محض الصدفة بل قد لا تنجح مطلقاً ، ولا يزال في هذه المسألة كثير من المجاهيل ، يعمل الفنيون المختصون ، على ازاحة الستار عنها.

ومن طريف ما اقترحه الخبراء الاميركيون لحل ازمة الجفاف في كاليفورنيا العطشى ، فتح آبار ارتوازية ، واستنزال امطار اصطناعية ، بل قطر (الجبال الجليدية) من المناطق القطبية ، حتى خطوط العرض المعتدلة المناخ ، ...ومثل هذه الوسائل الغريبة التي اقترحها خبراء اميركا بكثير من الجد لا تشكل في الحقيقة حلا صحيحاً ، حتى ولو نجحت ، فهي لن تكون الا حلولا موقتة وغير جذرية .

ولكن هناك ينبوعاً دائماً لا ينضب ، ينبوعاً متوفراً في كل فصل وفي كل ساعة ، لا ينقص ولا يزيد ، ينبوعاً يمكن الحصول عليه في الاطراف الاربعة من العالم .

وهذا الينبوع الاسطوري هو البحر .

ولا وجوب لسرد الوسائل المقترحة والمجربة منذ زمن بعيد لتخليص المياه من الملح ، الا انه لا بد من الاعتراف بالحقيقة الواقعة الا وهي :

ان انسان القرن العشرين الذي سيطر على الذرة والذي فتح الفضاء الكوني ذلك الانسان الذي بمزجه لعشرات من الاجسام البسيطة ، ثم بتلاعبه في تكون

هذه الامزاج استطاع ان يشكل جدولا من ٦٠٠ الف مركب كيمائي كل واحد منها يختلف عن الاخر .

اقول : هذا الانسان الذي حقق اغرب التراكيب ، والذي توصل الى صنع وحياكة الاقمشة مستعملاً البترول كمادة اولية ، والذي توصل الى اخراج اجمل الالوان وادقها من الفحم ، هذا الانسان ، سيد التفاعلات الكيميائية لم ينجح في ايجاد طريقة عملية ليخلص ماء البحر من ال ٣٥ غراما من الملح المنحلة فيه

وان الوسائل المقترحة او المجربة حتى يومنا هذا ، لتخليص المياه المالحة من املاحها قد اصبحت من الكثرة بما لا يحيط به حصر ، ولكنها كلها بعيدة عن ان تكون صحيحة صحة كاملة ، ولا بد لكل منها من عيوب فنية كأن يكون مردودها ضيئلا او انها لا تخلص المياه من ملوحتها الى درجة كافية ، او يكون سعر الكلفة فيها مرتفعا .

ومع ذلك فقد بذلت جهود كثيرة منذ بضعة اعوام في سبيل التخلص من هذه العيوب وتعمل حاليا مراكز عديدة في امريكا والشرق الاوسط على تخليص مياه البحر من الاملاح .

وهناك وسيلة اولية ، تقضي باستعمال الاشعة الشمسية في تسخين المياه الموضوعة في نوع من الحجر الزجاجية قاعها اسود (ليمتص جميع الاشعاعات الحرارية) ، وهكذا فبخار الماء يتكثف على الجدران الزجاجية المائلة ، وينساب الماء المتكون الى مقطرة .

اما مردود هذه الطريقة فضعيف جدا لا يتجاوز ٢٠ ليترا للمتر المربع من البناء الزجاجي خلال يوم حار مشموس

ومن جهة ثانية ، تترسب الاملاح في القاع الاسود عاملة على تخفيف الحرارة بحيث يتوجب نزع هذه الاملاح مرارا ومرارا من على القاع .

اما في المراكز الصناعية الكبيرة فيعدل عن استعمال الشمس ، وتبخر المياه بواسطة الوقود المحلي البخس الثمن . ومن الطرق المتبعة تسخين الماء في اوعية ذات ضغط لا يتجاوز الحد الكافي للحؤول دون غليان المياه . وما ان يهبط هذا الضغط بعنف ، حتى يتبخر جزء من الماء ويتسرب البخار الى جزء من المستودع حيث تمر مياه البحر الباردة في انبيق حلزوني وهنا يتكثف البخار وتنساب المياه العذبة حتى تستقر في مجمعة خاصة . اما المياه المالحة الباقية ، فتكون حرارتها قد هبطت نحوا من عشر درجات وتتعرض الى عملية مماثلة للاولى وهكذا تستمر العملية وتكرر على نفس المبدأ ولا تتوقف الا عندما يصبح مردودها غير كاف لسد نفقاتها.

اما الطريقة الثالثة فتتلخص باستعمال اسطوانة مجوفة رقيقة الحواف ومحاطة بقميص يتسرب منه البخار .. ويجري البخر على هذا الاسلوب بنسبة ٤٢٪ .

وهناك طريقة صناعية اخرى تقوم على تخليص المياه من الملح بطريقة التجميد ، فالاسكيمو يعرفون ان مياه البحر ، حين تتجلد ، تشكل بلورات من المياه العذبة ، فاخذ العلماء بذلك على نطاق تجريبي واسع في الولايات المتحدة الامريكية .

الا ان هذه الطريقة تستهلك ثلاثة كيلواط من القدرة لاعطاء متر مكعب واحد من المياه الصالحة للشرب . واذا اضيفت تكاليف هذه القدرة الى النفقات الاخرى ، والنفقات الاستهلاكية للمنشئات ، اعطت ثمنا باهظا ..

وهناك ايضا المنشآت التي تعمل حسب مبدأ التحليل بالتيار الكهربائي .

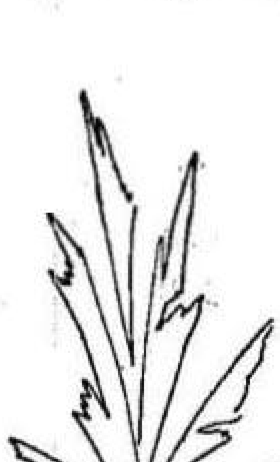
الا ان هذه الطريقة لا تطبق الا في المياه التي لا تحوي اكثر من ٥ ٪ من الاملاح المنحلة .

ومن اثنتين وثلاثين طريقة اقترحت على المصالح الرسمية الامريكية لتخليص المياه من املاحها فان الدوائر المذكورة لم تأخذ سوى خمس ، وانشأت مصانع بعددها .

ومما يجدر بالذكر ان البريطانيين يملكون في جزيرة (غيرسيتي) مصنعا هاما لتخليص المياه من املاحها يكلف المتر المكعب من المياه العذبة فيه بمايعادل ٠,٩٠ فرنكا فرنسيا جديدا او ٧٣ قرشا سوريا بينما كان المتر المكعب من المياه المجردة من املاحها يكلف من عشرة اعوام خلت ٦,٥٠ فرنكا فرنسيا جديدا او ٤٩٤ قرشا سوريا .

وقد حسب ان معملا لتخليص المياه من الملح بواسطة مسخن ذي محرك نووي معد خصيصا لصنع البخار بضغط منخفض جدا ، يمكنه ان يعطي ٢٠٠,٠٠٠ متر مكعب من المياه العذبة يوميا بكلفة ٠,٥٠ فرنكا فرنسيا جديدا

وهذه القدرة النووية نفسها التي تعتبر عنصرا من عناصر التلوث الاكثر خطورة للانسانية تصبح على العكس تماما مصدرا سخيا للمياه الصالحة للشرب .



تقسم اعمال عبد الوهاب ابي السعود ، في الرسم ، بحسب موضوعاتها الى عدة انواع

١ ــ الاعمال ذات الصفة التاريخية .
٢ ــ الاعمال ذات الصفة الشعبية .
٣ ــ الاعمال الزخرفية .
٤ ــ أعمال مختلفة اخرى .

وجميع هذه الاعمال ، في شمولها ، تلتقي عند نقطة واحدة هي امتزاجها بحياة الفنان الشخصية امتزاجاً واضحاً . فالاعمال التاريخية وليدة اهتمامه الكبير بالتاريخ وخاصة الاسلامي منه. والاعمال الشعبية نتجت عن احتكاكه اليومي بطبقات الشعب الكادحة والفقيرة ، والاعمال الزخرفية كانت ردة مناسبة الى التراث العربي بعد فترة من الحكم التركي الذي كان يهدف الى طمس معالم الحضارة العربية . وعلى هذا .. فعبد الوهاب ابو السعود كان متجاوباً كل التجاوب مع مرحلته وفياً لها .. بل وكان رائداً لمجموعة من الفنانين الذين جاءوا بعده .

« من كتاب « عبد الوهاب ابو السعود » الذي تصدره قريباً وزارة الثقافة والارشاد القومي تأليف عادل ابو شنب » .



الآداب

الكتاب والموضوعات

أدب التجارب الإنسانية الكبيرة

شعر الأسر

بقلم الدكتور عبد الكريم الأشتر

— ١ —

أحببت هذا الشعر الحزين «شعر الأسر» منذ بدأت دراسة الروميات، وهي الشعر الحار الذي غنى به أبو فراس الحمداني - وأوشك أن أقول: بكى - قيوده حين وقع أسيراً في أيدي الروم. فقد كان يثير في أن أتخيل هذه المعركة القصيرة الخاسرة التي أصيب فيها الشاعر الفارس وأن أنقل معه الى أرض الأعداء مكبلاً بالحديد، فأرمى في القلعة التي تزخر على أطرافها الشاهقة أمواج البحر، وأقف من وراء القضبان، في عيني الماضي السارح الجميل يكاد يحجبه الدمع، فأنزع عن جبيني إكليل الامارة - كما يفعل ابطال الأساطير - وأغني الليل والبحر والجدران القاتمة والحمام الذي ينوح، والأم البعيدة التي يقتلها الكمد والشباب والحب الضائعين.

ثم أحببت هذا الشعر ، حين قرأت ايام العرب في الجاهلية ، فرأيت (عبد يغوث الحارثي) رأس اليمنيين في يوم الكلاب ، يؤسر بعد خديعة مثيرة ، ثم يطرح في بني تميم ، فيعضه الالم ويغني ماضيه وينوح على نفسه في شعر رائع تخنقه الغصص والذكريات البدوية الساذجة .

وقد اثارتني هذه التجربة ، حتى بت افكر في أن أجمع صورها في الادب العربي ، في القديم والحديث ، لتدرس بها هذه التجربة دراسة فنية موحدة . فمثل هذه التجربة الكبيرة تعلو إنسانيتها على اختلاف الظروف والبيئات والعصور .

وهذا التفكير في رصد صور التجارب الانسانية الكبيرة في ادبنا العربي – بصرف النظر عن اختلاف الظروف والعصور – جديد ، لأن دراساتنا الادبية الحديثة لم تتجه هذا الاتجاه ، بل اكتفت بدراسة بعض المظاهر الادبية في بعض العصور والبيئات ، ، دون أن تضعها في دائرة التجربة الانسانية العامة .

ويمكن – بعد ذلك – أن نقوم بدراسات مقارنة ، تعرض لصور هذه التجوبة الانسانية في تاريخ الادب الانساني العام ، فنلتقي بالحياة التي تعلو على الاجناس والازمان والبيئات ، ونقف على الانسان عارياً من هذه القيود ، يواجه ذاته وعالمه ومجتمعه من خلال التجربة التي يعانيها .

ويمكن أيضاً أن نخطط لتاريخ الادب العربي تخطيطاً جديداً ، فنحكم فيه هذه المقاييس ، ونتي بها التجارب الزائفة ، ونحتفظ بصورة التجارب الصادقة .

من شعر الأسر في الجاهلية

أيام العرب في الجاهلية هي مواقعها المختلفة التي كانت تدور بين القبائل . ولعل هذه الايام أن تكون اغنى صفحات الجاهلية بالأخبار والشعر . فقد كانت القبيلة تعود من المعركة مهزومة او منتصرة . فاذا خلت الى نفسها ، وخلا رجالها بعضهم الى بعض في المجالس تناشدوا شعر المعركة ، وتحدثوا بأخبارها (١) . واعتبروا بأسباب الهزيمة أو اعتزوا بأسباب النصر ، وذكروا للأبطال بطولتهم ودفاعهم عن الحمى والأعراض ، وفتكهم الرائع بالأعداء ، وفخروا بهم وأعلوا ذكرهم .

فليس غريباً أن تكون هذه الايام إذن « مآثر الجاهلية ومكارم الاخلاق السنية » كما وصفها ابن عبد ربه (١) .

---

(١) انظر العقد ٥/١٣٢ .

وكانت هذه الايام توقظ الحياة الرتيبة في الصحراء ، فتثير الشعراء وتدفع بالمصابين الى الثأر ، وتأخذ المنتصرين بالرخاء والغبطة والحذر ، وتشغل القبائل العربية بأحاديثها ومفاجآتها وبطولاتها . فهي ـ في كلمة واحدة ـ تصنع تاريخ الجاهلية ومادة أدبها .

فأما صور تجارب الأسر في أدب هذه المواقع فقليلة نادرة . فايام العرب في أوثق مصادرها الادبية وأقدمها تشير الى تجارب الاسر والاسرى إشارات عابرة . لقد بلغ عدد الايام في العقد خمسة وثمانين يوما ، لم أقع فيها على اكثر من نص واحد لاسير واحد ، وعلى بعض الابيات المتفرقة الاخرى . ولعل الاسباب تكمن في القيم الاجتماعية ، فالجاهليون يعتبرون الاسر ذلا بشعا . وقد لايطلق الاسير قبل أن تجز ناصيته فيحتفظ بها لتكون من أسباب فخر القبيلة المنتصرة ، تتحدث بها في مجالسها ، ويفخر بها شعراؤها .

هذا (عروة الرحال) مثلا ، يأسر (سنان بن ابي حارثة : أبا هرم بن سنان ممدوح زهير بن أبي سلمى) في يوم (شعب جبلة) فيجز ناصيته ويطلقه ! (١) و (قيس بن المنتفق) يأسر (عمرو بن أبي عمرو) ، فيجز ناصيته ويخليه طمعا في المكافأة ! (١)

فحديث الاسر في الجاهلية اذن حديث ذليل . وقد يفسر هذا امتناع الفرسان عن التغني في الاسر بالشعر ، حتى لايخلدوا المناسبة المرة ، فيضعوا السلاح في أيدي خصومهم ، ويسموا أبناءهم بهذا العار من بعدهم .

ولعل (عبد يغوث الحارثي) صاحب الصورة الرائعة الوحيدة لتجربة الاسر في شعر ايام العرب ، لم يصور تجربته هذه الا بعد ان اطمأن الى أنه مقتول ، اذا صح أن يطمئن الانسان الى الموت . ولعل الآسرين ـ من ناحية اخرى ـ كانوا يخافون الاسرى من الشعراء ، فقد يكمون أفواههم خشية أن يهجوهم ، فيسير شعرهم في القبائل العربية . لقد شد لسان (عبد يغوث الحارثي) هذا بسير من الجلد حتى اذا جاشت نفسه عقله لسانه . فلعل هذا أيضا منع من استفاضة شعر الاسر في ادب ايام العرب .

على أن تجربة الاسر في الجاهلية كانت مخيفة حقا ـ اذا صح الاطمئنان

---

(١) العقد ٥/١٤٣

الى نصوص العقد ـ فقد كانوا يعذبون الاسرى . ففي يوم (رحرحان)[1] الذي تغلبت فيه عامر على تميم بأسر (عامر) و (الطفيل) ـ ابنا مالك بن جعفر ـ (معبد بن زرارة التميمي) ، فيفد أخوه (لقيط) في فدائه . ويقول للآسرين :

ـ لكما عندي مئتا بعير .

فيقولان :

ـــ لا يا ابا نهشل ! انت سيد الناس ، وأخوك سيد مضر ، فلا نقبل فيه إلا دية ملك ! (الف بعير) فيأبى أخوه أن يزيدهم . ويصيح (معبد) الاسير :

ـــ لاتدعني يالقيط ! فوالله لئن تركتني لاتراني بعدها ابدا

فيقول لأخوه :

ـــ صبراً ابا القعقاع ! فأين وصاة ابينا الا تؤكلوا العرب انفسكم ، ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل منكم ، فتذوب بكم ذؤبان العرب !

ورحل لقيط .

قال : فمنعوا (معبداً) الماء ، وضاروه حتى مات هزالا ! وفي هنا يقول شاعرهم

قضينا (الجون)(٢)من عبس وكانت منية (معبد) فينا هزالا !

فنحن نرى ان قوانين الصحراء الصارمة تسري على الاسير في عنف وقسوة يجعلان من هذه التجربة مأساة إنسانية فاجعة . فالاسير يشد عليه القد ـــ وهو الحبل ـــ حتى تسكن حركته . وقد يألم من الاسر ألماً يعاف معه الشراب والطعام حتى يموت . وقد يعذب حتى الموت .

على ان التجربة قد تتعقد ، كما تتعقد تجارب الحياة كلها ، فيدخلها الحب . هذا (الحوفزان : الحارث بن شريك) يغير على بني سعد بن زيد بن مناة ، فيأخذ نعما كثيرا ، ويسبي فيهن (الزرقاء) من بني ربيع بن الحارث ، فيعجب بها وتعجب به ! (٣)

---

(١) العقد ٥/١٤٠

(٢) اسم رجل من عبس

(٣) العقد ٥/١٩٩

وقد يأبى المنتصرون أن يغادروا المنهزمين قبل أن يفتكوا بنسائهم . فهذا (عبد يغوث الحارثي) في يوم الكلاب ينصح لقومه ان يسوقوا النعم ، ويخلوا « العجائز من تميم ساقطة أفواها » ! فيقولون :

ــ أما دون أن تنكح بناتهم فلا ! (١)

وقد يفخر شعراء القبيلة المنتصرة بعد ذلك بما نالوا من اعراض المنهزمين . في يوم (فيف الريح) (٢) أسرت مذحج امرأة (عامر بن الطفيل) ، فقال شاعرهم يفخر من بعد :

وكنا اذا قيسية دهيت بنا ... جرى دمعها من عينها فتحدرا

مخافة ما لاقت حليلة (عامر) ... من الشر اذ سربالها قد تعفرا ! (٣)

فهذه تجربة الاسر في الجاهلية ، نقلت بعض صورها لأعين على فهم تجربة الاسير اليماني (عبد يغوث الحارثي) .

* * *

كان ذلك يوم الكلاب كما قلناه(٤) غزا اهل هجر من اليمانيين بني تميم ، وكان على رأس اليمنيين (عبد يغوث الحارثي) واستطاع اليمنيون أن يتغلبوا على التميميين في أول الامر . ولكنهم شغلوا بالنساء ، فداهمتهم تميم ، وفيها الفارس (النعمان بن الحسحاس) فكان أول صريع .

واقتتل القوم بقية يومهم . وثبت بعضهم لبعض ، حتى حجز الليل بينهم . ثم أصبحوا على راياتهم ، كل ينادى اصحابه . وحملت تميم حملة صادقة ، و (قيس بن عاصم) يرتجز فيها :

لما تولوا عصبا هواربا ... اقسمت لا أطعن إلا راكبا

اني رأيت الطعن فيهم صائبا

وحمى (عبد يغوث الحارثي) أصحابه ، وبقي مفرداً ، فطعنه (مصاد بن ربيعة) طعنة فألقاه عن الفرس فأسره . ولكن مصاد بن ربيعة) كان مطعوناً أيضا . فلما رأى ذلك (عبد يغوث) قطع كتافه واجهز عليه ، وانطلق على فرسه . فلحق به (عصمة بن ابير) فلما وصل اليه قال له :

ــ ويحك ! اني رجل احب اللبن ، وانا خير لك من الفلاة والعطش !

قال (عبد يغوث) :

ــ ومن انت ؟

---

(١) العقد ٥ / ٢٢٦ (٢) مكان في نجد (٣) العقد ٥/٢٣٦ (٤) العقد ٥ / ٢٢٧

قال :

ـ عصمة بن أبير .

قال (عبد يغوث) :

ـ أو عندك منعة ؟

قال :

ـ نعم !

فألقى يده في يده . وانطلق به (عصمة) حتى خبأه عند (الاهتم) فوضعه (الاهتم) عند امرأته العبشمية(١) ، فأعجبها جماله وكمال خلقه ، وكان (عصمة بن ابير) الذي اسره غلاما نحيفا .
وادارت الزوج العبشمية عينيها في (عبد يغوث) وسألته :

ـ من انت ؟

قال :

ـ انا سيد القوم !

فاستضحكت الزوج العبشمية وقالت :

ـ قبحك الله ! سيد قوم حين اسرك رجل مثل هذا ؟

وأشارت الى آسره النحيف !

ثم اغرت تميم (الأهتم) بالمال ، فدفع اليهم (عبد يغوث) ليقتلوه بدل (النعمان بن الحسحاس) فارسهم . وخشيت تميم هجاء (عبد يغوث) لها ، فشدوا على لسانه نسعة (٢) فعقلوا لسانه .

وقالوا :

ـ انك شاعر ، ونخاف ان تهجونا !

وعرف انه مقتول ، فعقد لهم الا يفعل . وقال :

ـ دعوني اذم اصحابي ، وانوح على نفسي ، ثم اقتلوني قتلة كريمة !

فأجابوه . وسقوه الخمر ، وقطعوا له عرقا يقال له الاكحل . وتركوه ينزف حتى مات .
وهذه صورة التجربة :

ألا (٣) لاتلوماني كفى اللوم ماليا : ومالكما في اللوم خير ولا ليا

---

(١) نسبة الى عبد شمس

(٢) النسعة : السير من الجلد

(٣) انظر المفضليات ١/١٥٤ والعقد ٥/٢٢٩ ، واخترت ترتيب المفضليات للأبيات .

ألم تعلما أن الملامـــــة نفعهـا قليل ؟ وما لومي أخي من شماليا (١)

فيـا راكباً إما عرضت (٢) فبلغن نداماي من نجران : ألا تلاقيـا !

ابا كرب والأيهمـين كليهما وقيساً بأعلى حضرموت اليانيا (٣)

جزى الله قومي بالكلاب ملامـة صريحهـم ، والآخرين المواليـا (٤)

ولو شئت نجتني من الخيـل نهدة ترى خلفها الحو الجياد تواليا (٥)

ولكنني أحمي ذمار أبيكم ، وكان الرماح يختطفن المحاميـا !

أقول وقـد شدوا لساني بنسعة : أمعشر تيم (٦) أطلقوا عن لسانيـا !

أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا ، فان أخاكم لم يكن من بوائيـا (٧)

فان تقتلوني تقتلوا بي سيـداً ، وان تطلقوني تحربوني عاليـا

أحقاً عباد الله : ان لست سامعـاً نشيد الرعاء المعزبين المتاليا ؟ (٨)

وتضحك مني شيخـــــة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيـا !

وظـل نساء الحي حولي ركداً يراودن مني ماتريد نسائيـا !

وقـد علمت عرســي مليكة أنني أنا الليث معدواً عليـه (٩) وعاديا

وقد كنت نحار الجزور ومعمل الـــطي ، وأمضي حيث لاحي ماضيـا

وانحر للشرب الكرام مطيتي ، واصدع بين القينتين ردائيـاً (١٠)

وكنت إذا ما الخيل شمصها (١١) القنا لبيقاً بتصريف القنـاة بنانيـا

---

(١) الشمال واحد الشمائل : الخلق

(٢) عرضت : اتيت العروض (مكة والمدينة أو اليمن)

(٣) ابو كرب والأيهمان وقيس من اصدقاء عبد يغوث .

(٤) الصريح : الخالص في النسب . والموالي : الحلفاء .

(٥) النهدة : المرتفعة . الحو : الجياد الخضر ، أصبر الخيل واسرعها .

(٦) تيم : مخفف من تميم .

(٧) اسجحوا : يسروا ، والإشارة الى (النعمان بن الجسحاس) البواء . النظير . وباء فلان بفلان : قتل به .

(٨) الرعاء : جمع راع . المعزب : المتنحي بابله . المتالي : التي نتج بعضها وبقي بعض .

(٩) معدواً عليه : معتدى عليه .

(١٠) القينة : الأمة مغنية كانت أوغيرمغنية . يعني انه يشق رداءه فيعطي لكل أمة شطراًمنه .

(١١) شمصها : نخرها .

وعادية سوم الجراد وزعتها بكفي ، وقد أنحو الي العواليا (١)
كأني لم اركب جوادا ، ولم أقل لخيلي : كري ، نفسي عن رجاليا !
ولم أسبأ الزق الروى ولم اقل لأيسار صدق : أعظموا ضوء ناريا !(٢)

* * *

لقد كان (عبد يغوث) يشعر انه اسير في غفلة، فقد القى يده في يد آسره ، فقاد نفسه الى الموت ، فهو ملوم عند نفسه . وأي تجربة خاسرة يعانيها الانسان ، فلا يحس انه ملوم ؟ ولكن (عبد يغوث) يرى من وراء ذلك يد القدر ترسم مصيره المفجع ، فماذا ينفع اللوم ؟

ألا لاتلوماني كفى اللوم مابيا ومالكما في اللوم خير ولاليا

أبعد هذا الشعور العميق بمرارة التجربة ينفع لوم الناس ؟

ألم تعلما أن الملامة نفعها قليل ؟ ومالومي اخي من شماليا

فالاسير في حاجة الى العزاء والشعور بالاخوة والعطف والمشاركة . فاما الملامة فماذا تنفع في التخفيف عن الاسير ؟ وهل كان (عبد يغوث) يسرع الى ملامة أخيه ؟

ولكن اين اخوه ؟ واين صديقه ؟

ليس الى جانبه الا الموت . ماأوحش الموت حقاً ؟ الموت الذي ينتزعنا من احبابنا ، فلا نلقاهم بعده ولايلقوننا :

فيا راكباً اما عرضت فبلغن ندامايَ من نجران : ألا تلاقيا

هؤلاء الاصدقاء ، يكاد (عبد يغوث) يراهم واحداً واحداً :

أبا كرب ، والأيهمين كليهما وقيساً بأعلى حضرموت اليمانيا

لقد خسر (عبد يغوث) هؤلاء جميعاً ، وانطوت صفحة عمره الى الابد . وسيقبل عليه الموت ، فينتهي . فلن يأنس بعده بأبي كرب ، وبالأيهمين ، وبقيس الذي يسكن في أعلى حضرموت القريبة من اليمن . هذه البقاع الرائعة التي عرفها (عبد يغوث) كلها تموت معه ! فما أمر الموت ومأمر هذا المصير ! لقد نصح لقومه أن يخلو نساء بني تيم ، فقد كان النصر في ايديهم . ولكن قومه أبوا . فآه من قومه !

---

(١) العادية : الخيل التي تعدو . سوم الجراد : انتشاره . وزعتها : كففتها . انحوا: وجهوا
(٢) أسبأ : اشترى . الروي : الممتلىء . الأيسار : الذين يضربون القداح

جزى الله قومي بالكلاب ملامة صريحهم والآخرين الموالـيـا

ولو شاء (عبد يغوث) لخلى بين قومه والمعركة ، ولنجا راكباً فرسه المرتفعة السريعة :

ولو شئت نجتني من الخيل نهدة ترى خلفها الحو الجياد تواليـا

كأن الحياة انتفضت في عروق (عبد يغوث) ، فقد أثارته صورة الفروسية الرائعة : فهو في المقدمة ، يركب النهدة من الخيل ، ومن ورائه الجياد الخضر السريعة : تحاول ان تلحق به ولكن لمن يترك قومه ، وامجاد قومه ، وشرف قبيلته ؟ وكيف يخلف المعركة لطحنهم جميعاً وينحرف الى النجاة ؟

ولكنني أحمي ذمار أبيكم وكان الرماح يختطفن المحاميـا

فهو حامي الذمار ، يخوض غمرات المعركة ، فتنوشه الرماح من كل جانب .

ماأحوج الاسير الى مثل هذه الصورة العزيزة ؟ لقد خلف (عبد يغوث) واقعه الذليل الى الماضي العزيز فارتمى فيه . ولكن الواقع لايمكن ان يغيب طويلاً :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيـا

أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا فان اخاكم لم يكن من بوائيـا

هذا النداء الحزين لبني تيم ، كرره (عبد يغوث) في الحاح . لقد بدأ يستجيب لمرحلة الضعف في تجربة الأسر ، فيتنزل ـ وهو الفارس ، سيد القوم ـ عن كبريائه : قد ملكتم فاسجحوا ! اقرار بالتسليم والهزيمة ، ورجاء بالعفو !

وهل نسي بنو تيم أنه سيد القوم ؟ فكيف اذن يقتلونه بالنعمان بن الحساس ؟ أو يمكن أن يكون هو نداً له يقتل به ؟

فان تقتلوني تقتلوا بي سيدا وان تطلقوني تحربوني بمـاليـا

ولكنه القتل والموت ... لاشيء بعدهما !

أو يمكن أن ينتهي هكذا كل شيء الى الموت ؟

أحقاً عباد الله ان لست سامعاً نشيد الرعاء المعزبين المتاليـا

أتنتهي اذن صور هذه الحياة الحلوة في الصحراء ؟ الابل السارحة التي يغبرها الرمل ، والرعيان ينشدون الاناشيد ، والبيداء ساكنة وادعة ؟ وقد التفت الابل من حولهم تنعم بالراحة والهدوء . هذه الابل التي كان (عبد يغوث) يصحبها وينتحي بها ، وينشد لها ... ما أروح صور الحياة المطلقة لقلب الاسير !

واذن فسينتزعه الموت من هذا كله ؟ فلن يسمع نشيد الرعاة ، ولن

يرى الابل المنتحية التي انتج بعضها ، وتخلف بعضها الآخر ! كل شيء حتى هذه التفاصيل الحارة يذكرها (عبد يغوث) !

فاما الآن ، فقد امتلأ سمعه بهذا الضحك الساخر الذي اطلقته المرأة العبشمية ؟

ولم تضحك هذه المرأة ؟ ألم تر من قبل اسيراً يمانيا ؟

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم تر قبلي أسيراً يمانيا !

فيا لهؤلاء النساء ! لقد اجتمعن من حوله يراودن منه لذة المرأة من الرجل !

وظل نساء الحي حولي ركدا يراودن مني ماتريد نسائيا

افهان (عبد يغوث) حتى تضحك منه هذه الشيخة ويراوده غيرها عن نفسه ؟

لقد خلف في البيت امرأة تعرفه حقاً ، فتعرف فيه الاسد الذي لايصبر على ضيم ، ولا يسكت على حيف :

وقد علمت عرسي مليكة أنني انا الليث معدوا عليه وعاديا

فيا للماضي الزاهي ... كيف كان !

وقد كنت نحار الجزور ومعمل الـ . . . . مطي ، وامضي حيث لاحي ماضيا .

وانحر للشرب الكرام مطيتي واصدع بين القينتين ردائيا

لقد كان شديد الطرب اذن ، يمزق رداءه انفعالا . فاذا جد الجد ، عرف كيف يدق الرماح في صدور الاعداء:

وكنت اذا ما الخيل شمصها القنا لبيقا بتصريف القناة بنانيا

فقد تهجم عليه الخيل كأنها الجراد ، وتحيط به الرماح ، فيفرقها بكفه :

وعادية سوم الجراد وزعتها بكفي ، وقد انحوا الي العواليا

آه ما اروع طعم الحياة في فم الاسير !

لقد كر شريط الماضي الجميل امام عيني (عبد يغوث) ، وهو في آخر مراحل التجربة المرة . اما الآن ... فقد ضاع كل شيء ! فكأن الحياة حلم سريع قصير :

كأني لم اركب جواداً ولم أقل لخيلي : كري، نفسي عن رجاليا

ولم اسبأ الزق الروى ولم أقل لأيسار صدق:اعظموا ضوء ناريا

وتبقى صورة النار تتوهج في هذه التجربة الحزينة ، وينطفيء (عبد يغوث) !..

ـ في العدد القادم ـ شعر الأسر في الاسلام .

من الأدب الساخر

الجنس البشري الملعون

للكاتب الأمريكي مارك توين
في الرد على نظرية داروين
بأسلوب العلم التجريبي

ترجمة حسام الخطيب

عكفت على دراسة خصائص « الحيوانات السفلى » - كما تسمى وميولها ، وقارنتها بخصائص الانسان وميوله فكانت النتيجة فاجعة واضطرتني إلى سحب تأييدي لنظرية داروين في ارتقاء الانسان من الحيوانات السفلى مادمت أعتقد الآن جازماً أن هذه النظرية ينبغي أن تهجر لمصلحة نظرية أصح وأحدث يمكن أن تسمى : (انحدار الانسان من الحيوانات العليا) .

ولم أتوصل إلى هذا الاستنتاج غير السار بالتخمين أو الغرض أو الرجم بالغيب ولكنني اعتمدت على ما يدعى عادة (المنهج العلمي) ، فأخضعت كل بديهية عرضت لي الى فحص دقيق في ضوء التجربة الفعلية ثم أقورتها أو رفضتها بناء على نتيجة التجربة . وهكذا تحققت من كل خطوة ، في الدراسة التي أقدمها ، قبل أن أبني عليها الخطوة التالية . وقد أجريت تجاربي في حدائق الحيوان بلندن .

نتائج عريضة

وقبل أن أخص بالشرح أياً من تجاربي أود أن أعرض أمراً أو أمرين يبدو أنهما اجدر بالصدارة وأدعى إلى الايضاح ، وقد أتاحت لي التجارب الوفيرة أن أقر رضى تعميمات معينة : —

١ — ان الجنس البشري يشكل نوعاً ذا صفات متميزة ، وقد يظهر اختلافات خفيفة في اللون أو الشكل أو البناء العقلي ونحو ذلك — نتيجة لاختلاف المناخ والبيئة وما أشبه ذلك ، ولكنه يظل نوعاً قائماً بذاته لا يصح أن يختلط مع أي نوع آخر .

٢ — ان الحيوانات ذوات القوائم أسرة مستقلة أيضــــا ، وقد تبدي اختلافاً في اللون والحجم والطعام المفضل ونحو ذلك ولكنها تظل أسرة قائمة بذاتها..

٣ — ان الاسر الاخرى — كالطيور والاسماك والحشرات والزواحف وما اليها هي أيضاً متميزة إنها جزء من الموكب الكبير وحلقــــة في السلسلة التي تنحدر من الحيوانات العليا الى الانسان وهو الحلقة السفلى..

تجارب عجيبة

وفي خلال مطالعاتي قرأت أن بعض الصيادين، منذ سنوات عدة، نظموا حملة لصيد الثيران لتسلية نبيل انكليزي او لتأمين بعض اللحم الطازج لمطبخه، وقد كانت ريا منتهم فائتة وقتلوا اثنين وسبعين حيواناً من تلك الحيوانات الضخمة وأكلوا قسماً من احدها وتركوا الحيوانات الواحدة والسبعين المتبقية لتتعفن . ولكي أوضح الفرق بين الأفعى (البوا) وبين النبيل أي نبيل ، عملت على زج سبعة عجول صغيرة في قفص (البوا) ، وانقضت الزاحفة الشاكرة على أحد هذه العجول والتهمتها ثم تمددت قانعة راضية ولم تلق بالاً للعجول الأخرى ولم تبد أي ميل لايذائها . وأعدت هذه التجربة مع أفاع أخرى

وكانت النتيجة واحدة . وهكذا تأكدت الحقيقة بالتجربة : إن الفرق بين النبيل وبين الأفعى هو أن النبيل يتصف بالقسوة والأفعى غير قاسية ، والنبيل يتلهى بافساد مالا يجديه نفعاً والأفعى لا تفعل ذلك . وهذا يعني أن الأفعى لم تنحدر من النبيل (الايرل) بل الايرل هو الذي انحدر من الأفعى وفقد كثيراً من مزاياها في عملية الانتقال وتأكدت من أن كثيراً من الرجال الذين جمعوا ملايين من النقود الفائضة عن حاجاتهم أظهروا شرهاً شديداً للاستزادة ولم يتورعوا عن خداع المساكين والجهلاء وسلب ما يملكونه إرضاء لشهواتهم للمال . وقد اتيحت الفرصة لمئات من الأنواع المختلفة من الحيوانات مفترسة وداجنة لكي تجمع ذخائر ضخمة من الأطعمة ولكنها جميعاً أضربت عن ذلك . وحاولت فصائل السنجاب والنمل وبعض الطيور أن تقوم بجمع الأطعمة ولكنها توقفت بعد أن جمعت مؤونة الشتاء ولم تقتنع بأخذ المزيد منها سواء بالأمانة أو بالخداع ، وقد تظاهرت النملة بخزن المؤن لتثير حولها سمعة وضجيجاً ولكن ذلك لم يخدعني ، فأنا أعرف النملة وما تخزنه . **وأخيراً انتهيت الى الاقتناع بوجود الفرق التالي بين الانسان والحيوانات العليا : الانسان حريص بخيل وهي ليست كذلك .**

الديك أرقى من الانسان ، والقطط أفضل أخلاقاً

واقنعتني التجارب أن الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يحمل في صدره الضغن والاذى وينطوي عليها وينتظر حتى تتاح له الفرصة ليأخذ بثأره . بينما **الحيوانات العليا لاتعرف معنى الانتقام .**

والديوك تتخذ لها حريماً ولكن بموافقة المحظيات ورضاهن انفسهن ، وليس في هذا العمل خطأ بحق أحد ، أما الرجال فيقتنون الحريم بالقوة الوحشية والقوانين الجائرة التي لم يكن للجنس الآخر يد في وضعها .

وفي هذا المجال تنحط مرتبة الانسان عن الديك بمراحل :

والقطط واسعة الذمم الاخلاقية ولكنها لاتعي ذلك . أما الانسان فقد تحدر من القطط وأخذ عنها انحلالها الاخلاقي وترك اللاوعي ـ وهو الميزة الرائعة التي تبرر لاأخلاقية القطط : **ان القطط بريئة والانسان غير بريء .**

والدناءة والهمجية والحطة صفات خاصة بالانسان وهو الذي اخترعها . وليس لهذه الصفات أدنى أثر بين الحيوانات العليا . انها لاتضمر شيئا ولذلك لاتخجل . اما الانسان بعقله القذر فحريص على تغطية نفسه ويأبى أن يدخل غرفة استقبال وقد عرى صدره وظهره لأنه واقرانه مستعدون دوما للانصراف الى خواطر دنيئة . الانسان حيوان ضاحك ، ولكن القرد يضحك ـــ كما أشار داروين ـــ وكذلك الطائر الاسترالي المدعو بالبغل الضاحك . **بل ان الانسان هو الحيوان الذي يخجل** . انه الحيوان الوحيد الذي يمارس الخجل ـ لان أعماله تسبب الخجل والحيوانات العليا تنهمك في قتال فردي ولكنها لاتقاتل كجماعات منظمة . **والانسان هو الوحيد الذي يمارس شر الشرور أي الحروب .**

انه الحيوان الوحيد الذي يجمع اخوانه من حوله وينطلق بـــدم بارد ونبض هادىء الى افناء بني جنسه .

انه الحيوان الوحيد الذي يتقاضى أجورا دنيئة ويسيرة، كما فعل (الهسيون) في ثورتنا وكما فعل الأمير الولد نابليون في حرب الزولو ، ليساعد على ذبح غرباء من جنسه لم يقترفوا بحقه ذنبا ولم يدؤوه بخصومة .

الانسان عبد

والانسان هو الحيوان الوحيد الذي يسلب الضعاف من أبناء وطنه ـ يضع

يده على ممتلكاتهم ويطردهم منها أو يقضي عليهم ، وقد اجترح الانسان هذا الفعل في كل العصور ، وليس من فدان واحد في البسيطة كلها يمتلكه صاحبه بحق ولم ينتقل من يد مالك الى آخر جيلا بعد جيل الا بالقوة وسفك الدماء .

والانسان هو العبد الوحيد وهو الحيوان الوحيد الذي يستعبد غيره. وقد كان منذ القديم عبداً بشكل أو بآخر وحاول أن يحتفظ بالرق بشكل أو بآخر . وفي ايامنا هذه نراه عبداً للآخرين مقابل أجر ، وهو بدوره يستأجر عبيداً يؤدون عمله مقابل أجر أزهد . أما الحيوانات العليا فتقوم وحدها بعملها وتكسب رزقها بكد يمينها .

والانسان هو الوحيد الذي ينضم الى ابناء وطنه تحت علم واحد ويهدد الامم الاخرى ويحتفظ بجماهير غفيرة محشودة للقتل ، واغتصاب اقوات الأمم الأخرى أو منعها من اغتصاب قوته . وفي الفترات بين الحروب يغسل الدم من يديه ويعمل بفمه (للأخوة الانسانية الشاملة) .

هل هو عاقل

والانسان هو الحيوان العاقل . هكذا يدعون ، وأعتقد ان هذا الادعاء موضع نزاع . لقد برهنت لي تجاربي ان الانسان هو الحيوان الذي لا يعقل . ان تاريخه يدل على انه قد يكون اي شيء إلا حيواناً عاقلا . ان سجله سجل مجنون عجيب ، وفي رأيي أن أقوى اعتراض على ذكائه هو انه ، بالرغم من هذا السجل الذي ينوء به ، يصنف نفسه بعناد في رأس قائمة الحيوانات بينما يستحق أن يكون في أسفلها بناء على مقاييسه نفسها .

وفي الحق ان الانسان مجنون ميئوس من شفائه . وهو عاجز عن تعلم

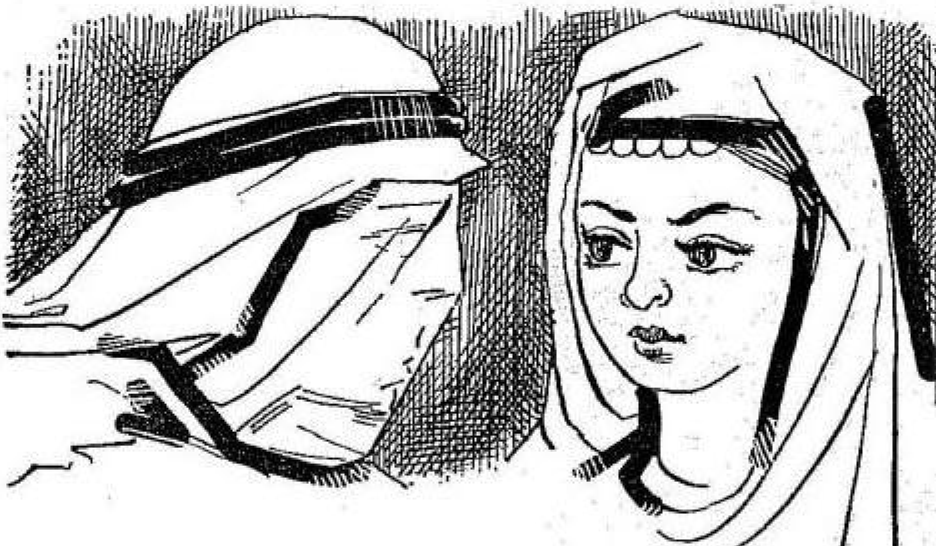
الاشياء البسيطة التي تتعلمها الحيوانات الاخرى. واليك واحدة من تجاربي: في ساعة واحدة علمت قطة وكلباً كيف يكونان صديقين ووضعتها في قفص واحد. وبعد ساعة اخرى عقدت صداقة بينها وبين فأر. وفي خلال يومين استطعت أن اضيف ثعلباوغزالا وسنجاباوبعض الحمام واخيرا اضفت قرداً، وعاش الجميع في سلام بل في مودة.

ثم وضعت في قفص واحد ايرلنديا كاثوليكياً (من تبراري) وحالما ظهرت عليه علائم الالفة أضفت اليه اسكتلنديا برسبتاريا من (أبردين) ثم تركياً من القسطنطينية ثم يونانياً مسيحياً من كريت ثم أرمنيا ثم منهجياً من براري كنساس ثم بوذياً من الصين ثم برهمياً من (بنارس). واخيرا ضابطاً في جيش الخلاص من (وابنج). وابتعدت عن القفصين يومين كاملين، وحين عدت لادرس النتيجة كان قفص الحيوانات العليا في احسن حال ولكن في القفص الاخر وجدت قطعاً دامية وأجزاء من القبعات والطرابيش والكوفيات والملاءات وعظاماً وجثثاً ولم أجد انساناً حياً. لقد اختلفت هذه الحيوانات العاقلة حول بعض النقاط المذهبية، ورفعت الامر الى محكمة اعلى...!

الانسان حيوان غير جميل

ومن حيث الشكل فلننظر الى النمر البنغالي — مثال البهاء والجمال والكمال الجسدي والجلال، ثم لننظر الى الانسان — ذلك الشيء المسكين. انه حيوان الشعر المستعار، والجمجمة المخيطة، وسماعة الأذن، والعين الزجاجية، والأنف المرقع، والاسنان البورسلينية والقصبة الهوائية الفضية والرجل الخشبية مخلوق مصلح ومرقع من قمة رأسه الى أخمص قدميه. واذا لم يستطع أن يجد قطع غيار لرقمه في العالم الآخر فكيف عساه يبدو؟

...وأخيراً فربما لانكون نحن الجنس البشري في مثل تلك الاهمية التي دأبنا جميعاً على اسباغها على أنفسنا!



وضّاح اليمن

مسرحية

في فصل واحد بثمانية مشاهد

بقلم

خليل الهنداوي

الأشخاص

وضاح = فتى شاعر جميل

الوليد = الخليفة الأموي

سالم = مولى ملحق بخدمة بيت الوليد

ام البنين = زوجة الوليد

روضة = جارية – ملحقة بخدمة بيت الوليد

الزمان : ايام الخليفة الوليد بن عبد الملك

المكان : أرض مكة – دمشق

المشهد الاول

في بطاح مكة : ام البنين وروضة

ام البنين ـ الآن بطاح مكة مقفرة ؟

روضة ـ ان كتاب مولاي الوليد في توعده للشعراء جعلهم ينفرون عن ركبنا .

من ذا يستطيع ان يقتحم على اللبؤة عرينها ؟

ام البنين ـ الاعين ـ هناك ـ تسترق جمالنا ؟

روضة ـ ومايدرينا أن عيوناً كثيرة قد استرقته ؟ لكن ألسنتها معقودة .

ام البنين ـ أواه . واين فتاك هذا الذي وصفته لي ؟

روضة ـ أتعنين « وضاحا » ؟

ام البنين ـ انه هو .. تقولين انه يهواك ، وينظم الشعر فيك . .

روضة ـ بل ذهب من حي كل مذهب ، ولكن قومي امتنعوا من تزويجي اياه . .

ام البنين ـ وهل تحبينه ؟

روضة ـ انه — في الايام الاخيرة — نفر عني . ولا ادري ..

ام البنين ـ أهو جميل وسيم الى حد مايصوره الناس ؟

روضة ـ لاتحدثيني عن جماله . آه لو لمحته مرة واحدة ! أية عين تقدر على تبين ملامحه ؟ انه لايمشي الا مقنعا اشفاقا على العيون ان تحترق بجماله .

ام البنين ـ من لي بمرآه . ليتني اراه .

روضة ـ سمعت أنه حضر موسمنا هذا .. ولكن لا ادري منزله . ولعله يكون قريباً منا . متى رأيت وجها مقنعا فاعلمي انه وضاح .. وضاح حبيبي .

ام البنين ـ ماذا تقولين لو سهلت لك لقاءه حتى ارى ما يفعل الجمال في اصحابه.

روضة ـ (ضاحكة) اني لأخشى عليك منافذ جماله ، ان له عيوناً تتكلم ..

ام البنين ـ أراه بقناعه . هل خوف علينا من وراء القناع ؟

روضة ـ ان اصحاب الهوى يفتنهم ماوراءه. كم قصة وراء قناع !

ام البنين ـ ويحك .. انك جادة في وصفه . ولكن لن يزيدني وصفك اياه الا اغراء بلقائه ..

روضة ـ ولكن لقاءه يجب ان يبقى سراً .

ام البنين ـ أخوفاً عليه ، ام عليّ ؟

روضة ـ (ضاحكة) بل خوفا عليكما كليكما ..

ام البنين ـ تدعينه الى مجلس ناءٍ .. ثم نراه على طريق المصادفة فلا يعرفنا .. وكأننا لانعرفه ..

روضة ـ اتظنينه بليداً الى هذا الحد ؟ انه يحس المرأة الجميلة الوسيمة من جوها الذي هي فيه ..

ام البنين ـ وليعرفنا اذا شاء .. ماذا على وضاح اذا عرفنا .

روضة ـ الا ينتقم الوليد منه ؟

ام البنين ـ سندعوه الى الكتمان .

روضة ـ ولكن جمالك الفضاح سينطق لسانه .

ام البنين ـ دعيه يمر امامي لمحة ، ويسفر عن قناعه لحظة .

روضة ـ وبعد ذلك ؟

ام البنين ـ أيسر لك لقاءه ، والزواج منه ، اوليست هذه بغيتك . وضاح لروضة ، وروضة لوضاح .

روضة ـ أحقا تعملين على ذلك ؟

ام البنين ـ اذا قالت ام البنين ، فالقول قولها ..

روضة ـ في هذه الليلة تعرفين وضاح اليمن .

المشهد الثاني

ـطاح مكة

وضاح ـ ام البنين

ام البنين ـ من هذا المقنع يحجب وجهه عنا ؟ أمشوه الوجه ، أم أعشى العين ؟

وضاح ـ لاذا ولا ذاك . انه قناع درجت امي على وضعه على وجهي ، واوصتني بالا اضعه امام امرأة ...

ام البنين ـ يالها من أم ! وما كان قصدها ؟

وضاح ـ اني لا أدري ـ ولكنها كانت توصيني بوضعه امام النساء ...

ام البنين ـ هل لك برفعه ؟

وضاح ـ لا اقدر . الا ان اخالف وصيتها .

ام البنين ـ تخشى على نفسك ؟

وضاح ـ أخشى على نفسي .!

ام البنين ـ ولكنك تراني بدون قناع ـ بينما لا اراك ...

وضاح ـ (ضاحكا) دعيني بقناعي . ذلك ادعى الى السلم .

ام البنين ـ لا بد من كشف القناع حتى اراك ؟

وضاح ـ لا استطيع نسيان وصية امي .

ام البنين ـ انها وصية ام غبية .

وضاح ـ لا يمكنني ان أغفل وصيتها ... ماتت وهي تقول لي : القناع يا وضاح.

ام البنين ـ ولكن ألم تكشف قناعك لروضة ..؟

وضاح ـ لم اكشفه ابداً . ولو كشفته لانتهى امرها .

ام البنين ـ أأحبتك ، اذاً ، خلف قناع مجهول ؟

وضاح ـ ومن عسى ينكر هذا المجهول في حياتنا ؟

ام البنين ـ انت خائف علي ان تأسرني ، وتفتنني ... لكنك بقناعك هذا اصبحت اكثر امتلاكا لنفسي وحبي . اريد ان تكشف القناع .

وضاح ـ انني انا الخائف على نفسي . . . قالت لي امي ان المرأة التي تكشف لها قناعك هي المرأة التي تقتلك .

ام البنين ـ تقتلك ... وهل تفكر في أنني اقتلك ...

وضاح ـ دعي زيارتنا هذه تمر كحلم ... تقولين انت جالست وضاحاً . . . واقول انا جالست ..

ام البنين ـ لا تكمل اسمي ... ان اسمي وحده يذيقك الموت .

وضاح ـ هما شيء واحد ... اسمك يذيقني الموت ، وكشف قناعي يذيقني الموت ... فليبق اسمك مكتوما ! وليبق قناعي على وجهي ! اننا كائنان التقيا على غير ميعاد ، وينفصلان الى غير ميعاد .

ام البنين ـ انفكر ان الاقدار تسوق كائناتها وابناءها على طريق أعمى تجمعهم على غير ميعاد ، وتفرق ما بينهم على غير ميعاد ؟..

وضاح ـ ذاك ما يحدس به ظني . ومن يدري ان قصة قصيرة ستنشأ من لقائنا هذا ؟

ام البنين ـ ولماذا تختارها قصيرة اذا اراد القدر ان يجعلها قصة طويلة ..؟

وضاح ـ وكيف تكون طويلة ؟

ام البنين ـ اذا القيت هذا القناع جانباً .

(تمد يدها بتؤدة)

لا بد من كشف هـذا القناع ـ يوما ـ لامرأة . ان امرأة ما سترصد لك في الطريق ، وتكشف لها قناعك .

وضاح ـ بيدي لا أكشف قناعي .

ام البنين ـ أترد يدي اذا امتدت الى قناعك ؟ رويداً يا وضاح . ان ام البنين هي اليد التي قدر لها ان تزيح قناعك ... ستسدل قناعك على كل امرأة الا علي ...

(تزيح القناع)

انظر الي الان ... لا لا . أدر وجهك عني . ان في عينيك سراجا وهاجا . من انت ؟

من وضعك في طريقي ؟ ماذا تصنع روضة لو رأت وجهك كما اراه الان ؟ اعد قناعك الى وجهك ! ان في عينيك(عدنا)لاحدود له . كيف يهب واهب الجمال ـ هـذا الجمال ـ لتعذيب مخلوقاته ؟ انك لي ... ولن تكون لأحد الا لي ...

وضاح ـ معاذ الله ان أخون سيدتي .

ام البنين ـ أفي الحب خيانة ؟ ان ممالكنا الواسعة التي لا حدود لها تضيق أن تتسع لقلب واحد حـين يخفق . انت عالمي الان . انت حدود مملكتي التي لا تتناهى . دعني أراك أيضاً . ازح القناع قليلا ... أعـده . شده على وجهك . خفف بريق عينيك ... ارحل من امامي ! ان بك قوة خفية من ذلك الفردوس المفقود .

وضاح ـ ويلاه . كأنما تتراءى لي الآن عاقبة جريمتي . ويحك ايها القناع الامين ماذا تريد مني ؟ انا الان اسير امرأة العزيز نفسها ...

ام البنين ـ بل امرأة العزيز أسيرة يوسفها . هل عندك القوة التي ترد قلبي ؟ هل عندك الارادة التي تقهر عزيمتي ...؟ مالك واجماً ؟ اطردني من امامك . أغرب عن وجهي ... ولكن القناع منحني القوة التي كانت لك .. ألست جميـــلة ؟ الست قصيدة الشعراء الذين يريدون التغزل بي ؟

وضاح ـ ستكونين قصيدتي الخالدة . . وما همي ان تكوني شؤماً أو لذة في حياتي . لابد لهذا القنـــاع ان ينكشف ، وتكوني انت من ورائه .

ام البنين ـ ان قلوب الملوك لا يستبد بها الا الحب

وضاح ـ واين يكون لقاؤنا ؟

ام البنين ـ ستكون روضة رسولي المؤتمن .

وضاح ـ روضة .. اني لأخشى ان أستثير غيرتها .

ام البنين ـ سأزوجها من سالم .. فتاها الذي يهواها .

وضاح ـ لايكن موعدنا بعيداً .

ام البنين ـ لاتنس قناعك ..

وضاح ـ هل بقي ـــ هناك ـــ قناع ؟

ام البنين ـ به ، او بدونه عد سريعاً ياوضاح !

المشهد الثالث

سالم — روضة

روضة — ماذا تريد ياسالم؟

سالم — ماذا اريد؟ قلبك. الا تزالين تحفظينه لوضاح؟

روضة — وضاح.. هو عندي كل شيء.

سالم — يالك من مغفلة. أيفر وضاح من يدك، وأنت تلحين على حبه؟

روضة — لاتدن مني. اثن وجهك عني. انك لاتزيدني الا كراهية ونفوراً منك.

سالم — أفتح لك قلبي، واقدم لك حبي، وانت لاتزدادين الا عتوا.. وارحمتاه القلب الذي يخفق لقلب لايحس به!

روضه — اتريدني على حبك غصباً، ان أنت من وضاح؟

سالم — قد يكون وضاح اجمل مني — ولكني آصدق منه مودة لك.. ماشأنك وجماله اذا لم يكن لك من جماله شيء.. اذكري كيف قابلك، وتنكر لك حين دعته الى حبها..

روضة — اياك ان تذكر اسمها.

سالم — انه الآن بين ذراعيها..

روضة — لاتتهم.

سالم — رأيتها بأم عيني.. جمال انقض على جمال..

روضة — ويحك. اتريد لنا الموت؟

سالم — اذاً، استجيبي الى حبي، سنعيش سعيدين بعيدين عن هذا العالم.

روضة ـ ان قلبي لا يتسع الا لقلب واحد .

سالم ـ ليكن هذا القلب الواحد قلبي !

روضة ـ هيهات ياسالم . ان حب وضاح يستبد بي .. انني لاأستطيع ان ارى الا بعينيه ، ولا اسمع الا باذنيه .. حياتي حيرة دائمـــة ، وقلق مستمر . لاتزدني ـ ياسالم ـ اضطرابا .

سالم ـ لن أتركه لك . واذا جعلتك تزينه الان معبا .

روضة ـ دعني بأوهامي سعيدة . ولاتهدم آخر ماتبقى لي من أمل !

سالم ـ ولكنه فر من يدك الى الابد ، فلا وهم ولا امل .

روضة ـ ان قلبي يحدثني بانه آت الي في النهاية .. لانه لن يجد الراحة الا بين ذراعي .. لقد تحابينا وتآلفنا وذقنا رحيق الحب معاً . محـال ان يلتفت عني .

سالم ـ لكنه الآن في قبضة ملكة . والملكات تودن ان يرشفن رحيق الحب ممزوجاً بدماء ضحاياهن .

روضة ـ ولذلك كان وجودي ضرورة لاستنقاذه .

سالم ـ لكنك لن تستنقذيه الا جثة هامدة .

روضة ـ ويحك . ماذا تعني ؟

سالم ـ سأنتقم منكما . لن أتركه لك ، ولن أتركه لها

روضة ـ سالم دعني انقذه !

سالم ـ انك لن تنقذيه من اجلي .

روضة ـ بئس الفتى انت . تريد ان ترقص على جثة ضحية ؟

سالم ـ سنرقص معاً .

روضة — وهل انت أمين على نفسك اذا فعلت ؟

سالم — لاتهمني الحياة بقدر ما يهمني وجوده .

روضة — لن يكون لك مني ماتريد . فاصنع ماتريد .

سالم — روضة .. روضة . ان الحب سيطيح برؤوسنا جميعا . ولن تكوني في حياتك الا شبحا من المأساة ، يلتفت الى الماضي فيرتجف ، ويلتفت الى المستقبل ، فلا يجد مستقبلا .

المشهد الرابع

وضاح — أم البنين

وضاح — احقاً هذه ليلتنا الأخيرة ؟

ام البنين — في بطاح مكة ..

وضاح — بطاح مكة بطاح مسحورة

ام البنين — أمنقطع انت عن زيارتي ؟

وضاح — واين اللقاء ؟

ام البنين — في بطاح الشام ...

وضاح — ماأبعدها عني .

ام البنين — بل ماأقربها منك .

وضاح — انك جعلت حياتي قلقاً واضطراباً . ألم اقل لك أن قناعي سبب آلامي .

ام البنين — ستزورني هناك بقناعك نفسه .

وضاح — آه منك . لقد ابغضت فيك احبتي ، وهجرت اهلي والوطن .

ام البنين — أصحوت عن ام البنين وذكرها وعنائها ؟

ام البنين ـ ستبقى ذكرى هذه الليالي حية في خاطري . اتعرف من أسرت ؟

وضاح ـ قرشية كالشمس .

ام البنين ـ اتعرف انها قرشية ممنعة ؟

وضاح ـ لن تكون امنع من قناعي .

ام البنين ـ بت اخشى عليك... اني لأحس ان هذه الليالي العافية تقتضينا ثمناً.

وضاح ـ لا يفكر الحب الا في اللحظات التي يكسبها .

ام البنين ـ اجمل حبي عابراً .

وضاح ـ أتبتعدين عني ؟

ام البنين ـ ان الخوف عليك يهيب بي ان تبتعد عني .

وضاح ـ سأزل ربوع الشام .

ام البنين ـ اياك . لا تلجن دارنا ! انه مرجل فائر .

وضاح ـ (ضاحكا) انني طالب غرة ... وسيبقى صارم باتر .

ام البنين ـ ان ابواب القصر من دوننا .

وضاح ـ انني واثب من فوقه .

ام البنين ـ والبحر الذي بيننا .

وضاح ـ يعبره سباح ماهر .

ام البنين ـ ومن حولي الاحراس ؟

وضاح ـ ستجدينني قاهراً غلاباً .

ام البنين ـ وذلك الليث الرابض فوقنا.

وضاح ـ انني اسد عاقر .

ام البنين ـ والله الذي يرانا .

وضاح ـ اليس بغافر راحم ؟

ام البنين ـ لم تبق لي حجة ولا دليلاً .

وضاح ـ سأطرقك حيث كنت ...

ام البنين ـ تعال ... تعال ، اذاً ، الي حين يهجع السامرون ، واسقط علينا كسقوط الندى ...

وضاح ـ ياله من ندى ... انتظريني مع هبوط الندى ... واستقبليني مع طروق الخيال . ليس عمر الحب الا دمعة ندى ، ورفة خيال .

المشهد الخامس

وضاح اليمن ـ روضة ـ سالم في الشام

وضاح ـ من انت ؟ دائماً تعترضين طريقي

روضة ـ الست انا من طريقك ؟ انسيت روضة ؟

وضاح ـ بئس ماتمنين به نفسك ... لقد كنت في حياتي ...

روضة ـ والآن .

وضاح ـ يجب ان تزيحي وجهك عني . لا تعطلي وقتي!

روضة ـ طبعاً ، انها تنتظرك ..

وضاح ـ على وسائد معطرة .

روضة ـ في سرير مرفوع .

وضاح ـ نحيا بين النوم واليقظة ... فلا نحن نائمان ولا نحن مستيقظان .

روضة ـ هذا ابلغ الحب ... عمن تلقته ؟

وضاح ـ عن التي تنتظرني .

روضة — أحببتها فلا تحطم قلبي

وضاح — وماهي من قلبك ؟

روضة — انه الملجأ الذي تأوي اليه .

وضاح — لن اعرفك .ثابري على طريقك ... الطريق لايعرف الاالملكات.

روضة — وهن من اخشاهن عليك ...طيوب الملكات ممزوجة بدماء عشاقهن.

وضاح — وهل يعز دمي عليك ؟

روضة — انت ادرى ...

وضاح — (بتهكم) إذاً ، دعيه يراق الليلة على طيوبها . لاتقفي امامي . اذهبي يالك من شوهاء ، يتقيأ بها الشيطان .

(خطى وضاح ، وبكاء روضة ثم قهقهات سالم)

(يبدو سالم... وكان يصغي الى المحاورة)

سالم — آه . هذا انت ... ياالعاشقة المهجورة .

روضة — لاتزد في شجوي ... أتريد الانتقام من دموعي ؟

سالم — معاذ الله ان اشتفي بهذه الدموع ... ولكن كيف لايفهم احدنا الثاني — وكلانا على حال واحدة .

روضة تحب وضاحاً ، وهولايحبها .

وسالم يحب روضة ، وهي لاتحبه .

يالمهازل القدر ! ماذا يريد بهذه السطور المتنافرة !

روضة — سالم . يجب ان تحترم بكائي .

سالم — بل يجب ان ادعوك الى مادعوتك اليه ... انك اليوم في حاجة الي. مااقفر قلبك الآن ! لماذا يخفق القلب المقفر ؟

روضة ـ اني ارضى به على علاته . ليس قطعه ملك ارادتي . كلما قطعت حبلا التفت حول عنقي حبال .

سالم ـ ذلك وهم ...

روضة ـ بل قل انه اقوى من الحقيقة .

سالم ـ فكري فيه الآن داخلا عليها ... وقد تلقته بذراعيها البضتين ، وصدرها المعمور ... تصوريهما كيف يتبادلان سعادة الحب ، وانت — هنا — تبكين وتنتحبين ... لماذا البكاء ؟ انتقمي لقلبك ! وثوري لحبك .

روضة ـ أكمل . كلامك يشفي مافي نفسي .

سالم ـ ماذا تقولين في الانتقام منه ومنها ؟ سأخبر سيدها الوليد بشأنهما وهو الذي يتولى من بعدنا امرهما ... قد يعفو ، وقد ينتقم . أخبريني متى يأتي عادة ؟

روضة ـ بين المغرب والعشاء ...

سالم ـ كيف يأتي ؟

روضة ـ ملتفاً بقناعه ...

سالم ـ وكيف يقتحم عليها الباب ؟

روضة ـ تهيء له مغاليقه ، فلا يجد نفسه الا امامها .

سالم ـ واين تخفيه اذا احست بحركة ؟

روضة ـ لها صندوق كبير لثيابها تضمه فيه .

سالم ـ اين هو الآن ؟

روضة ـ آه . أتريد ان ادلك على مقاتله ؟

سالم ـ السنا الآن كائنين خلقا للانتقام ؟ الم يخن حبك ؟ ولم يعر نحيبك سمعا؟

روضة ـ ولكني لا اريد الوشاية به . . انه لا بد ان يعود الي بعد ما يقطع اشراكهما . .

سالم ـ اجل ، انه سيعود اليك .. انتظري عودتي . (ينطلق سالم) .

روضة ـ آه . رباه ماذا قلت ؟ أية ماساة نطقت بها شفتاي ؟ سالم . سالم . اعود اليك اذا لم تش بوضاح . .

(ذهاب سالم الى الخليفة بينما تلاحقه روضة)

روضة ـ ويلتاه . هل يقدم على ذلك ؟ هل يقدر العاقبة ؟ ان دماءنا تندفع لتخرج من شرايينها .. وضاح . وضاح . هل تراه عيني مرة ثانية؟ تعال . تعال ياسالم ! انك ستفوز مني بجثة لا حب فيها ولا شعور . .

(تفتح الباب وتنطلق في الطريق راكضة)

(تدرك سالما وقد دخل على الخليفة)

آه . لقد فعلتها ايها اللئيم .

ولكنك لن تنتصر . . الحب لا يعرف الانتقام .

الحب قلب كبير . . يشفق على القلوب الصغيرة .

المشهد السادس

سالم داخلا على الخليفة

سالم أريد الخليفة . . لأمر هام . . لأمر هام جدا . .

الحاجب الخليفة في شغل عنك ياعبد السوء .

سالم دعني .. الامر فوق ماتتصور .

الوليد ـ (من الداخل) دعوه يدخل ..

(يدخل سالم)

ويحك . . ماذا غير وجهك ؟ أفصح . هل اقتحم الروم ثغورنا ؟

سالم ـ مولاي ـ في داخل القصر اقتحام وهجوم ..

الوليد ـ (يهب من مقعده) هل أطبق المغيرون علينا ؟

سالم ـ لا أثر للمغيرين

الوليد ـ ولكن ؟

سالم ـ لا أستطيع الافصاح .. ان بيت امير المؤمنين تضيئه الشموع .

الوليد ـ وهل تريده منطفئاً ؟

سالم ـ يجوسه فتى غريب .

الوليد ـ وماذا يريد هذا الغريب منا ؟ أهو شاعر متمدح .

سالم ـ شاعر يتغزل وجد منفذاً الى البيت المحرم .

الوليد ـ بسيفه

سالم ـ لا .. بقناعه .

الوليد ـ ومن فتح له الابواب ؟

سالم ـ يد جميلة ، لأجل عقيلة ..

الوليد ـ ويحك . ماذا تقول ؟ هل رأيت بعينيك ؟

سالم ـ سمعت حسيس القول ..

الوليد ـ عند أم البنين ..

سالم ـ لم يخطىء ظنك يا أمير المؤمنين ..

الوليد ـ (بهدوء) هل كنت في حلم ؟

سالم - انها الحقيقة يامولاي

الوليد - في أية غرفة ؟

سالم - في غرفة نومها ؟

الوليد - هل استطيع ان ادركها ؟

سالم - الا ان تخفيه عنك .

الوليد - وأين تخفيه ؟ (همس) . اياك ان تبرح هذا المكان .

(روضة وقد سمعت الحديث)

روضة - ويلي عليك ياسالم . لا بد إن أكذبك . اركضي ياروضة ! ان نشيد الموت يتعالى ..

(موسيقى)

المشهد السابع

وضاح - ام البنين - ثم روضة - ثم الوليد

ام البنين - احس بفمك باردا .

وضاح - يقولون : ان الثغر يبرد قبل الموت .

ام البنين - ولكنك الان في معبد الحب .

وضاح - في معبد الحب كان الاوائل يقدمون الضحايا وهم يرقصون ويغنون .

ام البنين - انك تحمل وجه ميت الي .

وضاح - هل يعيش الاموات بعد موتهم .

ام البنين - لاتزعج معبد الحب بوساوسك !

وضاح - اشعر بان قصتنا تكاد تنتهي .

ام البنين ـ بل تبدأ .

وضاح ـ ربما .. كثير من الاشياء يجب ان تنتهي حتى تبدأ

(روضة داخلة على وضاح وام البنين)

روضة ـ سيدتي !

ام البنين ـ بئست الجارية .

وضاح ـ ياله من وجه مشئوم .

روضة ـ (بانتحاب) سيدتي . لم أجيء لفضول . جئت انبهكما .

ام البنين ـ (بلهفة) ممن ؟

روضة ـ ليس في الوقت متسع . سيكون سيدي — هنا — بعد قليل .

وضاح ـ ويحك . من ذا انبأه بالامر ؟ انت ما كرة غيور . اردت الانتقام منا . اذهبي لعناق الشيطان .

روضة ـ لولا حبي اياك ماآتيت منبهة ... كأني بالقوم يطئون ساحة القصر .

وضاح ـ لولا حبك اياي . متى احببتك ؟ في اي مكان ، وبأي زمان ؟ متى عرفتك ؟ اين رأيت وجهك الملعون ؟ .. لن احبك . ولن اضمك ابداً .

روضة ـ لاتحبني ! ولا تنظر الى وجهي الممقوت ... لكن سلامتك سبب لسلامة سيدتي . اتحملها على الفضيحة ؟ اركن الى الهرب سريعاً مااستطعت .

ام البنين ـ ولكن ... هل عاد يمكنه الفرار ، والدار محروسة المسالك . ادخل هذا الصندوق .

وضاح ـ ياله من قبر حي !

روضة ـ اخشى ان يبقى قبراً الى الابد .

ام البنين ومن ذا يشعر بأن فيه انساناً ؟ انزل بأمان .

وضاح اطلي علي ! ابتسمي لي ! انها لعبة قصيرة الامد . اهكذا يترك الموتى قبورهم ؟ ليتهم يموتون كهذه الميتة .

ام البنين لكنك لست بميت ..

وضاح ضعي قناعي فوقي .

(يسمع وطء اقدام — الوليد وعبيده)

ام البنين آه . أراك مسرعاً هذه الليلة .

الوليد اني اسراعي مايزعجك ؟

ام البنين بل فيه مايسرني ، لأنك نزيل وحشتي .

الوليد ماأحب اليك هذا البيت من بيوتك . فلم تختارينه ؟

ام البنين اجلس فيه ، واختاره لأنه يجمع حوائجي كلها ، فأتناولها منه كما أريد من قرب .

الوليد (بتردد) هبي لي صندوقاً من هذه الصناديق .

ام البنين كلها لك ياامير المؤمنين .

الوليد ماأريدها كلها ، وانما اريد واحداً منها .

ام البنين خذ ايها شئت .

الوليد هذا الذي جلست عليه .

ام البنين خذ غيره ياأمير المؤمنين .

الوليد احملوا هذا الصندوق ايها العبيد .

(يحمل الصندوق)

انزلوه في هذه البئر . هيلوا التراب والحجارة عليه .

(قذف التراب والحجارة) .

ياهذا ! انه بلغنا شيء ان كان حقا فقد كفناك ودفنا ذكرك . وقطعنا اثرك الى آخر الدهر . وان كان باطلا فانا دفنا الخشب . وما أهون ذلك !

(يتوالى قذف التراب والحجارة)

المشهد الثامن

روضة ـ ام البنين ـ حول البئر

(غناؤه كأنما تسمعه من **اعماق البئر**)

روضة ـ لقد كان الصندوق ضريحه الحي .

ام البنين ـ احقا عرف الوليد أنه كان داخل الصندوق ؟

روضة ـ لابد انه كان يعرف .

ام البنين ـ اتعرفين من حمل الى الوليد انباءه؟

روضة ـ هو الشخص الذي لم نعد نراه أيضا .

ام البنين ـ سالم نفسه ؟ يقولون انه دخل على الوليد ، ولكنه لم يخرج .

روضة ـ سالم . . الذي ظن انه ينتقم منه لنفسه اذا به ينتقم من نفسه . . كأنما الوليد اراد ان يقطع الاثنين معا .

ام البنين ـ ولكن الوليد لم يعاتبني في شيء من ذلك .

روضة ـ لقد كنت عزيزة عليه . . وكان عرضه أعز .

ام البنين ـ انا التي قد جنيت عليه . ليت قصة القناع لم تكن! . . كان يقول لي ان المرأة التي تكشف قناعه هي التي تقتله . .

روضة ـ وهكذا كان . .

ام البنين . وأحسرتاه ! لااستطيع ان افكر في هذه النهاية . حبيبي الان تحت هذا البئر .. كيف مات ؟ روضة . اسعفيني . انقذيني من ألم الضمير . هل تضمرين لي عداوة ؟

روضة ـ اننا ـ هنا ـ مفجوعتان في آمالنا وحبنا . وليس بعد الموت من عداوة .

ام البنين ـ تنازعنا على وضاح وهو حي ..

روضة ـ لكنه سالمنا وهو ميت .

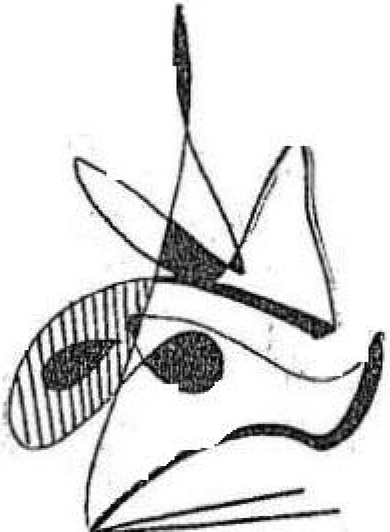
ام البنين ـ أتظنين ان ذكره يموت في انفسنا ؟ ان قناعه عندي .

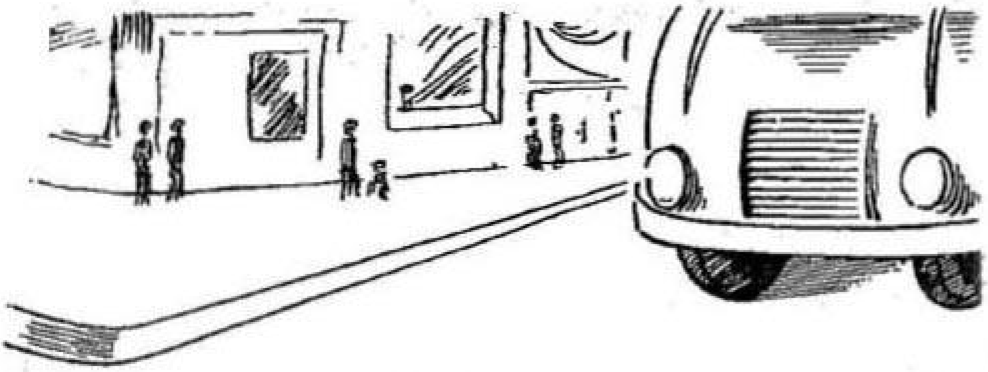
روضة ـ لقد أراد ان يكون قناعه معه . صوني قناعه كذكرى .

ام البنين ـ من كل هذه الحياة الزاخرة بالحب والجمال .لم يبق الا القناع ..

روضة . وهل نحن الا ضحايا قناعه

ام البنين . كم قصة وراء القناع !!!





انتهت الرحلة

صورة قصصية غير جميلة ولكنها صورة

بقلم علي بدور

في حر الصيف اللاهب يطيب لبعض سائقي الباصات ان يتأخروا .. فاذا كان الانتظار تحت قرص الشمس ، فان دقيقة واحدة يتأخر فيها الباص يحسبها المرء ساعة كاملة.

وجدت نفسي انتظر مع الواقفين . كان الى جانبي رجل قروي وامرأته التي كانت تحمل طفلاً ناحلاً في ثياب ممزقة قذرة ، واحسست ان الام تحتضن الطفل باشفاق جريح وتحاول قدر ما تستطيع ان تحميه من وهج الشمس باتخاذها من ظهرها ورأسها وقاء له .

واقبل الباص يتهادى .. ووقف لحظات ريثما استطاع المنتظرون ان يصعدوا .. ووجدت نفسي داخل الباص في

احد المقاعد الخلفية المتقابلة ، بينما احتل المقعد المقابل ذلك القروي وزوجته التي حضنت طفلها بصمت ثقيل كان يرتسم على محياها مع شيء من القلق المتوتر ، والطفل صامت قد استعاض عن البكاء او الحركة بالتنفس الذي كان يبدو بطيئاً من تحت الاغطية القذرة ..

امتدت يد الام بعفوية الى طرف الغطاء القذر الذي كان يحجب وجه الطفل ورفعته عنه فبان وجه بشري لم يبق فيه الا الجلد والعظم متخذاً بذلك شكلا منفراً كاد يشبه وجه القردة لبروز وجنتيه وانخفاض فكيه ، وضيق جبينه ، فكأنه وجه من الجص حرص صانعه ان يشوهه قدر مايستطيع ، وكانت عيناه مغمضتين ، وفتحتا انفه مسدودتين تماماً بالاوساخ ، وفمه يفتح بصعوبة للتنفس ، وعندما رفعته امه قليلا عن حضنها بانت رقبته مثل القصبة المجوفة الرقيقة اليابسة، ولمع لونه الاصفر عندما انعكست اشعة الشمس عليه ، كما بانت ساقاه وهما تتدليان وتتأرجحان في الهواء كساقي لعبة تقطعت حبالها الداخلية فبدتا مشلولتين تماماً .

اعترتني هزة من الخوف وانا انظر الى الطفل .. وبت متردداً في ادامة النظر الى الطفل والى وجهه بصورة خاصة ، او الانصراف عنه بالمرة .. لان شكله كان غريباً وملفتاً للنظر بشكل لايمكن لصورته هذه ان تغيب من الذاكرة مهما توالى بعدها من صور تتفاوت جمالا او بشاعة.. وخطرت لي وانا احدق فيه من جديد خواطر غريبة ، ولكنها كانت محصورة بين حدي الموت والحياة . ان الحياة جميلة ولا شك ، وقد لايحس الاطفال بجمالها الا اذا كبروا .. اما هذا الطفل المريض فماذا يستطيع ان يتذوق من حلاوة الحياة .. بل ماذا يستطيع ان يتذوق من مرارتها اذا شاء ؟.. انه مريض ويتألم ولكنه عاجز بالمرة عن التعبير حتى عن مشاعره هذه .. هاهو ذا يتنفس بصعوبة ، وقد يكون الان ظامئاً ولكنه لايقدر ان يطلب الماء او حتى ان يتململ .. واعتراني ضعف حقيقي من ذلك النوع الذي تولده نظرة ذات معنى الى حياة انسانية تتعذب وتتلاشى شيئاً فشيئاً بين احضان الفناء، ولا يستطيع احد من الناس مهما كانت قدرته ان يفعل شيئاً يحول بينها وبين ذلك العذاب الاسود .

حدقت في وجه الاب ، فوجدته ينظر الى طفله بين آن وآخر بعينين قلقتين .. وتفحصت تقاطيع وجهه فوجدتها تشبه تقاطيع وجه الطفل ، وان كانت قد اخذت شكلها النهائي وامتلأت لحماً .. كانت عينا الاب مدورتين معبرتين قد امتلأتا ضياء .. ولكن هذا الضياء كان ينطفىء عندما كان الاب يحدق في وجه الطفل . اما عينا الام فكانتا ساهمتين في طفلها وكانتا رغم جمودهما تشعان حنانا وحباً . وكان وجه الاب دائم الانفعال فكأنه يتكلم لغة صعبة الفهم ، وكان بصره يشخص بعض الوقت في زجاجة الدواء التي حملها بيده . وكنت اذا تعبت من التحديق في الوجوه البادية امامي استرحت عند وجه الام الذي كان يجسد لي الامل . لقد كان يعكس عدا مظاهر الارهاق والتعب احلامها في ان يعيش طفلها ويغدو شابا ...

انشغل الاب لحظات مع الجابي ، فدفع له ثمن التذكرتين ، ورمق الجابي وجه الطفل وهو يقبض من ايه قيمة التذكرتين ، فقطب وجهه لانه ـ كما خيل الي ـ نظر في وجه ما ، دون ان يأخذ ثمن نظرته .. لقد كانت نظرة مجانية لا لزوم لها انفقها هدرا فسببت له بعض الازعاج ... فانبرى آمراً مغلقاً اوامره بالنصيحة :

ـ استروا وجه الطفل .. ان الذباب يزعجه .

قالها وهو يجوزهم الي .. وابتسم ابتسامة ماكرة تعبر عن قرفه مما يصعد الى الباص من أناس دأبهم مخالفة الاوامر الصحية وعدم العناية بمظهرهم الاجتماعي .. وتمليت وجه الجابي فبدا لي وجهه معبراً عن قوة مادية افقدتها الارقام وعدم التعامل مع اناس من وسط معين ، كل ظلال الروح الرقيقة .. وتأكدت انه لا يقصد شيئاً مما قاله لانه كان يتحرك كآلة ناطقة .. قد اعتادت الحركة والنفخ في الصفارة عند كل موقف .. ـ وتوديع النازلين واستقبال الصاعدين .. بعين زجاجية ولسان من مطاط .

عدت الى وجه الطفل بعد تلك الجولة المتعبة في وجه الجابي فوجدت الذباب يتوزعه وبخاصة عينيه اللتين غطاهما القذر ، وفتحتي انفه اللتين سدتا سداً محكماً .. والفم الذي ستره اللعاب فبدا كالمستنقع .. وكان الذباب رغم يد الام التي قامت بدور المروحة لا يكاد يغادر حتى يعود بكثرة ملحوظة بحيث كان للطفل عينان وانف وفم من الذباب .. لان الذباب كان يبدو مستقراً لايتحرك عن هذه الينابيع الثلاثة .

وفجأة وفيما كان الطفل ساكنا وامه تحضنه برعاية ، والاب يحنو عليه بنظراته من آن لاخر ، والباص يغذ الجري في طريقه المرسومة ، بدأ الطفل يتنفس بصعوبة كأن اختناقاً يولد في رئتيه .. حتى ان فتحتي انفه كانتا تطلقان عبر تنفسها بالونين صغيرين من المواد المخاطية مصحوبين ببعض الاوساخ التي سدت فتحتي الانف .. كما تحللت الاقذار الطينية التي كانت تطمر الاجفان والعينين بفعل الدموع التي كانت تنهمر منهما :. وطارت عدة ذبابات عن الفم بعد ان اخذت شفتاه تنفرجان لتكشف عن كهف لا نهاية له .. وبان اللسان كأنه الخيط المبتل .. واخذت الام تمسح ذلك كله بطرف من الغطاء القذر .. والاب يعاونها بعينيه القلقتين وزجاجة الدواء تنتقل من يد الى يد دون توقف .. وظل الطفل يتعرض للنوبة دون ان يستطيع البكاء او الكلام او حتى ـ ان يفتح عينيه .. لقد كان كل شيء مغلقاً وبأحكام شديد وبصورة نافذة في حياة هذا الطفل التي كانت تضمحل شيئاً فشيئاً .

ولاول مرة في حياتي اشهد شبح الموت مخيماً فوق وجه انساني .. واشهد عاطفة الام وهي تحنو عليه وكأنها تريد ان تعطيه من حياتها لتمنع عنه تلك النهاية الاليمة وكانت الام تحول

عينيها عنه الى زوجها تسأله بهما المعونة .. ولكن الاب بدا عاجزا بالمرة .. لقد شل تفكيره .. وكذلك الأم .. ولكن بقيت لها عاطفة الامومة تلك العاطفة الغريزية التي أخذت تتصرف بها فكأنها العقل المدبر .. ورغم مظاهر الارتباك والقلق ، فقد اخذت الام تمسح بطرف من الغطاء القذر دموع العينين وفضلات فتحتي الانف ، والكثير من اللعاب في الوقت الذي ازدادت فيه حركة التنفس كأن الطفل كان يختنق من الداخل .. مما دعا الاب لأن يعاون الأم هذه المرة .. ويضع يديه حول كتفي الطفل .. وكانت عضلات وجهه كلها تتقلص كأنه في حالة دفاع عن النفس ضد عدو كمن في جوف الطفل .. وها هو يخرج على دفعات من عينيه دموعا ومن فتحتي انفه سائلا مخاطياً .. ومن فمه لعابا .. وهو رغم ذلك لايدري ما يفعله .

كان الباص لا يزال يغذ الجرى .. والركاب يتصببون عرقا ، والحر اشد ما يكون عليه لظى ، وعند كل موقف كان بعض الركاب ينزلون وبعضهم يصعدون ، والجابي لا ينظر الا بحساب حتى اذا انهى عمله عاد الى جانب السائق يتبرد من نافذة مفتوحة .. وكانت هـذه الالية المتكررة في صعود ونزول الركاب ، واختلاف المظاهر والاشكال ، تصطدم بأزمة الطفل الصغير الذي لم ير النور بعد ولكنه هاهو يعاود السير الى الظلمة الابدية .. وكان وجوم ثقيل يربض فوق صدري .. لانني كنت اريد ان اشارك هذه العائلة ... ولكني لا ادري ماذا استطيع ان اصنع .. ان الحياة ليست دائمـاً في جانب الفرح والبهجة والسعادة .. انها احياناً مع التعاسة والشقاء والنكبات ، وارادة الانسان قد تظل عاجزة عن محو كلمة سوداء عن جبين انسان ناصع البياض .

وتابعت الام اهتمامها بالطفل الذي يضطرب بين يديها ، وكان زوجها يشاركها هـذا الاهتمام ولكن بلا فائدة .. بينما كان الطفل يكثر من تنفسه الشديد المتوتر وهو يزفر حياته على دفعات من عينيه وانفه وفمه .. ولم يلبث ان همد وسكن فجأة بصورة تشبه انقطاع التيار الكهربائي وانطفاء النور بعد ذلك مباشرة .. وحدقت الام في وجه زوجها بنظرة خرساء وكأنها كانت تقول له بعينيها :

— وهل مات ؟ ..

وتصرف الاب والام معـاً تصرفاً حيوانياً .. فلم ينطقا بكلمة .. لقد عقدت السنتهما المفاجأة .. واكتفى الاب بأن مد يده الى الغطاء القذر وسحبه الى اعلى حاجباً به وجه الطفل في الوقت الذي رمق فيه زجاجة الدواء بنظرة عجلى ثم وضعها في جيبه بينما الام نظرت حولهـا فشاهدت بعض الركاب ينظرون اليها واجمين صامتين ، خيل الي انهـا ارادت ان تصرخ ، فلم تطاوعها حنجرتها وخانها صوتها .. وتدفق فجأة الصراخ المخنوق من عينيها دموعا غزيرة كانت

تساقط فوق الغطاء القذر فتحدث فيــه بقعا مبتلة صغيرة ، سرعان ما كانت تكبر كنقطة الزيت الساقطة فوق صفحة ماء هادئة ، وعاودت تحضن الطفل الميت الى صدرها بحركات غريزية متشنجة خرساء ، كما حاول الاب ان يبـكي فلم يستطيع . . وان كان قد تمخط كثيراً بطرف منديله الذي كان يستر رأسه الحليق..واخذ يتحدث الى زوجه بهدوء طالبا ان تكف عن البكاءوهويقول لها:

ــ ان مرضه قديم .. والموت راحة له .

واجابته الاجابة الوحيدة التي لم تقل بعدها شيئا :

ــ ولكنه مات

كانت الام بين الفترة والفترة تعيد كشف الغطاء عن وجه طفلها الميت فيبين لهــا بصمته الابدي ووجهه الذي اختلطت فيه الاقذار الفائضة من ينابيع الوجه الثلاثة ، ممثلا للموت عندما يتجسد في وجه طفل انهى احتضاره ومات . وكانت الام تصمت قليلا لتتكلم بدموعها . . بينما الاب قد كف عن التحديق في الطفل . . واخذ يتأمل ببلاهة وجوه الركاب من حوله .. تلك الوجوه الشمعية التي لم تستطع ان تنطق بكلمة واحدة .. لعلها كانت منصرفة الى مشكلاتها الخاصة الصعبة التي كانت تشبه لصعوبتها وتعقيداتها فكرة الموت نفسها وقد غدت لغزا لاحل له .. ولكن برغم ذلك فقد ربطتني بهذه العائلة التي فقدت املها وشعرت بمشاركة وجدانية عميقة . . وتساءلت فيما بيني وبين نفسي « لعلهما فقيران معدمان بل هما كذلك ، والطفل رغم مرضه وهزاله كان كل ثروتهما في الحياة .. اليست ثروة الفقراء هي اولادهم ؟.. وهم لا يشعرون بتعاستهم وبؤسهم الا اذا حرموا من نعمة الاطفال .. والانسان مهما كان معدما فانـه يحس بغناه الانساني عندما يساهم في انجاب طفل .. ولكن ماذا يعترى الفقراء عندما يفقدون ثرواتهم ؟ ... ووجدتني عاجزا عن الجواب على هذا السؤال ..

كان الاب رغم مابه من احزان يحاول ان يبدو طبيعياً امام الركاب .. حتى ان الجابي مر من امامه وعاد الى جانب السائق دون ان يشعر بشيء .. لقد كانت الام تبـكي ، وهي مطرقة الرأس وكان الاب جامد النظرات مندهشاً لما ألم به .. وكانت عيناه تعبران عن احتقاره للركاب الذين شاهدوا احتضار الطفل..وخيل الي انه كان يود لومات طفله في المنزل .. وليس في الباص.. اذن لعرف كيف يتصرف دون ان يخشى عيون الاخرين .

وحاول الاب ان يعزي نفسه .. فاخرج علبة الدخان من جيبه واخذ يلف لفافة بين يديه.. وفي الوقت الذي كان يعد فيه لفافته ليدخنها كان الجابي يغادر مكانه الذي اتخذه الى جانب السائق، فمر بالام وهي تحتضن طفلها الميت ، ودموعها توشك ان تجمد في عينيها والغطاء يستر جثة الطفل العظمية ، والذباب اوشك ان يتفرق بعدما حجب الغطاء عنه منابع الرزق ، ولم يدر الجابي وهو

يتفقد المقاعد الخلفية ، ما حل بالطفل الذي طلب الى ابويه ان يحجبا وجهه عن الذباب وهو يقصد ان يحجب وجهه القبيح عن عينيه الزجاجيتين .

تناول الاب علبة الثقاب من جيبه بعد ما اعاد علبة الدخان الى موضعها ، وحمل باصبعيه لفافته التي حشاها جهده الى شفتيه وهم بأن يشعلها .. ولكن الجابي استدار نصف دورة فشاهده وهو يسحب اول نفس من اللفافة بعدما اشعلها بعود الثقاب ... ثم نفخ الدخان بقوة مما جعل الركاب في الباص يشعرون بأثر الدخان ـ عليهم وعلى انفاسهم في ذلك الجو الخانق .. واقبل الجابي وهو يتحداه بعينين نافذتين تقدحان شرراً وغيظاً وقال له :

ـ الا تعرف القراءة .. انظر امامك .. انك تخالف اوامر المؤسسة .

ولكن الاب لم يجبه .. لقد كان يسحب النفس الثاني من لفافته وكأنه كان يستعيد راحته التي فقدها بموت الطفل ولكنه بعد ان نفخ دخان النفس الثاني ـ قال له :

ـ عفوك ياسيدي .. انني لا أعرف القراءة اقرأ انت لي ما تقول المؤسسة فأجابه الجابي بانفعال :

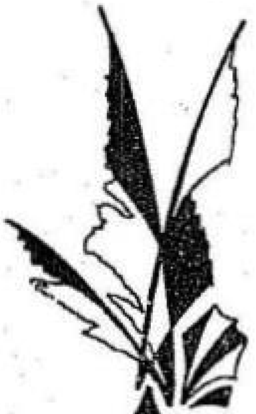
ـ ممنوع التدخين ..

ولكن الاب ظل صامتاً .. وكان يرمق طفله الميت وهو تحت الغطاء بنظرة اسى ثم القى بلفافته من النافذة .. وتطلع في وجه الجابي لحظة ثم قال له بلهجة رقيقة :

ـ عفوك ياسيدي .. ان ابني مات .

ولكن الجابي لم يسمع اعتذاره .. لانه كان قد غادره الى مكانه المعهود جانب السائق يتبرد بالهواء المنعش .. فبدا الاب وكأنه يعتذر لنفسه .

ثم وقف الباص .. وانتهت مرحلة من مراحل السفر ، السفر الذي لا ينتهي .



حكاية صينية

الفرشاة السحرية



مترجمة عن الانكليزية

بقلم سليم محمد زيد

مرة في قديم الزمان عاش ماليانغ وهو صبي تركه والداه يتيما يقاسي متاعب الحياة ، وحيداً يجمع الحطب ويقطع القصب ليكسب معاشه محباً للرسم لا يملك شراء فرشاة واحدة .

مر ماليانغ بأحدى المدارس الخاصة ومعلمها يقوم بالرسم فدفعه الشوق الى مراقبته وتجرأ وسأله ان يعيره فرشاة للرسم فنظر اليه المعلم بسخرية قائلاً : أمتسول مثلك يريد ان يتعلم الرسم ؟ اذهب من هنا فانك تحلم .

ولكن ارادة ماليانغ القوية لم تقنع بهذا الطرد بل ازداد تصميماً فأخذ يتمرن يومياً ، عندما كان يجمع الحطب يمسك عوداً يرسم به طيوراً على الرمال وأثناء قطعه القصب كان يضع أصابعه في الماء ويرسم السمك على الصخور وفي البيت امتلأت جدران الكهف الأربعة بصور قطع الاثاث القليلة .

ومع مرور الزمن كان ماليانغ يتقدم بسرعة لأنه لم يكن يهمل الرسم يوماً واحداً وكان الذين يرون رسومه يظنون ان العصافير ستطير والسمك على وشك السباحة لأنها كانت واقعية جداً ولكنه كان يتحسر على فرشاة ويتصور سعادته عندما يحصل على واحدة .

وبعد يوم من العمل الشاق والرسم استغرق في النوم ورأى في الحلم شيخاً طويل اللحية يتقدم منه ويعطيه فرشاة ذهبية قائلا : استعمل هذه الفرشاة بعناية لأنها سحرية ،فأجابه ماليانغ: يالها من فرشاة جميلة . اشكرك كثيراً . ولكنه قبل ان ينتهي من شكره اختفى . فاستيقظ ماليانغ مذعوراً فأدرك انه كان يحلم ولكن عجباً : انه يمسك بيده الفرشاة السحرية .

رسم طيراً بفرشاته السحرية وسرعان ماحرك جناحيه وطار واخذ يغرد أعذب الألحان . ثم رسم سمكة اهتز ذيلها واخذت تسبح بخفة فامتلأت نفسه حبوراً بمايسمع ويشاهد .

دأب ماليانغ على ان يرسم لجيرانه الفقراء بفرشاته السحرية ماينقصهم من ادوات كالمحاريث والاوعية والمصابيح .

ولكن السر لايمكن ان يبقى خافياً ووصلت انباء الفرشاة الى احد اغنياء القرية فأرسل اثنين من اتباعه لاحضار ماليانغ الذي كان يكره الاغنياء واخذ يهدده ولكنه رفض الرسم فأمر به ليسجن في الاسطبل ليموت برداً وجوعاً وبعد ثلاثة ايام نزل الثلج فاقترب الغني من الاسطبل ولشد ما كانت دهشته عندما لمح النار تتوهج في الموقد وقد انتشرت رائحة الطعام اللذيذ فلم يستطع الغني تصديق عينيه وادرك ان ماليانغ رسمها . اشتعل غيظاً واستدعى رجاله لقتله ولكنهم عندما اقتحموا الاسطبل لم يجدوا في الغرفة الا سلماً حاولوا تسلقه فاختفى .

وهكذا تمكن ماليانغ من الهرب ولكنه أدرك أنه لن يستطيع أن يعيش في القرية لأنه سيكون مصدراً للخطر لاصدقائه فرسم حصاناً قوياً وأخذ يسير بعيداً عن القرية ولكن الغني أدركه بفرسانه فرسم قوساً وسهماً سدده الى رقبة الغني ورماه عن حصانه وهرب بعيداً الى احدى المدن وهناك حرص على ان يرسم صوراً ناقصة لاتتمكن من الحياة حتى لايكتشف أمره ولكنه في احدى المرات أهمل في رسم أحد الطيور وصوره كاملا فطار في الجو وأعجب به الناس وتناقلوا الخبر حتى وصل الى مسامع الامبراطور الذي تناقل الناس انباء قسوته وظلمه .

رفض ماليانغ ان يرسم للامبراطور مايشاء فقد طلب منه أن يرسم تنيناً فرسم ضفدعاً وطلب عنقاء فرسم ديكاً أخذ يملأن البلاط ضجيجاً ووسخاً فأمر الامبراطور بحبسه وانتزع منه الفرشاة وحاول استعمالها . رسم جبالاً من الذهب تحولت الى كتل من الصخور انهارت حتى كادت ان تحطم قدميه . رسم قطعاً من الذهب تحولت الى وحش مفترس هجم عليه فاغراً فاه يريد افتراسه لولا أن دافع عنه حرسه .

لم يكتف الامبراطور بما حدث فقد قاده جشعه الى أن يحاول الوصول الى اغراضه عن طريق الخديعة فأطلق سراحه وأعاد اليه الفرشاة وقدم اليه الفرشاة وقدم اليه الذهب والفضة ووعده أن يزوجه احدى الأميرات فأظهر اقتناعه وقد أضمر في نفسه أمراً .

طلب الامبراطور من ماليانغ أن يرسم بحراً لأنه خشي ان هو طلب منه ان يرسم جبلاً ان تخرج منه الوحوش فصور ماليانغ بحراً ازرق هادئاً وبناء على طلب الامبراطور رسم سمكاً وقارباً كبيراً استقله الامبراطور وحاشيته .

رأى الامبراطور أن القارب يسير ببطء فطلب من ماليانغ ان يزيد من

سرعته وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها ماليانغ فرسم ريحاً أخذت تسير بالقارب بسرعة ارضت الامبراطور ولكن ماليانغ زاد من سرعتها فتحولت الى عاصفة هوجاء أخذت تلعب بالقارب كريشة في مهب الريح وأخذ الامبراطور يصرخ ويتوعد ولكن ماليانغ تصام وأخذ يزيد من شدة العاصفة حتى اغرق القارب ومن عليه .

بعد وفاة الامبراطور أخذت شهرة ماليانغ تتسع وتذيع بين الناس ولكن ماذا حدث له بعد ذلك ؟

يقول البعض أنه عاد الى قريته واصدقائه ويقول آخرون أنه أخذ يضرب في الارض يرسم أينما ذهب للفقراء مايحتاجون اليه



كتب جديدة صدرت عن وزارة الثقافة والارشاد القومي
توجد مع الباعة وفي المكتبات العربية

الصواريخ والاقمار الصنعية
للمهندس وجيه السمان

* * *

محافظة السويداء
تأليف شبلي العيسمي — داوود حمود الشوفي

* * *

الجثة المطوقة — الاجداد يزدادون ضراوة
للكاتب الجزائري كاتب ياسين
ترجمة مالك ابيض العيسى
مراجعة الدكتور كمال خوري

الفنون

الكتاب والموضوعات

عالم التلفزيون

بقلم الدكتور ابراهيم الكيلاني

« ليس هناك من سد
يستطيع الصمود في وجه
هذا المد التلفزيوني الصاعد »
« مالرو »

— ١ —

وفق العقل الانساني ، فيما وفق اليه في سيره الابداعي المتتابع الى ايجاد وسيلة تعبيرية جديدة غزت العالم بسرعة مذهلة ، وتوغلت في بلدان راقية وأخرى لاتزال في مرحلة بدائية من تطورها الحضاري ، ألا وهي التلفزيون .

ان التلفزيون أداة تنقل الصوت والصورة في اطاريها الزمني والمكاني الى مسافات بعيدة ، سواء بطريقة مباشرة ، فورية ، آنية ، اومسجلة ، مختزنة ومؤجلة البث كما يقول الفنيون

وفي معرض المقارنة بين هذه الوسائل التعبيريـــة الحديثة الثلاث نجد أن التلفزيون تفوق على منافسيه السينما والمذياع فكان من مظاهر هذا التفوق انخفاض عدد مرتادي دور السينما في انحاء العالم هذا بالرغم مما تبدعه السينما من وسائل تجديدية ، وما تستنبطه من أساليب مشوقة ومغرية ، كما تدنت قيمة المذياع كأداة حضرية جديدة فاحتل مكانه ضمن العادات المألوفة ، والأثاث العتيق ، فلم يعد اقتناء جهاز تلفزيوني دليلا على الترف المادي الذي يتشوف اليه كل انسان فحسب ، بل شعاراً لتكيف مقتنيه مع روح العصر التقدمية وتماشيه لسنة التطور .

فاذا كانت السينما تعتمد على الحاسة البصرية ، واذا كان المذياع يعتمد على الحاسة السمعية تاركا للمستمع مجال التصور والتخيل ، واذا سلمنا بأن حضارتنا هي حضارة الصورة ، والرمز ، لا التحليل والتركيب ، وأن الذاكرة البصرية اسرع امتصاصاً للاشياء واستيعاباً لها من الذاكرة السمعية واكثر ديمومة ، كان من البدهي أن يؤدي التلفزيون في هذه المرحلة الحضارية مهمته المستمدة من روح العصر واتجاهاته فيثير — كما فعلت السينما من قبل — مشاكل ، ومتاعب ، ومخاوف ، يثيرها المربون ، والأهلون ، والاطباء النفسيون ، وعلماء الاجتماع ، داعين ، كل حسب وجهة نظره ، الى طرح المشكلـــة بصورة لاتخلو من تشاؤم وفزع من نحو ، وتجن ومبالغة من نحو آخر ، كما حدث تماماً عند ظهور المكتشفات والمخترعات الحديثة التي قوبلت عقب ظهورها بالاستنكار والتمرد الى أن احتلت تلك المخترعات مكانها في ثبت المكاسب والثروات التي تنعم بها الحضارة الحديثة على بني الانسان .

ان للتلفزيون جاذبية عجيبة ، وقوة استحضارية هائلة ، وتأثيراً على النظارة يفوق تأثير السينما والمذياع مجتمعين ، فنحن لانسمع المتكلم فحسب ، بل نراه في آن واحد وذلك مهما تنوعت الظروف ، واختلفت المناسبات فنرى المشاهد في واقعها الحالي العفوي ، ونحن لانذهب اليه ، بل هو الذي يأتي الينا مقتحما علينا الحجب والستائر في اعقــار دورنا ، وعوالمنا الصميمية ، وحتى غرف نومنا لم تسلم من هذا التسلل العجيب ، فما اشد لصوقه بنا ، واختلاطه بحيواتنا ، وما ابعد توغله في اعماق نفوسنا ، وفي هذا مصداق للقائلين بالنظرية القربية Proximisme التي تقول : ان اشد مايكون الانسان تأثراً بالاشياء والحوادث اقرب مايكون منها ، وأن أقل مايكون الانسان تأثراً بالاشياء والحوادث ابعد مايكون منها ، فان التلفزيون الموضوع في غرفنا ، ضمن اطار الأسرة الضيق المحدود

لاتفصلنا عنه سوي بضعة امتار او أشبار ، غلك حريــة تشغيله ورفـع صوته او خفضه لأشد تأثيراً او ايحاء لحواسنا مثلا من فيلم سينمائي يعرض في قاعة كبيرة يشغل مقـاعدها جمهور مائج متحرك ، متنوع الأهواء والاذواق ، متفاوت الاستجابات والارتكاسات ، مختلف النفسيات والانفعالات والثقافات مما يفسد على المرء العزلة والانـكماش والتجمع . ومن البدهي ان العزلة والانفصال عن الجماهير ادعى عند الفرد المتحضر والبدائي على السواء الى تجاوبه مـع المؤثرات النفسية ، والصوتية ، والمرئية .

واذا ماتعمقنا اكثر فأكثر في دراسة سر هذه الآلة العجيبة وجدنا انها تقوم على اسس ثلاثة متناقضة وهي :

١ ـ **الايناسية** : واعني بذلك توهم المتفرج التلفزيوني في بعض الحالات ان المشاهد موجهة اليه وموضوعة له دون سواه ، فان الاتصال الذي يتم بين رجل يظهر على شاشة التلفزيون وبين مليونين او ثلاثين مليون متفرج ينظرون اليه لايمكن مقارنته بذلك الاتصال الذي يتم بين رجل يظهر على شاشة السينما او ممثل مسرح وبين خمسمائة أو الف متفرج موجودين في القاعة ، ففي الحالة الاولى يداخلنا شعور خفي بان الاول قد اجهد نفسه للوصول الى كل واحدنا فيكون استقبالنا له ذا طابع **فردي** ، وفي الحالة الثانية يداخلنا شعور خفي ايضاً بأننا تجشمنا مؤونة الذهاب اليه فيكون استقبالنا له ذا طابع **جماعي** .

٢ ـ **الفورية** : واعني بذلك ان التلفزيون ينقل الينا المرئيات والاصوات في موجات آنية متلاحقة ، تربطنا بالواقع الحي ، والحقيقة الواقعة مشبعة فينا غريزة التمسك بالحاضر ، متيحة لنا المشاركة من خلال الكوة المضيئة بحياة المجموع وحرارته ، وقد تصبح هذه المشاركة نوعاً من **التفتيح الذهني** الذي تزول معه الانفعالية والتعجب والتساؤل وغير ذلك من العوامل المعوقة التي تحجب الحقائق عن الانسان في الحياة وتحول دون مشاركته فيما يعرض عليه .

وقد ظهر أثر هذه الفورية في ميادين الوثائق « الخام » كالحفلات والمظاهرات الرياضية والخطابية ، والاجتماعية والفنية والعلمية .

٣ ـ **الجماعية** : والمراد بذلك ان التلفزيون بنقله المنظور والمسموع **يزيل المسافات الفكرية** وينبه في الوقت ذاته الشعور **بالترابط الاجتماعي** عند الافراد متجاوزاً حدود المكان والزمان فيربطهم بأحاسيس وانفعالات موحدة ، فهو اداة هامــة في خلق ظاهرة **التجمع والتشابه** الذهني والعاطفي « **والتسوية** » عند الجماهير.

ولاريب في أن مقاييس الحكم تختلف تبعاً للزوايا التي ينظر من خلالها الى الامور ، والحالات النفسية والاوضاع الاجتماعية التي نكابدها ، فاذا كان التلفزيون أداة امتاع وتسلية وتثقيف فان هذه الصفات بالذات قد تحولت عند كثير من الناس الى مساوىء وعيوب ، واصبحت موضوع احتجاج وتذمر ، فلم يتردد احد الكتاب عن تشبيه المتفرجين عند تهافتهم على اجهزة التلفزيون **بالفراشات المتهالكة على الضوء** ، حتى اذا قبعوا تجاه هذا « **المستطيل الضوئي** » عجزوا عن انتزاع ابصارهم منه ، مأخوذين ، ومسحورين بالصور والأصوات ، متمثلين مايعرض عليهم ، فتنطبع الصور والخيالات والمسموعات في ادمغتهم وسط **سلبية** مطلقة ، **وكسل عقلي واستسلام** مقيت ، فيه معاني البلاهة ، والبلادة ، والوسن العقلي !

— ٢ —

وقد نادى اعداء الآلية من مفكري هذا العصر بأن غاية الآلية تحطيم الانسان ، وأن التلفزيون اداة من ادوات عديدة تعمل على اذلال الفرد ، وتهديم كيانه ، ولا ادل على هذا الرأي في نظرهم من المتفرج التلفزيوني المسمر امام الشاشة الصغيرة ، المستسلم لسلطانها الماثل في كل ماتحمله من موضوعات غثة تارة ، وسوقية تجارية تارة اخرى ، والمغلفة بغشاء رقيق **من المغريات الحلوة** ستراً لمرارتها ، واخفاء لسمها الزعاف . وما اكثر مارثى هؤلاء المفكرون لحال هذا المتفرج العاجز عن الهرب خارج **النطاق التلفزيوني** المضروب حوله باحكام ، وما اكثر ما تنبأوا له بالموت على كرسيه وسط الاشعة الوهاجة ، تعلو شفتيه ابتسامة فيها كل معاني التفاهة والكلالة والرضا !

واذا قيل لهؤلاء المتشائمين المشفقين على مصير الانسان ، الخائفين على مواهبه الفكرية : ان التلفزيون **اداة تثقيف ، تقرب العلم والمعرفة من الاذهان** ، وتضع العلماء والمفكرين على **مقربة** من الجمهور ومشهده ومسمعه ، ضحكوا ملء افواههم قائلين بلسان الحال او المقال : ليست ثقافة التلفزيون **بثقافة اصيلة ، صحيحة** ، بل هي **مزيفة ، سطحية** انها تجتاز الوعي والذاكرة بسرعة غير تاركة فيهما اثرا ، وان ربع ساعة من القراءة الجدية الرصينة المركزة لاكثر فائدة من عشرين ساعة تلفزيونية ، وما اشبه هذه الثقافة بغشاء رقيق يجلل الفكر ، تكمن فيه كل اسباب الخطر لانه يوهم اصحابها بأنهم حصلوا على العلم ، وما حصلوا على شيء ، **فهي معرفة افضل منها الجهل** . ولو قيل لهم : ان هذه الصور التلفزيونية **انعكاس**

امين للحياة ،لأجابوا بان اشمئزازنا من هذه الصور يشهد على كرهنا لهذا النوع من الحياة ، لان حب الحياة يتجلى في ان نعيش لانفسنا وسوانا ، ومن اجل من نحب ، كما ان الحياة هي في اثبات وجودنا ، وحفظ كياننا ، وصون حريتنا في **الاختيار والتصرف** ، فنحن نختار على اراداتنا اصحابنا ، وكتبنا ، والعابنا ، وحاجاتنا ، واصدقاءنا ، كما أننا نختار بين انواع التمتع والتسلي ما يروقنا وتتوسم فيه الخير ، والنفع ، وامتاع العقل ، وتهذيب النفس ، ولما كان التلفزيون الذي **يحول المتفرج الى شاهد مسلوب الارادة ، والتفكير ، والنقد ، والاعتراض** على اشياء صنعت له سابقا انما هو **نكران** للحياة الكريمةذاتها .

قال احد هؤلاء الادباء مفاضلا بين حالين :

« أصل الى بيتي مساء مترنحاً من شدة التعب والاعياء ، سعيداً في الوقت ذاته ،لانالحياة لا تلبث ان تبدأ ، اني الاقي زوجي فتساقطها الحديث ، واقص عليها كما تقص علي حوادث يومنا ومقابلاتنا وملاحظاتنا وتجاربنا وآ مالنا ،فنبني معاً مشاريع الغد ، ونخطط اسفارنا المقبلة ثم اضع طفلتي على ركبتي فتقص علي مغامراتها مع أخيهـا الصغير ، ثم استقبل اصدقائي ، او اكتب لهم رسائل ، او اقرأ كتاباً او استمع الى اسطوانة ، او اشرع واسرتي في نزهة على ضفاف النهر او في الحديقة العامة . اني احلم واحلم واحلم ... »

« وما عساي كنت افعل لو كنت املك جهازاً تلفزيونيا ؟ كنت ادير الازرار ،واضبط الصورة ، واركز الصوت ثم اجلس على الوثير ، وعند ئذ ينتهي جهدي ، ولا يبقى لي حتى آخر الليل سوى ابتلاع ما يقدم لي ، غير مبال بمحتواه ونوعيته ، متعللا بتلك الاشياء المصنوعة للعقول المتخلفة ، غارقاً وسط لجة البلادة ، ليس لي من ملجأ لـكي ألاقي نفسي من جديد سوى اللجوء الى النوم ، نوم الحيوان الشبعان ! . »

-٣-

هـذا ما يقوله خصوم التلفزيون ، فانهم بالرغم من ايمانهم بان المتفرج التلفزيوني المدمن انسان لم يفقد احساسه بعد ، فهم ميالون الى الاعتقاد ــ وهنـا يكمن الخطر في نظرهم ــ بأنه **لا يهـتم بنوعية ما يقدم له** فحسب ، بل يلتهمه ويتفاعل معه ويتحمس له ، ثم يستطيب على مرور الزمن هذا **الزاد المصنوع** ، فكأن مشاعره وحواسه كلها قـد عبئت فجأة لمصلحة الصورة ذات الطابـع الطفلي التي تعرض امامه ، لأن هذا الغزو الجماعي الصوري يعطل روح النقد ، ويشل ارتـكاس الرفض والتمرد ويجري هذا كلـه وسط حالة انعزالية تحول دون قيام

المتفرج بالرد والمناقشة لانه لا يملك حرية الدفاع عن نفسه فهو في حكم المخدر او المسحور الذي عطلت حواسه مؤقتاً ، فلم يبق له من وسائل التفاعل **الا التحديق الى الصورة الساحرة ، والفناء فيها** ، فهو يداوي الداء بالداء .

وهكذا اعتقد هؤلاء المتشائمون بأن **انسانياً تلفزيونياً جديداً آخذاً في التكوين** مساء بعد مساء ، وليلة بعد ليلة ، وقد بدأت **معالم** هذا الانسان تتوضح في اميركا واوروبا في اشكال الاولاد المصابين **بالعدوى التلفزيونية** ، فهم عادة مسلقو الاجفان لطول السهر ، فارغو الادمغة ، ضعفاء الارادة ، موزعو الانتباه ، ينقصهم التجمع الذهني ، والتركيز العقلي ، ميالون الى الذهول من جراء انتقالهم دون تمهيد الى دور التفكير الحسي ، قبل دور الكتابة والتفكير والانشاء ، والى دور الصورة المتحركة الرجراجة المتلاحقة قبل عهد الاعتماد على الاشارة والرمز والحرف . ثم ان الطفل التلفزيوني مصاب **بتشويه جسماني** فهو ذو معدة مكوّعة ، يشكو كالشيوخ من الاضطرابات الهضمية ، ذو عمود فقري ملتو لكثر انحنائه ، سيء الاسنان لطول ارتكاز ذقنه على كفه اثناء العرض ، يضع على انفه نظارة يحمي بها عينيه المصابتين ، واخيراً فهو مصاب بالقفم التلفزيوني الذي يجعل خلقته تشبه الغوريلا !

ولاريب في ان **الاولاد اكثر تأثراً** من المراهقين بالصورة ، وتعرضاً لمفعولها ، وذلك لضعف **مناعتهم العقلية والنفسية وسرعة تصديقهم لما** يقال او يعرض امامهم ، فما اشد نهمهم ، واسرع رضاهم بالسهل من الامور والاشياء ، وما اقوى حماستهم وطلبهم لما منع عنهم ، وزهدهم وانصرافهم عن الاشياء التي صنعت من اجلهم فكان لابد للاهلين في هذه المأساة من اختيار احد الموقفين : الاذعان والاستسلام لمشيئة اولادهم او المعارضة والمنع فيصبحوا عندئذ أعداء لهم ، وهما ـ لعمري ـ موقفان احلاهما مر . وكذلك ذعر الراصدون من هذه الظاهرة ، **ظاهرة تقمص الاولاد شخصيات المراهقين** فهم يعجبون ، ويقلدون ، ويتجاوبون مع الممثلين والمغنين والمهرجين من كل نوع وصفة وجنس ولون ، كما ذعروا من **توسع شخصياتهم وتعددها بسرعة شاذة** حتى ازدادوا حسب امزجتهم ووراثاتهم جرأة ووقاحة ، أو ميوعة وانحلالا . فكأن الحياة في نظرهم هي ما تختزنه هذه الشاشة الصغيرة ، بل هم امتداد لها ، فليس هناك تطلع ، ولا مغامرة شباب ، ولا نضال نفوس فتية متفتحة ، بل صور ، واصداء ، واشباح ، وخيالات تفلت من اجهزتهم التلفزيونية فتحتل امكنتها في الذاكرة والخلايا الدماغية ، وقد يبلغ

الاتحاد والتوافق بينهم وبين التلفزيون حداً وهموا فيه انهم هم الذين ينعكسون في التلفزيون ، وانهم يعبرون بواسطته عن انفسهم ، فهو الصدى وهو الانعكاس !

تلك هي الآراء السائدة اليوم عند خصوم الحضارة الآلية التي اوجدت التلفزيون وهناك اشياء اخر موضوع شكوى الاهلين والمربين يمكن حصرها فيما يأتي :

ا ـ **اضعاف** التلفزيون عرى الوحدة الاسروية بقضائه على السمر والمحادثة .

ب ـ **حيلولة** التلفزيون دون قيام الاولاد بواجباتهم المدرسية .

ج ـ **صرف** التلفزيون الناس عن المطالعة والقراءة ، فهو كالسينما خطر على الكتاب ، الاداة الحضارية الممتازة وغيره من وسائل الاعلام وفي طليعتها المجلات والصحف حتى قال عميد جامعة شيكاغو مصوراً هذه الظاهرة : « من غرائب المفارقات ان الناس كانوا عند حدوث امر هام يخرجون الى الشارع للاستعلام اما اليوم فهم يسرعون الى البيوت لسماع الاخبار ومشاهدتها ! » .

ـ ٤ ـ

ولاشك في أن كل شيء نسبي في هذه الحياة ، ومهما ساءت الامور فليست شراً كلها ، ومهما حسنت فليست خيراً كلها ، وان تجد الناس جميعاً يجمعون على أمر فلابد ان يكون هناك مخالفون أو معارضون يسهمون بمواقفهم في تخفيف وطأة الغلو وعنف التيارات القائمة ، واعادة التوازن الذي يساعد على تبين الحقيقة .

يقول المفكرون في الرد على خصوم التلفزيون : ان تأثير التلفزيون يختلف **تبعاً للوسط الاجتماعي** الذي يعيش فيه مالكو هذه الآلة ، ففي الاوساط **المترفة** لايخرج التلفزيون عن كونه **ألهية** جديدة تضاف الى غيرها من الالهيات ، أما في الاسر المتوسطة ، وهي التي تشكل الاكثرية على ظهر البسيطة فان التلفزيون **أكبر تحفة فنية مفيدة قدمها القرن العشرين للطبقات المتوسطة وحتى الفقيرة منها** ، ذلك ان هذه الطبقات الكادحة قد حرمت ، لاسباب مادية او اجتماعية من اختراق الطوق المعاشي الذي تدور فيه، حرمت من ارتياد المسارح ودور السينما والاسفار فجاء التلفزيون يسد هذا النقص ويشبع هذه الحاجة الانطلاقية بأن جلب العالم الى هؤلاء الناس متيحاً لهم لحظات هنية ينسون فيها اتعابهم، وهمومهم، ومللهم ، ورتابة عيشهم فكان من البديهي أن تنعكس اهمية التلفزيون وخطورته على الاهلين والأولاد معاً ، ثم ان ربات الاسر اللواتي يجهدهن العمل المنزلي يجدن **متعة** في التلفزيون ، فهو اداة تحرر وانطلاق

واعلام وتسلية وتثقيف ، تحمل الى البيوت مناظر الدنيا ، وحوادث الكون ، ومباهج الحياة .

اما قول بعضهم : ان التلفزيون قضى على السمر والسهرات الاسروية ، وانه افسد عقول الصغار واجسامهم ، وانه يحول دون القيام بالواجبات المدرسية وذلك ببقاء الاولاد تجاه الشاشة الصغيرة المحدبــة، ساعات يفوق عددها تلك التي يقضونها في المدرسة ، فان حصر هذا الادعاء بالأولاد مبالغ فيه الى حد ما ، فقد ثبت ان تأثير التلفزيون تعدى الاولاد الى المراهقين والشباب والكهول ، ودلت الاحصاءات الاميركية والاوروبية ان اكثر من نصف السكان قد عدلوا منذ اقتنائهم جهازاً تلفزيونياً من نمط حياتهم فاكثر من ٦٥ ./. صاروا يقضون وقتاً اطول في بيوتهم واكثر من ٦٠ ./. يستقبلون عدداً اقل من الاصدقاء حتى ان تنظيم البيوت وهندستها طرأ عليها تعديل كيلا يفوت اهل المشاهد شيء من الدار ، فكان في جملة هذه التعديلات استعمال مقاعد ذوات رفوف لتناول الطعام في القاعة !

ومهما يكن من شيء فان الداء والدواء **مصدرهما الاهلون انفسهم** ، فكما انهم حريصون على وضع الكتب الجيدة النافعة بين ايدي اولادهم فعليهم ان يتدخلوا عن طريق القوة او الاقناع للقيام بعملية اصطفائية هدفها عدم السماح بما لايناسب اولادهم كما يفعلون تجاه باقي المحظورات والمحرمات ، وان يجبروهم على النوم في ساعات معينة الى غير ذلك من التدابير المستمدة من السلطة الأبوية الواعية ، وعلى كل حال فان لدى الاولاد عدة وسائل لاضاعة الوقت والاخفاق في الفحوص المدرسية دون ان يكون للتلفزيون دخل في ذلك .

وقد ثبت ان الاولاد يفضلون مشاهدة الافلام السينمائية على غيرها من المواد التلفزيونية،لأن **التلفزيون في نظرهم هو السينما في المنزل**، ولوحظ أنهم كلما كبروا ونضجت مداركهم ضعف تعلقهم بالسينما فانصرفوا الى الاخبار ، والافلام الوثائقية ، والمشاهد الرياضية والمسرحية ، والحوادث الادبية والسياسية ... والمذيعات الجميلات ايضاً !

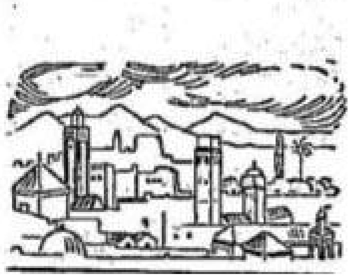
اما قضية القراءة التي كثر حولها الجدل ، والتي هي محور الحملة التي يقوم بهــا خصوم التلفزيون فان المعروف عن المفكرين والعقلاء في عصرنا انهم يخشون مزاحمة المذياع والسينما للكتاب ، وقد ايقنوا ان هذين الاختراعين — وهذا ينطبق على التلفزيون بصورة ادق لجمعــه بين السينما والمذياع — يصرفان الناس عن المطالعة والجهد ، وانهما يرسخــان فيهم عادات جديدة مشؤومة تحصر الفعاليــة الفكرية في المسموع والمرئي بدلاً من الكلام، والجمل ذوات الترابط المنطقي، والتسلسل المعقول الصادر عن القوى المفكرة العليا ، لأن الصورة ذات مفعول اجمالي تعطي مضمونها دفعة واحدة ، فهي تصدم الناظر بخطوطها الكبرى غير متيحة له وقتاً للتفكير والامعان

والتدبر في حين ان الفكر بطيء ، يسير في خط متابع يقتضي الروية والتفهم للوصول الى هدفه النهائي . فهل يحول التلفزيون دون القراءة وهل يشكل خطراً على الكتاب ؟

ان المثقفين والذين اعتادوا المطالعة **سيظلون يقرأون**، اما الذين لم تخلق عندهم عادة القراءة فقد كان التلفزيون **عاملا من عوامل تحبيب القراءة** اليهم بما يفتح لهم من **مجالات** التطلع والفضول واكتشاف احوال الناس والكون . وقد ثبت ان آثاراً ادبية وفكرية وفنية وجدت لها ولاصحابها في التلفزيون خير وسيلة **للدعاوة والاعلان والسيرورة**، وقد نذهب الى ابعد من هذا فنقول : ان كل اختراع او اكتشاف يظهر وينتشر في زمن من الازمان انما يؤدي حاجة ، ويشبع رغبة ، وقد وافق ظهور التلفزيون اشتداد غزو العقل الانساني في القرن العشرين للطبيعة فكثرت من جراء ذلك الغنائم والمستحدثات والاكتشافات والثروات فكان التلفزيون عاملا من عوامل عديدة تعمل على تحويل هذه الايجادات والمنجزات من مادة معزوة الى مادة تأمل وتبصر ودرس واهتمام بالواقع مما ينتج علاقات جديدة بين البشر ورقياً واتساعاً في نظرة الانسان للكون . واذا قدر للتلفزيون ان يرتقي صعداً نحو التكامل والشمول ، فسيأتي يوم يضغط فيه اولادنا الازرار ليروا مشهداً او منظراً يجري في أي ناحية من انحاء العالم ، وسيأتي يوم آخر لن تفرض فيه المشاهد على المتفرج بل يكون له ملء الحرية في اختيار مايشاء، وانتقاء ما يسمع عندما يستحيل عليه الذهاب الى الامكنة التي تحدث فيها هذه الوقائع .

والخلاصة فليس الذنب ذنب التلفزيون ، بل الطريقة التي يستعمل بها الناس هذه الاداة ، وشأنه شأن بقية الاختراعات الحديثة التي تصبح مفيدة او ضارة تبعاً للغاية التي ينزع اليها الانسان.

لقد ابدع الانسان اشياء كثيرة منذ مطلع هـــذا القرن ، وقد علمته التجارب ان ليست الصعوبة في ايجاد الاختراع او الاكتشاف بل في كيفية استعمال المكتشف او المخترع على وجه كامل مفيد للنوع الانساني. اننا نعيش في عصر انتقال دائم ، ولا بد من دفع **ضريبة هذا الامتياز**، وهذا هو سر الانحراف في تطبيق المستحدثات في عصرنا الهائل الزاخر بالاعاجيب والمعجزات .



جان فيلار والعمل المسرحي

بقلم نجاة قصاب حسن

مقال يجب أن يقرأه كل ممثل ومخرج

كتب جان فيلار هذه الملاحظات التي نورد بعضها ونعلق عليها ، في شكل تأملات متفرقة ابتداء من عام ١٩٤٥ وحتى ١٩٥٥ ، حيث نشرتها سلسلة (لارش) الفرنسية في كتاب صغير . وجان فيلار واحد من كبار العاملين في ميدان المسرح الفرنسي الذين يخططون لمستقبل هذا المسرح المتقدم ، وتأملاته بعيدة عن أن تكون نظرية وحسب لأنها ولدت خلال العمل وعلى ضوء مصاعبه وعثراته .

وقد قدم جان فيلار نفسه لهذه الملاحظات بقوله انها لاتمس سوى نوع من تكنيك الفن المسرحي هو نقل الرواية المكتوبة من نطاق القراءة والخيال الى النطاق المحسوس على منصة المسرح . واضاف « من العبث أن تبحثوا في هذه السطور التي قصدت ان تكون مقتضبة

جافة عن شيء آخر سوى طرق العمل والتنفيـــذ . لقد كثر في الآونة الأخيرة وضع النظريات حول الفن المسرحي ، ولذا رأيت أن أقف في هذه الملاحظات ضمن نطاق الصنعة والحرفة » .

ونحن ، في سورية العربية ، بدأنا مع تفتح العمل المسرحي نحس الحاجة إلى الابحاث التي تنقل الينا ، في شكل قواعد ، تجارب الآخرين المتقدمين علينـا . وليس يخفى ان سورية لم تملك بعد معهداً للمسرح ، ولم يعد الى أرضها الموفدون الذين ارسلوا للدراسة المسرحية في البلاد الأخرى . ومع هذا النقص الواضح في عدد الذين ألموا بالدراسات المسرحية ، نجد النهضة المسرحية قوية وشاملة لمئات من العاملين في فرق وزارة الثقافة وفي المسرح العسكري وفي التلفزيون والاذاعة وفي الفرق الاهلية مما يوجب البحث عن وسيلة تضـــع في ايدي هؤلاء الرواد خلاصة العلم النظري في ميدان المسرح .

وقد بدا لي ان أفيد من مطالعاتي في هذا الميدان لأنقل الى العربية ما أجده أقرب الى الفائدة المباشرة ، مع التعليق عليه بما أراه على ضوء تجربتي كمشرف على العمل المسرحي في فرق وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ورفيق لمن يعملون في هذه الفرق . كما انني انتهزها فرصة لأتوجه الى كل الاخوة الذين تشغفهم المطالعات المسرحية ان ينقلوا الى العربية كل ما يرونه مفيداً لأخوانهم العاملين في المسرح ، وينشروه بأية وسيلة من وسائل النشر .

ولأترك الكلام الآن لجان فيلار .

القراءات « الجالسة »

مهما اكثر الممثل من قراءة نص المسرحية قبل ان ينتقل الى اداء الدور، فانه لايقرؤه في اعتقادي قراءة كافية . ويحدث ان يحسب الممثل انه فهم المسرحية

لأنه استطاع ان يفهم عقدتها ، ولكن هذا خطأ صميمي . ان على الممثل ان يفهم المسرحية كما ينبغي لابن صنعة ان يفعل ، لاأن يكون مجرد بيدق يتحرك على رقعة شطرنج يديره اللاعب الذي هو المخرج ، وهو مايحدث في اغلب الأحيان

كيف يجري اخراج الروايات في العادة ؟ على الطريقة التالية : يقرأ المخرج النص مرة ، ثم يقرأه الجميع مرة ثانية ، ثم يلقي بالجميع على منصة المسرح. وينتج عن ذلك ان الممثل يجد نفسه ملزماً قبل الأوان بضرورات الحركة والمشهد، ولذلك فهو يستسلم الى حركاته وردود فعله المألوفة المعتادة ، ويخلق بشكل مصطنع كيفي شخصية لا يصوغها حسه وادراكه كممثل بارع ، وبذلك يقع في تقليد نفسه .

نعم ، حتى أكثر الممثلين حساسية يقع في هذا ، بل الكاتب نفسه يقع فيه أثناء الكتابة اذا هو استعجل او طلبت منه العجلة . وما أكثر الممثلين ـ حتى خيرتهم ـ الذي لا يفتأون منذ عشرين عاماً يهمسون بالصوت نفسه ويستخدمون الحركات نفسها والمواقف ذاتها ويضربون على نفس الوتر الحساس ، في شخصيات متباعدة شديدة الاختلاف .

ومن هنا تأتي ضرورة القراءات المشتركة الكثيرة ، القراءات التي تتم في وضع الجلوس ونسميها مجازاً « الجالسة » ، والتي يجب أن تشغل ثلث العدد الاجمالي للتمرينات التي تجريها الفرقة على المسرحية . ومتى كان الممثل جالساً على كرسيه في وضع مريح ، والنص في يده ، بدأت حساسيته العميقة تأخذ بالتدريج النبرة المطلوبة ، حتى يفهم أو يحس في النهاية الشخصية التي سوف يكونها بعد قليل .

لا توجد شخصية إلا وهي تكوين وتركيب ، ولا يوجد ممثل جيد إلا وهو تكوين وتركيب . وليس هناك دور لايكون تركيباً وخلقاً . وتكوين

الشخصية هو عملية الخلق التي تستطيع وحدها أن تنقل الممثل من محترف عادي إلى فنان ، ذلك أن هذا التكوين يفرض على الممثل الانتقاء، والملاحظه ، والبحث والالهام ، والرقابة .

الانتقاء

يجري الممثل الانتقاء في ذاته وفيما حوله .

فيما حوله ، لأن الطبيعة التي تحت بصره تقدم لانتباهه وتأمله أنماطاً من الشخصيات كثيرة الاختلاف ، شديدة التميز .

وفي ذاته ، لأن الممثل اذا لم يلاحظ الحياة التي تصطخب حوله ، لا يجعل حسه في تماس مع هذه الحياة .

وبالاختصار ، على الممثل ان يحتفظ في ذاكرته البصرية بالانماط من الناس التي لفتت انتباهه ، كما يحتفظ في ذاكرته العصبية (أو الحسية) ما يصيب المرء من جراح وآلام معنوية . وعلى الممثل أن يستخدم هذه الذاكرة وأن يغذيها وينميها.

وضع الشخصية في مكانها

هنا ، من الضروري أن يتم التبسيط ، واختيار الجوهر . وعلى المخرج خلافا لما جرت عليه العادة ـ أن يهمل مساحة المنصة واتساعها وأن ينسى أنه امام مسرح واسع ، ليكون تحريكه الشخصية مبسطاً موحياً .

ولكي يحتفظ التنفيذ المسرحي بالقدرة الكاملة على الايحاء ، ليس من الضروري أن يتضمن مشهد الحركة الصاخبة حركة صاخبة (كالقفز وتبادل اللكمات والشجار والركض على نحو ما يجري في الواقع) ولكن تكفي حركة أو حركتان بالاضافة الى النص ، لترمزا إلى هذه الحركة . إنما يجب ان يكون النص والحركة صادقين

الممثل والنص

ان الممثل الصالح ، ابن الصنعة ، مفروض فيه ان يهضم الحركة والتعبير في حد ادنى من الوقت لا يزيد على خمسة عشر تمريناً من اصل اربعين أو خمسين

والممثل الجدير باسم ممثل كبير ، لا يفرض نفسه على النص ، ولكن يخدمه ، يخدمه بعبودية . وبالتـــالي فمن الطبيعي أن يكون الفنيون الآخرون في العمل المسرحي ، كالكهربائي ومصمم المناظر والموسيقي ، اكثر عبودية للنص .

ولا تقوم موهبة الممثل — والمخرج أيضاً — على قوة امكانياته وتعددها ، ولكن على تفتيح هذه القوة ، وعلى الاختيار الدقيق للشخصية واهمال ما عداها .

الممثل والشخصية

يدرس الممثلون القادرون النص دراسة عاقلة واعية ويحسون الشخصيات حتى اعمق ابعادها في خلال القراءات الاولى الخمس عشرة أو العشرين ، ثم يبدأ المخرج في رسم حركة المسرحية وينظمها

وعند ذلك يجد نفسه مشتبكا في صراع مع الشخصيات ، تلك الكائنات العملاقة التي تنزلق من يده وتفر . والممثلون كلهم يعرفون هذا ، فالممثل والشخصية اثنان لا واحد ، وتمضي ايام وايام والشخصية تفر من الممثل ببراعة شيطانيـــــة . وأسوأ ما يفعله الممثل في هذه الحالة ان يعمد الى مقاتلة هذا الشبح لاجباره على الخضوع له . اذا شئتم ان تأتي الشخصية طيعة فتتقمص اجسادكم وارواحكم يجب ان تنسوها . وعلى المخرج ، وهو يشهد هذه المطاردة بين الممثل والشخصية ، أن يضع ثقته في الممثل ويجعله يقتنع بأنه قد وجد هذه الشخصية وتمثلها ، وأنه استعادها اذا كانت فرت منه ، وقد تكون المسألة مسألة ايمان وثقة بالنفس فقط .

وبقدار ماتمتنع عن مصارعة الشخصية ، نكون على يقين من ظفرنا بهذا الوحش الهارب ، من نصرنا النهائي عليه.

ماهو الشيء الاساسي ؟

في العمل المسرحي ، يتوجب على المخرج ان يكتب تحليلاً للمسرحية ،وألا يهمل هذا العمل الذي يبقى عادة خفياً غير ظاهر . ان كتابة هذا التحليل تفرض على المخرج ان يعرف المسرحية التي يعمل فيها معرفة واضحة شديدة الدقة .

والسؤال الذي يطرحه الانسان في هذا الصدد : هل يمكن لأي كان أن يترجم شيئاً لم يفهمه ؟

ومع هذا ، ما اكثر المؤلفين — لا المخرجين فقط — الذين يعجزون عن أن يقدموا لنا تحليلا دقيقاً للمسرحية التي يكتبونها ، او تحليلا لعقدتها .

وعلى المخرج في التمرينات الاخيرة ان ينفصل عن مسرحيته ، أي أن يفعل ذلك في الوقت الذي يحسب فيه ان الواجب يتطلب منه ، على العكس ، اندماجاً كليا بها . ومن يعتقد العكس فهو ليس سوى محترف فقير . انه يبلغ من التعب حداً يجعله لا يرى الاشياء بوضوح ، ويبدأ بارتكاب افدح الاخطاء . ومن ينسى ذلك ينسى ان المسرح لعبة فيها للوحي ولفرح الاطفال ونشوتهم مكان اكبر مما لعرق الجهد وتكشيرات الغضب .

على ان الانفصال عن المسرحيـــة شيء صعب ، وقليل من المخرجين من ينجحون في بلوغه .

وكما يحتاج الممثل الى الحساسية والغريزة ، يحتاج في ممارسة فنه ممارسة صادقة الى قدرة اخرى ضرورية ، هي الروح النفاذة الناعمة الذكية ، فبدونهـــا لاتكون المسرحية الا فوضى جنونية من اشكال التعبير .

. . .

الممثل ليس آلة . هذه بديهية ساذجة ومع هذا اعلنها على رؤوس الاشهاد . الممثل ليس بيدقاً ولا رجلاً من حديد واسلاك . وعلى المخرج منذ البداية ان يفترض فيه كل الموهبة التي يريد أن يحصل عليها منه .

استراحة

عطالة الفنان عمل ، وعمله راحة ــ بالزا

. . .

يخطىء المخرج احياناً فينسى أن الشخصية لا يجدها الممثل في اكثر الأحيان إلا عشية الافتتاح .

. . .

ليس هناك تكنيك للتمثيل ، ولكن هناك تجارب ، وانواع من التكنيك كل شيء يدخل في نطاق التجربة الشخصية . كل شيء هو تجريبية شخصية .

. . .

يرى المخرج المسرحي في كل ممثل حالة جديده ، وهذا يفرض عليه أن يعرف جيداً كل واحد من ممثليه ، أن يعرفه في مهنته ، وفي شخصه حتى العتبة التي تبدأ وراءها حياته الخاصة .

بل ، ربما كان عليه أن يجتاز هذه العتبة بالذات !..

المخرج والممثل

فن المخرج حيال الممثل هو فن الايحاء . إنه لا يفرض الرأي ولكن يوحي به ، وعليه خاصة ألا يكون فظاً قاسياً ، فروح الممثل ليست مجرد كلمة خالية من المعنى . بل اكثر من هذا ، إن روح الممثل أقوى وجوداً من روح الشاعر. وروح الممثل هي الشيء الذي يحتاج إليه العمل حتى اكثر من حساسيته ، ولتذكروا أنه لا يمكن أن تملكوا روح إنسان إذا طلبتموها منه بالعنف عليه .

التفتيح

اورد لكم ما قاله ثلاثة :

شكسبير في هملت : « ردد هذا الخطاب كما قلته امامك ، بنبرة سهلة طبيعية. ولو انك ضخمت صوتك وصرخت ، لفضلت ان اسمع اشعاري من فم واحد من المنادين في المدينة .

« ولكن حاذر البرود أيضاً ، واجعل ذكاءك دليلك » الى آخر المقطع الشهير .

موليير فيما ارتجله في فرساي .

وتالما ليكان حين كتبته « كان (ليكان) مصفحاً ضد حب التصفيق الذي يجذب غالبية الممثلين ويؤدي بهم الى الضياع في اكثر الاحيان . بل كان لا يريد أن يروق إلا في عين الفئة المعافاة من الجمهور، ولذا فقد طرح جانباً كل خزعبلات المهنة.

ولكي يكون له تأثير حقيقي لم يكن يعني ابداً باحداث هذا التأثير ... وقد عرف كيف يقتصد في حركاته . وكان يرى في هذا الاقتصاد في الحركة والبعد عن محاولة التـــأثير ، الشيء الاساسي لأنه يرى أن كثرة الحركة تـــنزع من التصرف نبله ...

. . .

يجب أن نقصر المسرح على تعبيره الأبسط والأشد صعوبة في نفس الوقت،

وهو التمثيل المسرحي الذي هو عمل الممثلين . وبالتـــالي فيجب الا تحول منصة المسرح الى ساحة تلتقي فيهـــا كل الفنون الكبرى والصغرى (الرسم والعمارة والكهرباء والموسيقا والآليات وغيرها) .

يجب أن نعيد مصمم المناظر الى دوره وهو آن يؤمن الوضوح في النظر والأماكن التي توضع فيها العناصر المسرحية من أثاث ولوازم في الحدود التي لاغنى عنها لتمثيل الممثلين .

وفي المصابيح العاكسة والألوان، يجب ان نتجنب الاكثار منها ،فالمبالغة فيها تصلح للموزيك هول وللسرك اكثر مما تصلح للمسرح .

أما الموسيقا فيعطى لها دور وحيد هو الافتتاح ، والوصل بين لوحتين ، ولا تستخدم الا في الاماكن التي يشير منها النص الى تدخـــل موسيقا قريبة أو بعيدة ، أو سماع اغنية أو نوع آخر من أنواع الموسيقا .

وباختصار ، تستبعد كل وسائل التعبير الغريبة عن قوانين المسرح الخالصة الصارمة ، ويقتصر في العمل المسرحي على تعبير الممثل بجسده وروحه

تعليقـــات

انتهى كلام فيلار الذي اخترته، وأجد من الواجب ان اظهر بعض ماوجدته حاسماً للخلافات ظهرت هنا في سورية ، في العمل المسرحي .

فالمسالة الاولى مسألة هضم النص . ان فيلار يجد ان اربعين تمرينا الى خمسين هي العدد الضروري اللازم لاخراج مسرحية حين يتعلق الامر بمحترفين ، بممثلين « جديرين بهذا الاسم » كما يقول ، بممثلين فنانين ابناء صنعة . ومن الطبيعي ان يرتفع عدد التمرينات الى اكثر من هذا اذا كان الممثلون اقل دربة وقوة . وهذا الرأي من فيلار الذي ينسجم والفكرة الرفيعة عن العمل المسرحي يرد على

اولائك الذين يستعجلون العمل الفني ليخرجوه قبل النضج وبغاية واحدة هي تسجيل عدد اكبر من المسرحيات ولو غير ناضجة . ان العمل المسرحي فضاح ولا يحتمل الزيف ، وكل تهاون في التمهيد له لا ينتج إلا فشلاً امام الجمهور وزوالاً لهيبة العمل في نظره هيهات أن تسترد .

والمسالة الثانية تتعلق بالذين يكررون أنفسهم ويحولون شخصية الدور على شخصيتهم بدل ان شخصيتهم تتلاءم مع الدور . وفي بلدنا عدد من الممثلين المشهورين اذا أعطيتهم أي دور من أقصى الاضحاك إلى أقصى درجات المأساة جعلوه يلبس سحنتهم المألوفة لدى الجمهور ، وهناك ممثلون آخرون ، هم الممثلون الحقيقيون ، يستطيعون ان ينفذوا هم الى الدور ويخدموا النص بالعبودية التي طلبهـــا فيلار ، وبذلك يصبحون أسياد فنهم المسرحي . ولا شك في ان واجب الممثل الحق ان يظل في سعيه وراء هذه الشخصية التي يريد ان يتعمقها بالفهم ومراقبة المحيط واختيار النموذج الأقرب لهذه الشخصية ثم محاولة خلقها خلقاً جديداً فيه كل الانفصال الداخلي الصادق . كما لا ينسى هذا الممثل الحق ومعه المخرج نصيحة فيلار التي هي الابتعاد عن الركض العصبي وراء الشخصية واستبداله بالفهم العميق لهـــا حتى تطيع بلا معركة .

والمسالة الثالثة هي رقابة المحيط . فالكاتب المسرحي لا يستطيع ان يخلق الشخصيات إلا من خلال رقابته لما حوله ، وهو حين يختار شخصية من المحيط لا يفترض فيه أن يبقيها كما هي ولكنه يطورها ويضيف اليها ويحذف منها حتى تستوي له شخصيه معينة ، وكذلك الممثل فعليه أن يسعى لتخزين الصور عن الانماط البشرية التي تحيط به حتى يستطيع أن يجري على هذه الشخصيات ما يتطلبه الدور من تعديلات حتى يأتي العمل صادقاً .

والمسالة الرابعة البعد عن المبالغة في الصوت والحركة والاكتفاء بالأقل من الانفعال الظاهري لاثارة الانفعال الحقيقي ، وكل من يتتبعون الحركة التمثيلية في بلادنا يدركون أن المدرسة القديمة القائمة على اللهجة المصطنعة والعواطف المضخمة المجسمة صارت مضحكة في العمل المسرحي وحلت محلها مدرسة الانفعال البسيط الصادق المقنع عملاً بالقاعدة التي تقول بأنه لا شيء يدخل القلب إلا الذي يخرج من القلب .

والمسألة الخامسة وتتصل بالثقة التي يجب أن تسود بين المخرجين والممثلين وهي متى توفرت صنعت المعجزات ، ومتى ضاعت فشل العمل المسرحي فشلاً ذريعاً . وكل محاولة لفرض ممثل على مخرج تفشل كما تفشل المحاولات لفرض مخرج على ممثلين لا يؤمنون به .

والمسالة السادسة وتتعلق بالبساطة في المناظر والاثاث والاقلال منها إلى أبسط حد والبعد بها عن التعقيد بعداً كاملاً ، حتى لا يفقد العمل المسرحي قوته الكبرى ، وهي الاعتماد على خيال المتفرج ، وقد بدأ الاتجاه في بلادنا نحو المناظر المبسطة ولا ريب في أن له المستقبل .

• • •

كم نستفيد من فيلار وملاحظاته ومن كل سابق في الفن المسرحي ؟ بقدر ما نحترم هذا الفن الخلاق ، وما ننذر أنفسنا له بساطة ومحبة . إن روح الفنان ـ كما يقول فيلار ـ تظل المفتاح الحقيقي للعمل ، ومن روح الفنان أن يرى نفسه بصورة مستمرة في موقف التلميذ المتعلم ، ومتى شعر أنه اكتفى ، انتهى ...

الشرارة الاولى

مجموعة قصص لمراد السباعي

* * *

مختارات من شعر لوركا

ترجمة عدنان بغجاتي

* * *

روضة الورد

تأليف سعدي الشيرازي

ترجمة محمد الفراتي


مجلة
المعرفة
مع
التيارات الفكرية
العربية والعالمية

كتاب الشهر

جنون الشعري

تأليف الدكتور جان فروشيه

عرض وتقديم

الدكتور سامي الدروبي

ان القاء أضواء مستمدة من علم النفس على حياة الشعراء وعلى آثارهم أمر حديث ابتدأ بابتداء الوثبة التي حققها علم النفس على يد التحليل النفسي . وأصحاب نظرية التحليل النفسي هم الذين ارتادوا هذا الميدان أول المرتادين ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يحتكروه ، فسرعان ماظهرت دراسات تستلهم نظريات سيكولوجية اخرى غير نظرية التحليل النفسي. **والكتاب الذي نقدمه اليوم يضم اضواء نفسية يسلطها مؤلفه على عدد من الشعراء والأدباء الفرنسيين هم : مالارميه ، ورامبو ، وبروست ،** أضواء مستمدة من علم الامراض النفسية بعامة ، لاتتقيد بنظرية التحليل النفسي التي جاء بها فرويد ، وان كانت تنتفع بها. وهو من أقوى وأعمق الدراسات التي ظهرت الى الآن في هذا الميدان. والنقد الادبي العربي يجهل هذا النوع من البحث ، اذا نحن استثنينا الدراسة الموجزة التي كتبها العقاد عن الحسن بن هانيء ، أبي نواس ، واذا كنا نقدم الان عرضاً لجزء من هذا الكتاب ، هو الجزء الذي وقفه صاحبه على دراسة الشاعر مالارميه ، فلأنه نموذج لهذا اللون من ألوان الدرس الادبي النفسي يفتح للنقد الادبي آفاقا جديدة خصبة كل الخصوبة .

●

يميز الدكتور فروتيه في مالارميه وجهين من وجوه الحالة المرضية لديه ، وجه التربة المرضية الدائمة ، ووجه المرض العارض . اما التربة المرضية فهي « شبه الفصام » واما المرض العارض فهو نوبات الماليخوليا .

١ - شبه الفصام ان مالارميه سليل اسرة تضم رجالا من الموظفين . وحياة الوظائف هي الحياة التي تناسب المصابين باضطرابات معينة . انها تناسب المصاب بالخور النفسي (البسيكاستينا) (وهو انسان موسوس يخاف من ارتكاب الشر) وتناسب شبه الفصامي الذي يرفض النضال من اجل الحياة . الاول ينشد في الوظيفة دليلا يرشده ، والثاني ينشد فيها ملجأ يعتصم به . فليس صدفة أن أجداد مالارميه كانوا سلسلة من الموظفين . لقد دفعتهم الى ذلك طبيعتهم التي اورثوها مالارميه . ومالارميه هو الولد الوحيد لابوين مصابين باضطرابات عصبية . كانت مالارميه في السابعة عشرة من عمره حين ضعفت ملكات ابيه ، فأصبح وهو في الثالثة والخمسين يتعثر في كلماته وأقواله وتفكيره ، ينسى ابسط العادات وينسى حتى الاسماء المألوفة ، وينسى الارقام ، وما هي الا اربع سنين حتى مات أبله مخرفا . واما أم مالارميه فقد كانت تتصف بشذوذ في الخيال عرفتها بها يمتها كلها ، وكانت امها ترثي لحالها . وتشفق عليها من « هذا الخيال الملتهب الذي يهدم صحتها تهديماً . »

وانظر الى الصبي الصغير مالارميه الذي تيتم في الخامسة من عمره ان جدته قلقة عليه أشد القلق . انه غريب منذ هذه السن . فاذا تأملته رأيت فيه شبه الفصامي فهو من الناحية النفسية ، مرهف ، باسم ، صامت ، متأمل ، متردد ، سريع التأذي ، كثير التصنع ، رقيق الحاشية ، شديد الاحتفاء ، وهو

من الناحية الجسمية : نحيل ، طولاني ، قليل العضلات ، قليل الحركات ، ضعيف مظاهر الصحة دائماً (روماتزم ، يرقان ، سوء هضم ، تأثر شديد بالبرد ، آلام عصبية ، أرق) .

وكان مالارميه شديد الزهو بنفسه ، وذلك من صفات شبه الفصامي في السنة العاشرة من عمره زعم ، في مدرسة أوتوى الداخلية ، أنه كونت بولا نفلييه ، وفي السابعة عشرة قال انه يقبل ان يصبح اسقفاً ، وابتسامة مالارميه تعبير عن زهوه بنفسه ، وافتتانه بذاته . « ليس هناك الا الجمال ، وليس للجمال الا تعبير واحد : الشعر . كل ماعدا ذلك كذب ... الا عند الذين يعيشون من الجسم ، فهؤلاء لهم الحب . اما أنا فالشعر يقوم عندي مقام الحب ، لان الشعر مفتون بنفسه » . نعم ان مالارميه مفتون بنفسه ، وهذه هي النرجسية . حيثما يوجه مالارميه نظره ، يكتشف صورته . انه يتطلع الى ذاته في المرآة دائما . كان مالارميه يحب المرآة أشد الحب .

وعالم مالارميه ليل . ان شبه الفصامي يحيل حالة اليقظة الى سهرة لاتنتهي يحييها خياله . وليله ليل الوحدة ... والضوء في الليل ضوء شموع والوحدة ، كما في الحلم الذي يتحرك فيه كل شيء تحيل التأمل الى حوار . ان شبه الفصامي يتحاور مع أثاث غرفته . رقاص الساعة يقول له: نعم... والقلاية تقول له: لا ... والمريض يقول: شت...

كتب مالارميه الى فرلين يقول . « انني لااتجول الا قليلا ، وأوثر أن اقيم مع قطع الاثاث القليلة ، العزيزة ... والورقة بيضاء في أغلب الاحيان »

كان لمالارميه ولع بقطع الاثاث القديمة وبصور عتيقة يعلقها بالجدران . أنه رغم حرصه على أن لايضيع لحظة من وقته في غير مهنته كشاعر (فهو يرفض الدعوات ، ويتهرب من اعمال مهنته ، و « يسلق » تصحيح وظائف التلاميذ سلقاً) ، ورغم انه اهمل ان يعيش ، لم يدع يوما لامرأته ان تشتري طنفسة او ان تزين بالرسم خزانة . كان لايضن على هذه الاعمال بأوقات طويلة ينفقها فيها . « هذا الاثاث ... هو أنت » . انه يحبه كما يحب الشعر الذي قام عنده مقام الحب ، مرآة طالما نظر فيها ... ان العالم ينعكس فيها ... من السجادة الى الثريا ... كانت عنايته بهذه الامور تتناول أدق التفاصيل ... هذا طبيعة امرأة ... ان النرجسية مرتبطة بالانوثة .. ألم تقل احدى النساء « نحن جميعا مالارميه » ؟ .

وشبه الفصامي هو من انطوائه على نفسه بحيث لايحفل بمن عداها ، فاذا لم يجذبه اشخاص من جنسه (الجنسية المثلية) ، اكتفى باشواق خيالية حادة ، ومعاشرة أفلاطونية . وذاته في جميع الاحوال هي الموضوع الوحيد الذي ينصب

عليه اعجابه وينصب عليه رغبته الجنسية ، لذلك لم تكن حياة مالارميه العاطفية حافلة صاخبة . في سن العشرين لم تكن نزهاته في غابة فونتينبلو مع صديقته الا « مشاوير » ركش . وبعد ذلك لم يكن توله بزوجته هو الذي شده الى البيت . ان الشعر هو خليلته الوحيدة .. الشعر المفتون بنفسه . ولم يزعج مالارميه نفسه الا من أجل ميري لوران . لم يكن عندئذ في ريعان الشباب . وهل صنع بها شيئاً غير أن نظم لها شعرا ؟ وحتى الشعر الذي نظمه فيها قليل .. والقصيدة تبدأ بها ثم ماتلبث أن تبتعد عنها وتنساها وتغرق في الشعر الصرف . الشعر هو حبيبته . انه « يستمني » مع الشعر .

مرة واحدة أحب مالارميه فيما يبدو . ولكنه لم يحفل ابداً بأن يعرف هل احب ايضاً . هذا هدوء في القلب يرجع الى الانطواء على الذات الذي يتصف به شبه الفصامي . انه لا يفرق بين امتلاك الموضوع وبين رغبته فيه .. انه يحب نفسه.

ان مالارميه جنسان : رجل وامرأة. والمرأة فيه هي التي تحب البيت والاثاث وأصص الازهار والحيوانات ... من بلابل وحمر الاسماك وحمام وعصافير... كل هذه الاشياء الصغيرة يجد فيها نرجس ذاته .

ونرجس يكره العسكرية . الزي العسكري لا يناسبه ، والحياة المشتركة تنفره .

وكان مالارميه متصنعاً ، ولكنه ليس لذلك غرا مخدوعاً . كان مالارميه يعرض مجردأتــه ورموزه الى ان يحير الذين ألفوه . وكان عند ئذ يبتسم . ان هذا الابتسام يرجع الى تأكيد الشيء وانكاره في آن واحد ... السخرية هي التقريب بين جانبين متعارضين لواقع واحد . السخرية راجعة الى الالتباس في النفس شبه الفصامية . انظر الى المصابين بالفصام حين يفكرون في وجود جسمهم ، او فكرهم ، او وجود العالم بأسره... لكأن في ابتساماتهم التي تفلت منهم عندئذ معنى استخفافهم وتفكههم بما يقولون . تلك هي سخرية مالارميه . هذا سر قوله « يوجد ولا يوجد هدف » . هذا هو موسيقى الصمت . يصدق عليه قولهم « جاد يلعب » ، « انه يضحك ضحكا يبلغ غاية الجد » .

والعلامة العيادية الاساسية للاضطراب شبه الفصامي انما هي الانكفاء على الذات ، انما هي عدم الاكتراث ، انما هي فقدان « الوثبة الحيوية »

فهل عاش مالارميه ؟

والواقع ان مالارميه لم يحتفل اي احتفال باحداث عصره . رسائله خالية من اية اشارة الى اي حدث من تلك الاحداث الكبرى . وفي المرة الوحيدة التي يشير فيها الى مآسي العصر يقول : اذا كنا نتألم من هذه الامور ، فلأننا نريد ذلك . انني لا اقبل ان تفرض كل هذه الانقطاعات نفسها على فكرنا الحميم . »

ان شبه الفصامي لا يشعر ابداً بالحاجة الى

أن يميز غيره . وليس معنى هذا انه لا شيء يميزه . ولئن كان في العادة قليل الحساسية فانه ليتفق له ان يضطرب من مشهد لا يميز احداً من الناس ، او ان يحس بانفعال مخالف لانفعال الناس . في عام ١٨٩٣ ، اثناء وليمة فنانين ، بينما كان الحفل يضحك من مشهد الشاعر فرلين سكرانا ، حول مالارميه وجهه ليخفي دمعة .

ولكن انفعاله لا غد له . إن مالارميه عاجز عن الانفعالات السهلة السريعة وعن الحماسات والتحيزات التي تصنع العبقرية في عشرين مجلدا ، التي تصنع المصائر الكبرى . وافراحه وآلامه لا يمكن ان تشارك . انه غريب عنا . وهو يتألم من ذلك بقدر ما يعتز به . في عام ١٨٧٩ ، بعد فقده ابنه ، كتب يقول « ان هوجو سعيد بأنه استطاع ان يتكلم عن موت ابنته ، اما انا فهذا يستحيل علي » . شأنه الطبيعي في مثل هذه الحالة ان يصمت .

ان شبه الفصامي ليس به اية حاجة الى ان يبلغ . ما من تعاطف متواصل بينه وبين يشبهه ما من شيء مشترك . ان تسمية الاشياء باسمائها امر ينفر منه هذا الزهو ، « الايحاء ، هذا كل شيء » . ان مالارميه يقول دون ان يقول انه يرفض الاتصال . « أن توحي بالشيء ايحاء في ظل مقصود ، بكلمات تلميح ، كلمات غير مباشرة قط ، كلمات تساوي الصمت ، فتلك محاولة قريبة من الخلق » .

ان شعر شبه الفصامي لا يحتمل ان يقرأ في جمهور . انه لا يقبل الا التأمل ، الا التلاوة الداخلية ، الا التلفظ بالفكر .

وفي السياسة ، كان عالمه الاوتوبيا .

في عام ١٨٩٣ ، ابان الثورات التي صورها رافشول وفايان ، لا يتكلم مالارميه عن هذه المحاولة في تعاطف الا ليحكم عليها يائساً بانها عقيمة لا جدوى منها . « انا لا اعرف قنبلة غير كتاب » والكتاب الذي يحلم به سيتغنى بالخلق الاول في العالم .

ان شبه الفصامي لا يعنيه أن يقاتل بقدر ما يعنيه أن يهرب . الحياة ليس لها عنده كبير شأن ، المثل الأعلى هو المخدة التي يستريح اليها .

ان الشخص السوي يهتم دائماً بالفرق الأساسي بين الحادثة الشعورية وبين الواقع الخارجي انه يفصل بين ما هو وبين ما يرى . واذا شبه بين الحدين كان لا يزيد على أن يقرب بينهما فهما اذ يرتبطان في عبارته يظلان منفصلين في فكره ولا كذلك شبه الفصامي فهو يخلط بينهما حين حذف مالارميه كلمة « مثل » من القاموس ، فقد سلك سلوك شاعر شبه فصامي . وهو سلوك شبيه بسلوك البدائي الذي لا يميز بين الكلمة والشيء ، وبسلوك أناس متمركزين على ذواتهم ، يتأملون أنفسهم في جميع الاشكال ، وينسبون الى انفسهم جميع القدرات في مملكة رائعة . ومن هنا يتفتح

معنى قول مالارميه عن بيت الشعر انه فعل سحري ان مالارميه يشبه العمل الشعري بالعمل السحري حتى لقد حضر وليمة أقامها أناس ممن يتعاطون البحوث الروحانية ، دعاه اليها أكتاف ميرابو . صحيح أن أستاذ الرمزية - مالارميه - يرى أن بحوثه أعلى مرتبة من بحوثهم . وهو يأخذ عليهم أنهم يشوهون السحر الشعري . ولكن استنكاره الشديد انما ينصب على ادعياء الادب الذين يتعاملون بالالفاظ كتعاملهم بقطع النقد ، دون أن يخزهم ضمير . ان للالفاظ عنده قوة السحر . أن للاحرف عنده قوة السحر . ان لكل حرف من احرف الابجدية قدرة من مرتبة وشكل قادرين على أن يؤثرا في صفات النفس وفي المعادن وفي الكواكب السيارة وفي الرياح ....

وأوغل مالارميه في عالم الاحرف هذا يركبها ويزاوج بينها ويؤلف منها أبياتاً لا يقيه عن ذلك سخر ولا استخفاف .

هكذا يهرب مالارميه الى عالم التجريد ، إن التجربة المعيشة لا تذكر في هذا العالم الا من بعيد ، التباساً وسخراً . هذا التجريد هو ما يميز الرمزية .

ان كل ما يتميز به مالارميه من زهو وانفصال مطلق وتعلق بالرموز تعبيراً عن العلاقة بالكون ، واسلوب غريب في الكتابة ، وآراء خاصة في اللغة ، وبحث عن الجمال فحسب ، وطموح الى تأليف ذلك « الكتاب الوحيد » الذي يريد أن يكتبه ... كل ذلك انما هو صور من التجريدية يتجلى فيها الطلاق بين شبه الفصامي وبين الواقع .

ويمكن ان يقال مثل هذا عن الصفاء المالارمي . ان ما في عبارة مالارميه من جفاف وانضغاط ، ومن عدم تناغم ، ومن تفكك ، انما يرجع كله الى طريقة وجود الشاعر ، الى مزاجه ، الى ايقاعات حياته لا الى تعلم .

ان موقف شبه الفصامي ، المثالي الى حد المستحيل ، مستقل عن البيئة التي عاش فيها . انه يعمل انفصاله في ذاته . انه قطيعة داخلية ، انه فقدان الوثبة الحيوية . ومن ثم كان عقمه ، كان اليونان الاقدمون يطلبون الوحي والالهام ، في كثير من الحكمة ، من خيط الماء المتساقط تحت اشجار معبد دلفي اما شبه الفصامي الذي يغرق في التجريدية فانه يبتعد عن الينابيع الطبيعية . وكلما كان المثل الاعلى لشبه الفصامي اوغل في اللاواقعية ، نضب الالهام . **ان مالارميه اذ يوغل في السعي الى المطلق ، لا يصبح غير مفهوم فحسب ، بل يصمت . الشاعر الذي يملك احساساً بالمشابهات مدهشاً الى هذا الحد ، الساحر الذي يبعد الواقع بكلمة ليفتح باب العجيب ، لا يستطيع عندئذ أن يتخيل شيئاً .**

ان الشاغل الوحيد الذي شغل مالارميـه طوال حياته هو مسألة اللغة ، كان يبحث عن الجمال ، والمطلق ، والابدي ، في اللغـة ، في هندسة اللغة . **وكان يأمل أن يؤلف في هذا كتابا فريدا ، لكنه لم يكتب من الكتاب سطراً . تحدث عن « الكتاب » كثيراً ، ووصف حتى شكل غلافه ، وذكر انه سيكون في عشرين جزءاً . ولكن الكتاب ظل كالارض الموعودة التي لن يدخلها .**

ان مالارميه ليس خصباً الا بمقدار ما استطاع ان يكون خفيفاً ، وان يستمد صوره من اطار حياتـه المألوف . اما فيما عدا ذلك فلا شيء الا العدم .

٢ ـ نوبات الماليخوليا : ان اضطراب شبه الفصامي اضطراب دائم ، واليه يجب ان نعزو عقم مالارميه عامة ، الا أن هذا العقم كان يتفاوت درجة من حين الى حين . فبماذا نعلل هـذا التفاوت ؟ أقول أن الارتباك يبـدأ حين يريد الشاعر أن يعرض تأملا مجرداً مرهفـاً ، فالفن عندئذ ينعقد ويصبح أقل براعة ، واللغة عندئذ تصبح غريبة غير مفهومة ، حتى اذا عالج موضوعاً مألوفاً عادت اليه السهولة والغزارة ؟ .

ان الدكتور فروتيه يسلم بأن في هذا التعليل شيئاً من صواب . ولكنه يرى ان مالارميـه لايختار هذا الموقف او ذاك على حسب مشيئته لم يكن الشاعر حراً في أن يستسلم تارة لياس « الموت خدراً » وتارة لفرح الشروع السهل في نظم اشعار مناسبات واعطاء دروس باللغة الانجليزية والقيام بجولة لالقاء محاضرات ، وتحرير جريدة ازياء بكاملها ؟ انه لم يكن حراً في أنه هجر الهاماً سهلاً سمحاً الى وساوس فنية معقدة . فهذه الميول انما كان يمليها عليه المرض ، انما كانت تمليها عليه تبدلات نشاطـه الطافح تارة ، المتباطيء تارة اخرى .

ان الدكتور فروتيه يكتشف في حياة مالارميه تناوباً واضحاً جدا بين فترات تباطؤ فكري وحزن ، وفترات عمل سهل كثير . وهذا التناوب هو الاضطراب الذي يطلق عليه اسم السكلوتيمية ، وتتعاقب فيه فترات من الماليخوليا وفترات من المانيا .

لقد عرف مالارميه في حياته ثلاث نوبات من الماليخوليا . ولم تكن هذه النوبات مجرد ضجر ، بل كانت ماليخوليا بالمعنى الطبي لهذه الكلمة ، كانت مرضاً .

اما النوبة الاولى فقد دامت ثلاثة اشهر ، واما الثانية فقد دامت ثمانية اشهر ، واما الثالثة فقد دامت سنتين ونصف سنة .

لم تكن مراهقة مالارميه مراهقة ضجرة . ولئن بكت « روحه اللامارتينية » في ابيات رومانسية من شعر المناسبات فذلك لانه قد فقد عندئذ كائناً عزيزاً عليه ، ورسب في امتحان البكالوريا من شدة انصرافه الى قراءة شنيه وفيني وموسيه وهوجو الذي تأثر شعره به في تلك الفترة حتى لكأنه تقليد له . وظل مالارميه حتى العشرين من عمره يعيش سعادة متصلة ، ويعاني اكتشافات شعرية وتتفتح موهبته سهلة خصبة .

حتى اذا وافى ربيع ١٨٦٢ ، ظهر الداء لاول مرة . كتب يقول في ٥ أيار ١٨٦٢ « انني اخرج الآن من ايام قاتمة عقيمة ... لقد ماستبدد اوهامك حين سترى ذلك الانسان الحزين الكالح الذي يبقى اياما برمتها واضعاً رأسه على رخام المدفأة دون أن يفكر . انه هلت مضحك لايستطيع ان يفهم ضعفه » .

ولم تدم هذه الحالة الا مدة قصيرة ، فما ان انتهى شهر أيار حتى كان مالارميه يستأنف جولاته المرحة الراكضة في غابة فونتينبلو وغيرها ، مع رفيقة فرحه . لقد عاد الى مرحه . وفي حزيران كتب الى صديقه كازاليس يقول : « لعل ايمانويل قد حدثك عن عقم عجيب غرسه الربيع في نفسي . لقد ظللت عاجزا ثلاثة اشهر ، ثم تخلصت أخيراً من ذلك العجز ، واول سوناته نظمتها قد وقفتها على وصف ذلك العجز ، أي على لعنه » .

وعاد الشاعر الى انتاجه الشعري . وفي شهر آب جرب بلاغته وميله الى القتال في « بيانه » الذي صدر في ايلول وفي أثناء ذلك أحب ماري ، وسكر بالعاطفة ، وسعد بصور مشاريعه ، وسافر الى لندن مع ماري دون أن يكون في جيبه قرش واحد ، وعبث ولها ولم يحفل بشيء . ثم انفصل الحبيبان ثم اجتمعا . وكان يحول الفقر بين زواجهما . وفي شهر نيسان ١٨٦٣ سافر الى سنس ، ومات ابوه . ولكنه لم يصب بالسوداوية فانه فعال نشيط يشرع في العمل ، ويعود الى لندن ماراً ببروكسل وانفرس ، ويعمل ، ويكسب رزقه ، ويتابع دراساته . وأخيراً يتزوج (آب ١٨٦٣) ويحصل على شهادة اهلية تعليم اللغة الانجليزية ، ويعين استاذاً مناوباً في ثانوية تورنون ، فيستقر فيها (كانون الاول ١٨٦٣) .

انقضى اذن عهد الشقاء . ان لمالارميه الآن وظيفة وبيتاً . انه لايحلم الآن الا في أن ينجب بنتاً . وولدت له ابنة

(تشرين الثاني ١٨٦٤) . واذا في هذه اللحظة من نعومة البال والسعادة اذا بالعذاب النفسي والقلق والخمول الذي ظهر قبل ذلك في **ربيع ١٨٦٢ يعاوده** فجأة . لقد عادت اليه الماليخوليا على حين غرة فيما هو سعيد بحياته . وأحس انه محطم جسمياً وروحياً . كتب يقول : « أراني أشبه بشيخ هرم . انني اقضي ساعات طويلة انظر في المرايا الى زحف البلاهة الى تطفيء عيني المتهدلة اهدابها ، وتدلي شفتي » .

والمصاب بالماليخوليا لا يحكم على نفسه بانه مريض وبأنه لاسبيل الى شفائه فحسب ، وانما هو يلوم نفسه على آلام ذويه ، ويقول انه هو سببها ، وكل نبأ سار يصبح عنده علة حزن . لذلك ليس نادراً أن نرى نوبة الانهباط تبزغ عند احراز نجاح ، او عند زواج ، او عند ولادة . وتلك هي حالة مالارميه . لقد ولدت جنفييف ، فاذ الابتهاج ينقلب الى تفجع . قال مالارميه : « ان جنفييف التي تأكل امها تنفتح طبعاً كوردة ، اما مسكينتي ماري ، التي تؤكل ، فانها شاحبة متعبة دائماً . ان هذه الولادة كارثة .... ان الصمت ضروري للعمل الشعري . ولكن البيت يزخر بالحركة والاضطراب والصراخ . مازالت جنفييف تكسر رأسي » . عجيب امر هذا الحالم الذي لم يكن يوقظه من حلمه قبل ذلك صخب التلاميذ في الصف .... انه الآن اذا بكت جنفييف اشتكى ، واذا صمت المنزل احتاج الى ضجة ، نعم الى ضجة ... لعل صخب مدينة من المدن أن يخرجه من هذا الخمول « كل شيء اسهم في خلق العدم الذي أنا فيه . كان رأسي ضعيفاً ، فكنت في حاجة الى جميع الاثارات ، اثارة الاصدقاء الذين صوتهم يلهب ، اثارة اللوحات ، الموسيقى . الضجة . الحياة » . وهاهو ذا يأخذ على جنيفييف انها ولدت ، ويأخذ على امرأته كل شيء ... تقرح الثديين . تشقق البطن ... الخ.

« بلغت من قلة الحياة أن رأسي الذي اصبح لايقدر على الانتصاب يتدلى على كتفي او يسقط على صدري » . **ان مالارميه يقضي الآن امام المرآة ساعات في تأمل الشيخ الهرم الذي صار اليه . « على الشاعر ان يظل على هذه الأرض شاعراً فحسب اما انا فصرت جثة » . وينقضي تشرين الثاني وكانون الاول . « بدلا من الجمع الدائب الصبور للبذور والافكار والصور والايقاعات ، لاشيء الا التبعثر . » وينقضي كانون الثاني وشباط .**

« شيخ هرم في الثالثة والعشرين من عمره ، بينما جميع الذين يحبهم يعيشون في النور والازهار شيخ هرم في السن التي تخلق فيها عيون الآثار » .

« بعد يوم كامل من الانتظار والظمأ ، تأتي ساعة يعقوب المقدسة . ساعة الصراع مع المثل الاعلى ، فلا استطيع أن اخط سطرين . وسيكون الامر على هذه الحال غداً ... ان الشاعر الذي ليس الا شاعراً — أي آلة ترن تحت اصابع احساسات شتى — يصبح اخرس حين يعيش

تبقى بيتة لاشيء فيها يهزه ... ثم ترتخي الاوتار، ويأتي الغبار والنسيان ».

أيهجر هيروديا التي كان قد شرع في نظمها اثناء فترة الفرح ؟ هاهو ذا يتهم موضوعه :

« ياليتني اخترت عملاً سهلاً . ولكنني - أنا العقيم المظلم الفكر - قد اخترت موضوعاً مخيفاً » .

انقضت اذن خمسة اشهر في المرض . لاشيء الا سبعة ابيات حدادية حزينة ، تشير الى اليأس والعدم والموت . ويئس مالارميه فعدل عن افتتاحية هيروديا ، وانصب على نظم حوار . ليس الامر اسهل ، أفقد اذن قدرته ؟ هاهو ذا يحاول ليهدىء روعه ، ليطمئن نفسه ، بان ينظم قطعة صغيرة بطول سوناتة . اخفاق . « اعتقد انني من ناحية الاشعار قد انتهيت » .

ان الماليخوليا يختلف طول نوباتها اختلافاً كبيراً . ولكن الوسطي هو ثمانية اشهر . فاذا بدأت في الخريف انتهت غالباً في الربيع . ثمانية اشهر هي من تشرين الثاني الى حزيران وفعلا شفي مالارميه في ختام الاشهر الثمانية .

وكان شفاؤه مفاجئاً مباغتاً حتى لتكاد تستطيع ان تحدد له يوماً بالذات . ففي منتصف حزيران ١٨٦٥ استرد مالارميه فجأة سعادة بيته ورضاه عن نفسه ، وحماسته الشعرية . « شرعت في العمل منذ عشرة ايام . تركت هيروديا لفصول الشتاء القاسية . ان هذا المشروع المتوحد قد اعقمني .. » انتهت الماليخوليا

واسترد مالارميه فرح الحياة ، وطبعه المنفتح واصدقاءه ، واستأنف مشاريعه ، وعمله الخصب ، يا لها من سهولة . ان بالشاعر الان حميا لم يعرف مثلها من قبل ، ولعله لن يعرف مثلها من بعد . وها هو ذا ينظم ، في رشاقة وضحك وانسيابات لذيذة في الايقاعات ، اشهر قصائده ، وانجحها .

هكذا انتهى الخريف . واعاد الشتاء الى هيروديا زينتها في نظره ، فاستأنف مالارميه العمل فيها على ثقة بنفسه ، حتى تلك الليلة من **ليالي آذار التي استطاع أن يقول فيها « انني سعيد » .**

وقضى عطلة عيد الفصح في كان عند كازاليس . ان مالارميه هو الان ثابت القدم . انه يتحدث عن « بعث » ونسي اثناء ذلك انه استاذ لغة انجليزية في تورنون . كان قبلئذ مشمئزاً اشمئزازاً عميقا من مهنته ، وهو الان اثناء فترة الحيا يجهلها ولا يهمه ان يلاحظ انهم يتآمرون على نقله من المدرسة . حسبه الجمال . حسبه الشعر . حسب الشاعر القدرة على الخلق . انه سعيد خصب

« عملت في هذا الصيف اكثر مما عملت خلال حياتي كلها .. انني اعمل في كل شيء في آن واحد ، او قل ان كل شيء قد بلغ في نفسي من حسن النظام والترتيب ، انني الان كلما وصلني احساس تحول فجأة ومضى من تلقاء

نفسه يصطف في كتاب وفي قصيدة.»

واثناء الاشهر الاربعة عشر التي دامتها هذه الحيا الفرحة، كان مالارميه قد نسي المرض نسيانا تاما، **الى ان جاء منتصف شهر آب ١٨٦٦، فاذا بالشاعر يحس فجاة بالانقباض والسوداوية. ها هو ذا، بعد أن كان منذ بضعة ايام نشيطاً كل ذلك النشاط** يبقى متمددا على سريره اياما بكاملها. انه يتساءل في قلق: ايكون هذا المرض غير قابل للشفاء؟ هل يتسع وقته لاكمال هيروودياد؟ ومضى يستشير طبيباً. فقال الطبيب انه لا يعتقد أن صدر المريض مصاب، وانما هو متعب الاعصاب. ونقل مالارميه الموظف اثناء ذلك من تورنون، وكان عليه أن يلتحق بوظيفته الجديدة في بيزانسون. وها هو ذا يكتب الى فرلين يشكو اليه ما به. **لقد بدأ الانهباط في شهر آب، وهو يتفاقم في تشرين الأول، ثم ما ينفك يتفاقم خلال شتاء ١٨٦٦ - ١٨٦٧. كتب يقول في ٣١ كانون الأول** «لقد تألمت كثيراً ... الى حد انني لم اعد اشعر انني أنا . . . ان الماليخوليا الكامنة حاجز لا يمكن التغلب عليه، يحول دون أي انتاج. هجر مالارميه هيروودياد. وعبثاً حاول اصدقاء مالارميه ان يخرجوه من الخمول الذي انحدر اليه. انه لا يرد عليهم، او هو يشتمهم من نفسه. ونصحه احدهم ان يتسلى باعمال خفيفة، لا تقتضيه الا احساسا فنياً لطيفاً، ولا تتطلب ذلك المفهوم الجبار الساحق عن الكون. عبثاً. ما من مواساة تجدي، ما من نصيحة تنفع. ان مالارميه يحس انه مفصول عن العالم بجليد ما ينفك يزداد كثافة وبرودة. انه الآن ساكن متجمد، لا تتحرك فيه الا ابتسامة خفيفة من سخر واذعان. لم يبق له شيء من عفوية، حتى ولا من حب اطلاع. عبثاً يحاول في بعض الاحيان ان يصحح بيتا من هيروودياد. انه يظل ساعات امام ورقة ساهماً ذاهلاً.

وعين في أفينيون. هذا نقل آخر يفاقم حالته **وفي بداية عام ١٨٦٨ اضطر مالارميه الى ترك المدرسة، بسبب احتقان رئوي** ان نقاهته من المرض مترددة. على ان اضطراباته النفسية هي المقلقة في هذه المرحلة. انهم يتحدثون الآن عنه حديثهم عن رجل يعاني حالة قريبة من الجنون. لقد قال هذه الكلمة مالارميه نفسه. واصبحوا يراقبونه خفية. وحسناً فعلوا لقد اعترف هو نفسه فيما بعد أنه فكر في الانتحار وأنه ما صده عن ذلك الا تفكيره في زوجته وفي ابنته. اصبحت فكرة الموت ثابتة عنده، اوقل اصبحت ثابتة فكرة الانتهاء الى نهاية الوجود او نهاية الداء. **كتب يقول في شهر أيار: «انني في حالة أزمة لا يمكن ان تدوم وهذا ما يعزيني. فاما أن تتفاقم واما ان اشفى. اما ان ازول واما ان ابقى،**

والامر ان عندي سيان، وانما المهم ان لا ابقى في حالة القلق الشاذ الذي يخنقني » .

ويبرأ مالارميه مرة اخرى على حين فجأة يزول القلق ، يزول الالم النفسي . وتهتز نفسه من جديد . ان اموراً تافهة تنسيه الآن المطلق والعدم ان كل شيء يثير فضوله . ويعود مالارميه يمسك بقلمه . ان مالارميه ، بعد ان قضى ثلاثين شهراً في خدر وخمول ، يريد الآن ان يعيش من جديد . وذكرى العدم الذي كان يشله هي التي ستكون الآن مصدر وحيه . وشرع في كتابة هيرودياد . « انها قصة اريد بها ان اصرع الشيطان القديم ، شيطان العجز . » وانصب مالارميه على القراءة : شعر ، فلسفة ، طقوس سحر ، كتب لغة ، وها هو ذا يعود الى دراسة اليونانية واللاتينية بل هاهو ذا يعني بمهنته نفسها عناية لم تكن تتوقع منه ، ترى ألا يفيده ان يحصل على القاب جامعية ان فيلسوف العدم يطمع الان في الحصول على الدكتوراه . ثم هاهو ذا يفكر في اصدار وريقة اسبوعية ، وفي القيام ببعض الترجمات ، وفي اعطاء دروس خاصة . وهذا هو يفكر في كتابة مسرحية . وفي الوقت نفسه ينشيء مجلة للفن التزييني ، ويمضي يجمع لها الاشتراكات من كل مكان . ويسافر مالارميه الى لندن ، فيقضي فيها ثلاثة اشهر ، ثم يعود لينظم « الآصال الادبية » ، ثم يسافر مرة اخرى الى لندن ، ويرسل من هناك المقالات تلو المقالات ، يجب ان يكسب رزقه . انه الان يريد المال . ولكن ترى هل تستغرقه هذه الاعمال التافهة الى الابد؟ لا ... هاهو ذا الشاعر يعود الى افقه . وكانت الفترة الممتدة بين ١٨٧٤ و١٨٧٥ حافلة بخصوبة طافحة ... قصائد كثيرة ملأ بها كل مكان . وفي كانون الاول من عام ١٨٧٤ عاد الصحفي الى الظهور ، فأسس مالارميه « آخر مودة » . وكان يحررها كلها بقلمه : الزينة ، اطباق الطعام ، انباء المسرح ... ويوقع المقالات بتواقيع مختلفة . وعاشت المجلة تسعة اشهر .

تلك هي نوبات الماليخوليا الثلاث التي نشأ عنها عجز مالارميه ونشأت عنها تجربته الشعرية للعدم ، فيما يرى الدكتور فروتيه .

لقد حاول بعضهم ان يردوا الشعور بالعدم عنده الى عدد من الاسباب ، فقالوا مثلا انه راجع الى تأثير بودلير فيه ولكن لا . ان اختيار مالارميه لبودلير يرجع الى انه عانى هذه التجربة تجربة العدم . ان العدم في شعر مالارميه صورة لحالة الماليخوليا التي عاناها . انها ثمرة هذا المرض ... صمت ، غياب ، عجز ، عدم ... الخ .

ان فكرة « العدم » نادرة قبل نوبة الماليخوليا الثانية الطويلة التي بدأت في كانون الاول ١٨٦٤ . وهي غائبة تماماً من مؤلفات الشباب السابقة على نوبة الماليخوليا الاولى . وكانت تلك النوبة خفيفة وقصيرة ، ولكنها كانت كافية لان يكتب منها

الشاعر تجربة العدم . وهكذا ترى العدم يظهر في آثاره ابتداء من عام ١٨٦٤ . وبعد بضعة اشهر تأتي النوبة الثانية فاذا بالعدم يسيطر على فكر مالارميه مع سيطرة خدر المالیخوليا .

هكذا كان الطابع الذي يطبع شعر مالارميه ثمرة مزاجه المريض ، المريض بشبه الفصام ، وبنوبات المالیخوليا معا

ويمضي الدكتور فروتيه يستعرض ماقي شعر مالارميه من تعبير عن تجربة العدم التي استمدها من نوبات المالیخوليا . ثم يعرج على اسلوب مالارميه الشعري ، ليبين كيف انه يصف بكل الصفات التي يفرضها هذا المرض المزدوج .



الدفع بعدم المسؤولية بسبب الجنون في جرائم القتل

تعريب : الدكتور معمر خالد الشابندر

عرض وتحليل : الشيخ جلال الحنفي

هـذا كـتاب من الكتب الضخمة تنطوي فصوله على مادة غزيرة في الطب والقانون والقصة..

عربه الدكتور معمر خالد الشابندر وعلق عليه وصدره .. والدكتور معمر اديب وطبيب بغدادي معروف بجولاته الموفقة في غير مجال واحد من مجالات العلم والادب والفلسفة الاجتماعية .. والدكتور الشابنـدر أيضاً من آحاد المتخصصين بالدراسات النفسية فضلا عن تخصصه في تطبيب الامراض العصبية والعقلية .

وكان وجوده كعضو بارز في محكمة الاحداث ببغداد ميسرا له الوقوف على جنايات الاحداث والالمام بدواعي هذا الضرب من الجنايات التي يعتبر استكشافها استكشافاً لجذور المشاكل الاجتماعية الاولى التي كانت المجتمعات تتخبط في عقدها المعقودة ولا تزال .. وللدكـتور في هذا الصدد دراسات لله سيقدم اصولها الى المطبعة في يوم قريب .

والاصل في امر الكـتاب موضوع البحث انه تأليف (جي . دبليو . كيتون) استاذ القانون في جامعة لندن .. وقد نشرته مؤخراً دار الكـتاب اللبناني ببيروت في ٢٧٢ صفحة بالحجم المتوسط ..

اما محتواه فانه يلم على عدة محاكمات جنائية وقعت في بريطانيا خلال فترات من الزمن شتى كان أقدمها محاكمة هادفيلد سنة ١٨٠٠ م ومحاكمة مناوتون سنة ١٨٤٣ م وكان من اواخر هذه المحاكمات قضية كـنتر بودولا سنة ١٩٥٩م..

ومن مطالعة الكتاب المترجم يمكن ان يلاحظ القارىء نماذج من عباقرة المحامين يتجلى لديهم الدهاء الفقهي بالاضافة الى عمق الرأي ودقة الملاحظة والتنبه للنقاط القانونية الدقيقة خلال تلك المرافعات مع تلبسهم بصدق القصد والحرص على الوصول الى الحقائق من اجل هذه الحقائق لا من اجل الانتصار وكسب الدعوى المجردين من الهدف الانساني السليم .

وفي الكتاب ملامح بارعة لطبائع الشعوب حين يكتمل نضجها فتدرك مالها وما عليها ففي الحادث الذي كاد الملك جيمس الثالث ملك الانكليز أن يذهب ضحيته في مقصورته بمسرح دوري لين حيث اطلق عليه « هادفيلد » رصاصة من مسدسه فتخطته .. نجد ان الشعب الذي حضر الاوبرا ليشهد الحفلة لم يترك مقاعده ولم يتعرض للجاني بأذى .. وكل ماجرى ساعتئذ ان الذين كانوا قريبين اليه استخلصوا المسدس من يده بطريقة بسيطة . وبعد ان اقتيد من قبل رجال السلطة الى غرفة خاصة للتحقيق معه كان برنامج الحفلة قد بدىء بتطبيقه اعتيادياً وكان يشاهده الملك والنظارة الآخرون ..

هذا ونحوه من اللفتات الرائعة ، يبدو كثيراً في تضاعيف الكتاب .. وفيه ايضاً تفاصيل علمية جليلة لوقائع الجنون ليست مطروقة بعد على مثل هذا الصعيد .. ومامن شك في أنها ستكون ذات أهمية كبيرة في تسديد خطوات الدول وضمان حقوق الانسانية ان عرض لها الابتلاء بمثل هذه الأعراض الجنونية فاقترفت من دون وعي تام شيئاً من هذه الجرائم ..

ان من الكتب ما يتفرغ القارىء لقراءته فاذا أتمه تركه في مكان ما من مكتبته منصرفاً عنه الى غيره لما يرى من استنفاد الغرض من وضعه وتأليفه .. غير ان هناك كتباً لايلبث بعض قرائها ان يتخذوها مرجعاً يرجعون اليه بين الحين والحين .. واني لأحسب كتابنا هذا واحداً من بين هاتيك المراجع التي تستحق ان تنال هذه الصفة .. وقد لاحظت ان بعض مشاهير المحامين عندنا في بغداد قد نظروا اليه ذات النظرة .. ولابدع ان يكون الكتاب موضع اهتمام فقهاء القانون ورجالات الطب وغيرهم من علماء النفس والباحثين الاجتماعيين فانه لحري بكل ذلك ..

وانا على تقديرنا لما تنشره دور النشر من المصادر والآثار الأدبية والفنية الكثيرة لنرى ان المكتبة العربية الحديثة تفتقر الى أثر في مثل هذا المستوى العلمي العريض ..

ولقد أحسن الدكتور في اتجاهه الى تحقيق هذا المعنى بما صنعه من ترجمة فصول الكتاب الجامعة بين القصة المقصوصة والجدل الجنائي والتوجيهات القانونية الرشيدة التي لاترى التلاعب بالألفاظ والتحايل على النصوص من أثر فيها .. وامتازت الترجمة بما أضافه اليها المترجم من ملاحظات مركزة دلت على تضلعه العلمي وحذقه في اختصاصاته التي عرف بها ..

وان كانت هناك مآخذ على كتاب الدكتور كيتون للمعرب فنها ان افق الكتاب أوسع مدى من ان يلمه او يستوعبه القارىء العادي البسيط..

وقد لاحظت أن مما أشار اليه بعض النقاد في تسمية الكتاب انها جاءت أشبه بسطر كامل .. ولست أشارك هؤلاء نقدهم هذا فان كتاب بحث علمي تغلب عليه المصطلحات الخاصة وكان العنوان اوضح شيء لما وراءه من مقاصد ومعلومات ..

ومما يرد على الكتاب من وجوه النقد انه جاء بلهجة فيها من التساهل ماهو ظاهر كل ←

مرآة وريشة

تأليف : ممدوح مولود .

٣٢٠ – صفحة ، طبع المطبعة الشرقية–حلب .

بقلم : عدنان الداعوق

« ايها الطغاة لن تطفئوا الشمس ، ولن تقضوا على الحرية .. ان الله لم يبعث رسله الا ليحطموا الاصنام ويحرروا العبيد .. »

اذكر جيدا انني قرأت هذه العبارة الرائعة.. على اول صفحة من كتاب « مرآة وريشة » للاديب ممدوح مولود .

.. وممدوح مولود من اولئك الذين يعملون وهدفهم الايمان بما يعملون .. ويجاهدون بصمت وسكون ، ويحاربون من اجل الحق ومن اجل الكلمة ومن اجل الحرف المقدس .

عرفته منذ سنوات كاتباً ، قال الشعر ولم يرغب ان يسمي نفسه شاعرا لانه كتب القصة كذلك .. ولم يرغب ان يسمي نفسه قصاصاً لانه حاول في النقد وفي الدراسة الادبية وفي مختلف المجالات الاخرى .

وفقد ممدوح مولود – مرة بعد مرة ، اسمه الاول الذي يجب ان يقترن به عمله .. ولم نستطع ان نسميه قصاصا لاننا لم نلمح له قصة واحدة كتبها او نشرها بعد مجموعته الوحيدة اليتيمة التي كانت بعنوان « مبادىء من باريس » والتي ظهرت علينا منذ سنوات خلت .

وكذلك لم نستطع ان نسميه شاعراً – ولو ان لون الشعر يغلب على نفسيته الادبية – لانه فرض على نفسه – في الفترة الاخيرة – كتابة

←

الظهور .. والذين يعرفون الدكتور المترجم يعرفون فيه القدرة البيانية الحسنة في الأداء والتعبير ولكنه شاء لترجمته هذا التبسيط ليجيء الكتاب لين المساغ بعيداً عن المعاضلة والتعقيد .. وبذلك كان حريا ان يكون مكانه بين المصادر التي كتبها الشراح القانونيون في المادة التي بحثها ..

غير ان الدكتور الفاضل تسامح في عدد معدودة من الفاظه فلم يخضعها لقواعد الاعراب المقررة .. وكنت اتمنى ان يحرص على ادائها سليمة من شوائب اللحن وهو غير متهم بالنقص في شيء من هذه المعلومات ..

ان كتاب (الدفع بعدم المسؤولية بسبب الجنون في جرائم القتل) جليل وقيم جداً .. ولا أجد مؤلفه ومعربه الا حقيقين بكل اعجاب وتقدير ..

نوع معين من الادب، وهذا النوع هو الدراسة والنقد الادبي المشبع بأسلوبه الشعري والقصصي.

ولابد لي في هذه اللمحة الخاطفة من ان اقول شيئاً واحداً لا يعجبني في الاديب الصديق مولود .

ذلك انني اؤمن بفكرة التخصص .. اي ان يتخصص الاديب بنوع واحد من الانتاج الادبي ويصرف كل اهتمامه وجل قصده لاغناء هذا النوع .. والعمل على توسيع معرفته ومقدرته في مجاله .

فنزار قباني برز كشاعر .. وعرفه الناس شاعراً ، ونازك الملائكة برزت كشاعرة ، وعرفت كشاعرة كذلك .

ومجاهد مجاهد رغم ان له دراسات مختلفة في الادب والفكر الا انه برز وعرف في ميدان الادب كشاعر .

وهناك غير هؤلاء ايضا ممن اتخذ له الصفة الخاصة الادبية به وعمل على تنمية هذه الخاصة حتى غدا يعرف بها .

ولا مانع مطلقاً اذا اخذ الشاعر - بعد ان يكون قد لمع كشاعر - بكتابه القصة وان يسعى جاهدا لكي لا يهمل القصة او الشعر .. ولو امتاز بفن عن الاخر ببعض الحواس

اما ممدوح مولود .. فقد عرفته - اول ما عرفته - منذ سنوات بعيدة ناظماً شاعرا .. كان ينشر قصائده في صحف ومجلات متناثرة .. فتنبأت له - كاتنبأ لجميع الاصدقاء آنذاك - بنجم سوف يبزغ في عالم الشعر .

الا انني فوجئت لما طلع علينا - فجأة - بمجموعة قصص قصيرة بعد فترة صمت قليلة وكانت « مبادىء من باريس » ملامح جديدة وطيبة في عالم القصة .

وتوقعت له - مرة اخرى - بمستقبل مشرق في عالم القصة .. الا انه - وللاسف هجر القصة تماماً ولم يكتب فيها ، وانصرف راجعاً الى الشعر ينظم من وقت لآخر .. ثم دخل ميدانا جديداً في الدراسة الادبية والنقد .

وجل ما اخشاه ان ينصرف ممدوح مولود - بعد فترة - الى كتابة المسرحية او الى فن آخر من فنون الادب والكتابة .

لم اقصد فيا قلت ان يمتنع الكاتب من تناول جميع فنون الكتابة .. ولكنني افضل عليه في بادىء الامر - اذا كان لابد من ان يطرق اكثر من مجال واحد - ان يتبلور على نوع معين من الانتاج الادبي حتى يعرف به .. ومن ثم يتناول الفنون الاخرى المختلفة .

وفي كتاب ممدوح مولود الجديد ، والذي صدر منذ فترة وجيزة « مرآة وريشة » نلمح وراء الصفحات الناصعة في الكتاب ما قلت بادىء الامر نلمح الشاعر المتخفي وراء ثوب الناقد الجديد .. ونلمح شخصية القصاص عندما يتناول في البحث مواضيع القصة او الرواية .

ومما لاشك فيه ان كتاب « مراة وريشه » ون جديد يطلع علينا به الكاتب ويتناول فيه كثر من لون واحد من فنون الادب والكتابة .

فهو يبحث في الشعر والشعراء فيقدم لنا مثلا

ديوان «اللهيب» لمحمد المدناتي و«الطين والاظافر» لمحي الدين فارس ، و«التبعة الباقية» لعلي الزيبق و« ليالي الهرم » لصالح جودت ، وساميا ، وقصائد وانت لي ـ لنزار القباني .

وتحدث كذلك عن اكثر من كاتب قصة .. فقد تحدث عن « فاضل السباعي » وعن مجموعة « الشوق واللقاء » .. وعن كاتب هذه السطور وعن مجموعة « ذات الخال » .. وتحدث عن جماعة اخرى تنظم الشعر وتقول النثر وتبحث عن الحقيقة من وراء الحرف الجميل .

ونلمح في « مرآة وريشة » اكثر من « مرآة » واحدة تعكس صور شخصيات عديدة في ادبنا العربي الحديث ، فنحن نلمح اسم الدكتور عبد القادر القط الى جانب عبد الوهاب ساين ، واسم الدكتور مندور الى جانب محي الدين فارس وعلي الزيبق وفاضل السباعي ومحي الدين محمد

ويمكنني ان اقول بمنتهى الصراحة والبساطة ان ممدوح مولود استطاع ان يرسم صور هذه الشخصيات كلها الى جانب بعضها بريشة ساحرة لالوان تحيل فوق ماتحمل اللون والهدف والغاية التي يقصدها ويحاول ان يصل اليها المؤلف .

ولعلي اميز ـ اكثر ما اميز ، ان خاصية الشعر ماتزال تنبض في اعماق ممدوح مولود .. فانني اراه عندما يتحدث عن الشعر والشعراء يجيد اجادة رائعة ، ويتحدث بعاطفة جياشة وقلب متوقد مشتعل .

ولم يقف الكتاب كمرآة فقط امام الكتاب والشعراء .. بل خصص المؤلف كذلك صفحات عديدة في نقد كثير من عيوب المجتمع والبيت والافكار ايضا .

وحاول ان يزين الكتاب في مجمله بافكاره الخاصة .. ليخرج القارىء عندما يفرغ من مطالعة الكتاب ان المؤلف يريد بعد كل شيء ان يعطي رأيا في كل شيء .. في الحرية مثلا ، في الادب ، في الفن ، في المجتمع ، وفي الشعر .

وجميع هذه الاراء فيها جرأة وفيها حماس وفيها عمق وتبصر وتفهم .

ولا اجحد من هذا الرأي الذي طلع علينا ممدوح مولود عندما تحدث عن صالح جودت ونزار قباني حين قال :

«.. ان جودت يمثل مدرسة « ابولو » أصدق تمثيل .. بينما لايمثل نزار الا مدرسته النزارية . وجودت شاعر لايلجأ الى الرموز والاشياء المادية .. فهو اذا اراد ان يتحدث عن الشعور بعاطفة تملأ نفسه فلا تأبى عنه الأقلية .

اما نزار فانه يستعير النجوم ، ويستعين بالورود ، ويستشهد بالرياحين ، ويتحدث بلسان العطر والطيب .. فتأتي قصيدته آخر الامر وكأنها من صنع ساحر .

وبينما تفرض العبارات الطيعة عند جودت نفسها على القارىء لانها تعبر عن اشواق انسان قريب كل القرب من كل انسان .. تجد قارىء شعر نزار يحتاج الى قدر غير يسير من العلم يعش

مبادىء الفلك واحوال الطقس واصول فيزيولوجيا الجنس ...

وهذا رأي جديد ولا شك ، وقد يتحمس له اكثر من شاعر واكثر من ناقد .. وفيه كذلك من الجرأة ماتبلغ الحد العجيب حتى انه — فيما يقول — يعترف بشاعرية جودت ويضن بها على نزار .

وفي الكتاب آراء اخرى اكثر جرأة واشد نزوحا الى الثورة والانطلاق .. ولايسعني في هذه اللمحة القصيرة للكتاب الا ان اقتطف عبارة زين بهـا الاديب « فاضل ضيا » جبين الكتاب حين قال :

« .. ان الكتاب بكيانه تسوده فكرة جريئة نزاعة الى الحرية المطلقة ، معجبة بالتقدمية والتجديد هائمة بالحقيقة العارية هياما جامحاً ، مقدسة لمفهوم الانسانية الشاملة تقديساً بلا حدود ..



مع القصة العربية

طيور ايلول

رواية لأملي نصر الله

اصدار المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر – بيروت ٢٠٢ صفحة من القطع المتوسط

عرض وتحليل السيدة ام عصام

املي نصر الله كاتبة لبنانية تذوقنا من عطائها الكثير، عطاء غزير يحمل سحر الكلمة وجمال اللفظة وقوة البيان. وفي قصتها «طيور ايلول» تتجلى «املي» الانسانة، الواسعة الاحساس، العميقة في تصويرها لادق الخلجات الانسانية.

«طيور ايلول» قصة الهجر والفراق.. قصة الغيوم الزاحفة نحو سماء الصيف الراحل.. الخريف وتباشير الشتاء.. قصص القرية بكبارها وصغارها، بشيبها وشبانها، قصة الارض بترابها المعطاء.. واخيراً قصة رعشات البراعم المتفتحة للحياة بأحلامها وامانيها الغضة الطرية.

حبل موصول من الطيور المهاجرة تمر فوق سماء القرية في الشهر التاسع من كل عام، لترحل الى السهول الدافئة في الجنوب، وتدب الحركة بين اهل القرية الوادعة، فتشيعها النساء بنظرات الحنين الى البعيد ويودعها الرجال بتنهيدة حرى متحسرة. هذا هو طعم الهجر الذي يخلفه رحيل الطيور من كل عام.. طعم الصمت الحزين الذي يلف القرية بشاله الرهيب.

«منى» فتاة من القرية الصامتة الهادئة، سجلت لنا حوادث قريتها حادثة حادثة.. جعلتنا نعيش مع «ابي الياس» و«أبي راجي».. مع «سلمى» و«حنة».. ومع رفيقاتها «مرسال» و«نجلا» و«مريم»..

عدة اشخاص يمثلون خلجات الحياة على مسرح القرية.. ذرتهم رياح الخريف، فغدا كل منهم في مكان، يعودون مع ذكرى سريعة الى قريتهم العزيزة، مع منظر طائر غريب في المدينة، ينشد الدفء فوق الاشرعة او فوق الرمال، فيحسبونه طيراً من طيور ايلول المهاجرة.

بطلة القصة يدفعها الطموح الى الهجرة كـ اهلها الى مدينة صاخبة، لتتم دراستها وتصبح موظفة في المدينة يدق في عظامها شوق ملح الى حقول قريتها الفسيحة، والى تراب ارضها الملتهب، والى الماء المتفجر من نبع يركن قرب كرمها..

«لاتزال الاشياء كما تركتها هناك.. فالقرية لاتحفل كثيرا بمرور الايام.. ان الزمن يتزلق فوق صخورها الصلدة كما تتزلق شتاي في تعبد صامت فوق الصخرة الرمادية».

صورة حلوة تحملها «منى» لقريتها.. صورة استطاعت الكاتبة ان تبرع فيها اكثر من سواها..

صورة ثانية ابدعت فيها حين نقلت لنا خيطات رتيبة تقوم بها امها التي تروش عجنتها ـ وخروج « أبي الياس » جارهم القريب مع تفتح الربيع وتفتح براعم شجرة « الازدرخت » في حديقة دارها .

ومع تذكرها للربيع ، تتذكر « مرسال » التي كانت تحمل الربيع حيثما فرشت خطاها .. والتي كانت تحمل في قلبها الغض البكر « حب راجي » الاسمر الحلو .. « راجي » الذي تعيش في عينيه حكايات الربيع ونورات أشجار الصفصاف ..

الملاحظ في القصة هو أن من يلعب دور البطولة فيها اثنتان « منى » و « مرسال » .. وكأني بهما انسانة واحدة فصلتهما الكاتبة الى بطلتين فجاءتا في كثير من الاحيان رغم براعة الكاتبة وكأنهما واحدة .. « وإلا لماذا تعنفها أمها قائلة :

« بالأمس حدقت طويلاً في وجه راجي هذا لا يليق بالفتاة المهذبة يا « منى » » ..

كانت « منى » في اكثر من مكان تتمنى رؤية وجه حبيب .. وتتساءل احياناً بسخرية : تراني لا أعرف الحب كما تسأل « مرسال » ... شي ما حاولت اخفاءه « منى » فجاءت شخصيتها مزيجاً منها ومن « مرسال »

وحكاية الجارة العجوز « أنجلينا » التي تتربع فوق خشبة عتيقة على عتبة بابها تكش الذباب في الصيف ، وتعد قطرات الماء في الشتاء ، وتحسب الايام الباقية من عمرها .

« كلا ، « أنجلينا » كانت اكثر من ذلك .. كانت الساعة التي تسجل كر الزمن »

صورة جميلة للكهولة ومراحلها ، وتطور الزمن ..

الثورة في اعماق « منى » بلغت ذروتها حين حزم أخ « منى » حقائبه استعداداً للسفر الى المدرسة الكبيرة في المدينة : « لماذا سمحوا له أن يطير : هكذا ، وبدون سؤال ؟ .. لماذا أبقى أنا ضمن هذه الجدران الضيقة ، أدوس آمالي ، وأمرغ طموحي بقدمي .. »

تعنفها التقاليد وترن في اذنيها كلمة « حنة » الثرثارة دائماً « علموها بتخسروها » ...

جميلة مبدعة في ثورتها لأنها حققت ماتمنته طويلاً في النهاية ...

حب بنت القرية الخجول نقلته لنا بقوة وصدق ... حب تفضحه العيون فقط أما اللسان فتاول بثقله الحياء والخوف حب يختنق في الصدر بكراً صافياً .

« كنت بالامس جريئة ، وقحة ، لقيته على الطريق ، ولم اهرب من عينيه كما كنت أفعل ، لبثت أحدق فيهما أبحث عن جواب لتساؤلي .. وعاش هو في عيني ، ومايزال ، ان نظراته القوية تخبط جدران قلبي ، وتدفع الدم حاراً في عروقي » .

البطلتان المنقولتان لنا أختاهما واحدة . جعلت الكاتبة في الأولى محبة لقريتها وأرضها والثانية محبة مراهقة لـ « راجي » الذي يهاجر ويتركها الى بلاد بعيدة وتتزوج هي في النهاية من « جو » الامريكي هرباً من موطن ذكرياتها ...

تقول « منى » المحبة لأرضها : « وتابعت

العبث بالعناقيد الدانية ، وقد غسل يدي ماسال من عصيرها ، وارتفعت حرارة الشمس تصلي وجودي ، وتزيد تشبثي بالتربة الحارة ٠٠ مررت يدي الدبقتين فوق التراب الاحمر الحار ورحت افركهما ، اغسلهما بذراته » ٠٠

ولا تنسى « منى » الحب ٠٠

« كان الحب انشودة خيالية أرغها مع العصافير ٠٠ مع أشجار الزيتون الكئيبة ، في ذلك السكون الشريد ، في الآفاق البعيدة » لكن المعلمة بنصحها وارشاداتها ٠٠٠ والكاهن بمواعظه الدائمة :

« الانسان مخلوق دنس ، والحب خطيئة مميتة » ٠٠

كل ذلك أمات الأمل أخضر في عينيها ليعيش مع قصص صديقاتها .

« فواز يحب مريم » قصة جديدة في القرية ..

« فؤاد » يطلق الرصاص على « مريم » فيرديها قتيلة ويهيم في الوديان والجبال ٠

تجمد فكرة الموت الرهيبة في خاطر منى كانت عميقة .

لاتتذكر كيف بدت « مريم » بعد الموت ..

« كانت تقبع هناك خلف جدران كثيفة من الصمت الكئيب » ..

« وظل النعش يحفر في عيني ، فوق الارض الفسيحة ، تحت شجرة السنديان . بين المقابر الرهيبة ، ورأيت بطن الارض ينشق ، ويتسع ثم يعجز عن ابتلاع الصندوق المقفل » ..

ثم تنقلنا الكاتبة الى اكثر من قصة واكثر من لغز :

« ونجية ؟.. من كانت نجية » ..

وتتساءل بحيرة الابنة التي تبدأ في التعرف على كل لغز في الحياة

« وكذلك عاشت نجية » لغزاً مبهماً في حياتي ، وكانت خطواتي تقودني في كثير من الاحيان لحل العقدة واكتشاف السر ، وما أكاد اصل الى شبه معرفة ، حتى اذكر كلمات تسربت الى سمعي عبر أحاديث « حنة »

ـ الكلبة لازم يشحطوها من الضيعة ـ ..

صور كثيرة لامجال لذكرها كلها ٠٠ منها مانجحت الكاتبة في تصويره ومنها ماجاء مبالغاً فيه ٠٠ « منى » إنسانة لايرضيها شيء ٠٠٠ احبت القرية وطمحت الى الدراسة في المدينة ٠٠٠ وفي المدينة بعدما يتحقق حلمها ويوافق ابوها على تتمة علومها فيها تشكو الصخب والضجيج والحياة الدائبة والبنايات الشاهقة المكتظة ٠٠٠ فيعاودها الحنين الى حقول قريتها الفسيحة وعندما تعود مدفوعة بذكريات حلوة تفجع في تبدل قريتها وأهل قريتها ...

بين الكتب والدراسة يموت إشراق عينيها وحين عودتها الى القرية تصور نفسها بطلة حائرة في حلبة صراع ونقطة استفهام في جبين الارض..

ماذا تريد « منى » ؟٠٠ لم تصل الى حل ٠٠ او الى غاية ٠٠ ماتطلبه « منى » كان باهتاً بين السطور لأنه أخفي بين بطلتين هما واحدة ٠٠٠

ثم ٠٠ حبذا لو تركتنا الكاتبة ننساق بانسياب مع احداث القرية وحدها دون الرجوع الى التذمر من صخب المدينة . كما في ابتداء الفصل السابع والعاشر والسادس عشر ٠٠

كيف تفجع « منى » في قريتها وأهل قريتها وأهلها خاصة الذين وافقوا بملء ارادتهم على سفرها ٠٠٠ فالارض الطيبة المعطاء التي صورتها لنا « منى » لاتتنكر لابنائها ولو ملكوا الدنيا وجابوا الآفاق ٠

←

ليلة واحدة

رواية لكوليت سهيل

اصدار المكتب التجاري
في بيروت ـ ٢٣٥ صفحة
من القطع المتوسط

عرض وتحليل الآنسة جمانة طه

اهم ما يميز العمل الادبي ، وخاصة في الرواية الطويلة ، الوحدة الزمنية التي تكون المحك الحقيقي لأصالة الادب او عدم اصالته .

ستة أيام لحليم بركات من ذي قبل ، و« ليلة واحدة » لكوليت سهيل فيما بعد ، روايتان عربيتان اعتمدتا اكثر من أي شيء آخر على الوحدة الزمنية .

فستة ايام احداثها تنطلق في ستة أيام ، والقارىء يجد نفسه مقتنعاً بحقيقة هذا الزمن .

وليلة واحدة ، احداثها تنطلق في ليلة واحدة ، مع قناعة القارىء بأن الزمن لم يتخلخل أو يهتز . ومن الصعوبة بمكان أن يراقب الكاتب الأصيل خلجات أبطاله لحظة بلحظة ، ودقيقة اثر دقيقة . وكوليت سهيل كما كان حليم بركات استطاعا بحذاقة فائقة ان يحصيا انفاس أبطالهما من دون شطط او مبالغة او تهور .

وليلة واحدة ، كانت ليلة واحدة ، الخطوات متزنة ، والساعة فيها لا تتجاوز الساعة ، والدقيقة لا تتجاوز الدقيقة .

هذا من جهة الزمن .

اما من جهة الرواية كفكرة ، كحدث ، كمجرى للحياة اليومية التي يحياها الناس ، كوجود مخلوقات تبحث عن سعادتها وعن معنى بقائها .. فذلك عرضة للمناقشة ولابداء الرأي .. وانا كقارئة سأجرب فيما يلي أن ادلي برأيي الذي يخصني وحدي .

السؤال الذي يلح على قارىء « ليلة واحدة » هل استطاعت الادبية السيدة كوليت سهيل ان تطرح مأساة المرأة الشرقية من كل نواحيها ..؟

تبدأ الرواية

« زوجي العزيز

لست أدري كيف ابدأ رسالتي

←

ثم .. الحوار العامي المحلي الذي سجلته الكاتبة يفرق بين اللغة العربية في اقطارها .. فاللغة الفصحى تجمع ولا تفرق .. حبذا لو حولتها نوعا ما الى الفصحى ..

اشياء بسيطة كانت بين الحوادث لابد من ذكرها .. لكنها لم تفقد القصة روعتها ودقة الوقائع التي مثلت على مسرح قرية اصبحت ذكرى في خاطر « منى » ..

وبعد فأنا اهنىء الكاتبة على «طيور ايلول» .. لأنها رمز الادب الواقعي الحر .. ورمز البيان والروعة والادب الرفيع ..

هذه والافكار تعصف في رأسي ..
والقلم يهتز بين أناملي ..

ان يدي ترتجف قليلا وتتردد في كتابة هذه الجملة : « زوجي العزيز » هذه الجملة التي طالما اضاءت حروف رسائلي .. هذه الجملة التي كان يكتبها قلمي بصورة آلية وتفهمها يدي، دون ان يمليها شعوري أو يقرؤها عقلي، واليوم .. نعم اليوم اتساءل لاول مرة لماذا كنت اكتب اليك : زوجي العزيز ! ألانني منذ الصغر فهمت ان الزوج يجب أن يكون عزيزاً .. ألانك كنت عزيزاً علي فعلا

ومن خلال ماتقدم ندرك ان الرواية على شكل رسالة تبعث بها امرأة ما الى زوجها من مكان ما .. وهذه الطريقة كلاسيكية صرفة سبق أن مارسها كتاب قدماء ومعاصرون .. ومن خلال ماتقدم أيضاً يتوضح لنا المشكلة التي تريد الكاتبة عرضها في الصفحات الـ ٢٣٤ القادمة .

ماذا جرى

والبارحة كنا نتحدث ، بعد ، عن آمال مستقبلنا .

ماذا جرى

ومدة فراقنا ليست سوى
ليلة واحدة « ص ١٦ »

اذن ، الزوجة تعاني مشكلة ، وتشعر أن ثمة شيئاً غريباً حدث ، وفي ليلة واحدة فحسب ..

ونقرأ بعض الصفحات فندرك أن الزوجة تكتب الى زوجها من فندق ما في باريز .

وتوضح الكاتبة على لسان البطلة اسباب فراق الزوجين ، ثم تصل الى صلب المشكلة «نحن متزوجان منذ عشر سنوات وقبل ، وكنت ما أزال طفلة .. فقد تركت اسرتي وانا في الخامسة عشرة (ص ٢٣) » .

فماذا تفهم فتاة الخامسة عشرة : كيف لها أن تبني بيتاً وتؤسس اسرة ، ومن هو هذا الغريب الذي جاءت اليه ؟

وتتحدث البطلة كيف هيأوها لزوجها ، ولم يكن لها أي رأي في الموضوع .

« وبعد أن تمت الصفقة ... سمح لي بأن أظهر في حضرتك .. ص٢٩ »

وتشعر البطلة رشا أن تبدلا طرأ على حياتها وراقها ذلك بادىء الامر .. واخذ الزوج فيما بعد يسافر كثيراً بحكم عمله .. وتألمت لان الذي يؤنس وحدتها أخذ يسافر ، ولكنها تكتشف فيما بعد انها كانت تبكي وحدة نفسها ، وكانت تريد أن تأتي بطفل من صلبها يؤنسها .. ولكنها امرأة عاقر لاتلد .

وتمر الاعوام الطويلة ، ويفتت الملل اعصاب رشا حتى أمست لاتطيق عيشها وراح اليأس

يلتهم ثواني ايامها الطويلة ، الى أن بدا لها خيط شاحب من الامـــل ، فتمسكت به بكل قواها كالغريق المستجير بقطعة من الخشب صغيرة ، وقالوا لها : في باريز طبيب يأتي بالمعجزات ، ويجب ان تعالج نفسها وتحمل وتصبح اما .

وتسافر ويرافقها زوجها الى مرسيليا، وهناك يضطر الى تركها لتسافر وحدها الى باريز فهي لن تغيب اكــثر من ليلة واحدة ، لترى الطبيب ثم تعود اليه .. وهنا تبدأ المأساة .

والتقت به ، ومن مرسيليا الى باريز وبقيـــة الليلة ، تجري بقية الاحداث ، ومن خلال هذه الاحداث تبرز مشكلة المرأة الشرقية .

ـ هذه جريمة .. تزوجت وانت في الخامسة عشرة ؟ هذه جريمة والله .. ماذا أقول له ؟ هل أقول له ان الفتيات في بلدي اذا تعدين سن العشرين دون زواج حكم عليهن بالاعدام ؟ هل أقول له ان المجتمع في بلدي يدين الفتاة القاطعة سن الزواج لانه يحوك القصص حول حياتها، ويثقل كاهلها بالافتراضات ويلوث سمعتها بالاسئلة . «ص ٩٢»

وصلان باريز . رشا وكيل ، وكانت رفقة القطار كافية لأن يفتح كل منهما قلبه للآخر ، وتتم فصول المأساة في باريز .. وتنسى رشا عالمها الشرقي البعيد وتنسى الذي تركته في مرسيليا، لقد شعرت لأول مرة بالدفء الحقيقي ، بالحياة التي تتمناها تدب في اوصالها ، وعاشت تلك الليلة ، وقد انعزلت عن كل شيء عدا سعادتها ، وتناست كل شيء عدا غبطتها وكان كيل كل شيء ، ومع كيل عاشت ليلتها كاملة ممتلئة بكل ما هو رائع وجميل .

« من قال ..؟ من قال ياسليم ان حياة خمس وعشرين سنة ، ستنقلب رأساً على عقب .. في مدى .. ليلة واحدة ص ١٩٩ » .

وتنتهي الرسالة هنا ، وقد اعترفت رشا بكل شيء الى زوجها ، ويبدأ القسم الثالث على لسان الراوية ، ومنها تبدو خيوط نهاية المأساة .. وكانت رشا في صبيحة اليوم التالي ماتزال في باريز وتضطرع اعمـــاق رشا وتفكر في ان لا ترسل الرسالة الى زوجها ، وتبدو لها الحياة بغيضة مع زوجها .. لقد ادركت الآن انها قد ظلمت نفسها لانها عاشت طوال هذه الاعوام بلا عاطفة ولا حنين ، وعندما تذهب الى الطبيب ، تكتشف ان صحتها جيدة ، وان لها القدرة على انجـــاب الاطفال ، ولكن العاقر هو زوجها .. هو الذي لا يستطيع ان ينجب اطفالا « **خرجت من عند الطبيب تائهة .. ضائعة !.. هل من الممكن .. هل من الممكن ان يكون زوجها .. هو .. هو .. ولكن لماذا لم يعترف اليها بهذا .. لماذا تركها كل هذه السنوات تعتقد انها هي السبب ؟ ص ٢٢٧** »

وفي ضياعها، وفي قلقها ، وفي دوامة افكارها،

السنفونية الناقصة

مجموعة قصص للمرحوم صباح محي الدين

اصدار دار الآداب ببيروت
١٢٠ صفحة من القطع المتوسط

عرض وتحليل ياسين رفاعية

عندما انطفأت شمعة « الدكتور صباح محي الدين » فجـأة ، لم يكن يخطر ببال انسان ان يغيب هذا الاديب بهذه السرعة لأنـه كان يعد بعطاءات خيرة في القصة والرواية والابحاث . . لكن القدر عاجله فذهب ضحية تصادم سيارة في الكويت .. وتوقف قلبه عن الحياة ، لكن الاثار التي تركها ستظل تشعرنا بوجوده الى الابد .

ومن آثاره الادبية التي نحن بصددها اليوم مجموعـة قصصية بعنوان « السنفونية الناقصة » وهي تحوي ثلاث قصص طويلة وهي « السنفونية الناقصـة » و « بوق سان جرمان » و« دم ومرجان » .

في قصته « السنفونية الناقصة » ابرز المرحوم محي الدين بصورة صادقـة نفسية الشرقي عندما تساعده الظروف ليكون في بلد غربي وعلى الاخص باريس ، كما اوضح في ذات الوقت خطأ الصورة التي يراها الشرقي في الفتاة الاوربية ، وخطأ ما يفهمه عنها من صفة التحرر والتقدمية

تكون احدى السيارات المسرعة لها بالمرصاد . وتسقط رشا ، وتتناثر الرسالة ، ويأخذونها .. وتتلاشى امامها كل المرئيات ، ولا يطل عليها في تلك اللحظة سوى وطنها « اريد .. اريد أن اموت في بلدي .. ارجوك . خذني الى بلدي . ص ٢٣٣ »

ولا تصل رشا الى المستشفى ، واستطاعت لآخر مرة ان تبتسم بسخرية ودمدمت والقدر يسبـل اهدابها : مافائدة السنين . كل حياتي ، كانت ليلة واحدة .

وبهذه الـكلمات تقف البطلة عن الحديث ، وتقف الكاتبة عن الكتابة . . وتنتهي ليلة تبرز فيها مأساة امرأة شرقية كانت تعاني قـوة التقاليد في بلدها . . وعندما اتيح لها ان تحس بلذة الحياة ، صفعها القدر صفعته الاخيرة ، وكانت حياتها كلها ليلة واحدة . .

لقد عبرت الـكاتبة اصدق تعبير عن مأساة بنات جنسها في صراعهن مع مختلف المفاهيم الرجعية في النظرة الحياتية تجاه المرأة . .

على أنه لابد لي ان اشير ان ثمة لقطات في الرواية كانت اقحاماً على حوادثها مما جعل بعض الصفحات دخيلة على مجرى الاحداث ، كمحاولة الـكاتبة الحديث عن بلدها ومحاولة الـكاتبة نقد معاملة المرأة الشرقية بلهجة تقريرية خطابية . ولكن مما لاشك فيه ان « ليلة واحدة » اقرب الى مفهوم الرواية الحديثة منها الى « ايام معه » رواية السيدة كوليت سهيل الاولى . .

فالبطل يتعرف الى فتاة جميلة ، كان يعتقد فيها انها مثل بقيـة النساء اللواتي عرفهن على ارصفة باريس ، ولكنه يكتشف انه مخطيء في رأيـه ، مع ذلك لا ييأس. ويحاول محاولات مستمرة لان يوقعها في شباكه وبطرق مختلفة ، وتثق بـه الفتاة ، وترافقه الى المطاعم والحانات ، واخيراً يأخذها الى احد اقبية الوجوديين وهناك يشجعها على الشرب وتكون ختام القصة « وضمت ذراعي اليها واستندت عليها .وسرنا لا نتحدث في بولفار سان جرمان ثم دخلنا بولفار سان ميشيل ووصلنا فندقي وصعدنا الدرج الى غرفتي فيما يشبه الحلم

ولم ارماشا بعد تلك الليلة ، على الرغم من اني عدت فطلبتها عشرات المرات من البيت الامريكي وما زلت اتساءل : هل قطعت علاقتها بي لاني لم اصفر لها السنفونية الناقصة كما اصرت دوما .. **ام ترى الحق على الفتى الشرقي الذي حسر القناع عن وجـه عازفة الكمان** الاتية من فيناوانيت لها انها انثى ــ كأية امرأة اخرى ــ فلم تغفر له ذلك ..؟ »

والقارىء اى قارىء ، يشعر ان الفتى الشرقي في هذه القصة أغوى الفتـاة الاوروبية كما يغوي اية فتاة شرقية ، واراد الـكاتب المرحوم فيها ان يؤكد ان المرأة تظل امرأة في الشرق والغرب على السواء .. وان الفضيلة تظل فضيلة عندها في اي مكان .

واذا انتقلنا الى القصة الطويـلة في المجموعة وهي « بوق سان جرمان » ، فاننا نجدها اقرب الى الرواية القصيرة ، منها الى القصة فهي تقع في خمسة فصول ويمارس هذه الفصول عدة ابطال ، كما ان الوحدة الزمنية فيها تملك حيزاً كبيراً من التاريخ . ولقد اراد الـكاتب ان يبرز في هذه القصة النمط الذي يعيش فيه الذين هجروا بلادهم بحجة الدرس ليعيشوا في باريس واجواء باريس، وليمارسوا حريتهم على اوسع نطاق دون رقيب أو حسيب .

وابرز ابطال هذه القصة ثلاثـة : واحد من اسبانيا والاخر من امريكا الجنوبية والثالث من الشرق العربي على التحديد ، وتربط بين هؤلاء الثلاثة صداقة متينة رغم اختلاف بلادهم .. الان الذي جمع بينهم التفكير المشترك في كافة مشاكل الحياة ، ومواجهة نفس الازمات والالتقاء في ذات الحياة التي يحياها كل منهم في بلده .

فبانشو ، واحد من الذين تمردوا على التقاليد فهجر امريكا الجنوبية وجاء باريس يدرس الرسم ويحيا حياة شاذة لم يكن يألفها في بلاده ،ويحاول ان يحل مشكلة الجنس في باريس ، لكن شكله القميء البشع لم يكن ييسر له ذلك ، فاستحال على النساء بطريقة اخرى دون ان ينكفيء وينهزم فأصبح يدعو الفتيات الجميلات لرسمهن ، وكان يحاول ان يوجد ثغرة ما للتعاطف مع واحدة من اولئك الفتيات الى ان ينجح مـع واحدة منهن اخيراً ، فما كان منه لفرحه العظيم الا بأن تناول بوقاً واخذ يعزف عليه الحاناً غير منسجمة ممـا دفع الجيران الى الاستنجاد بالشرطة التي جاءت والقت القبض عليه وهو مجرد من ملابسه واقتيد الى الشرطة الا ان الصديق الشرقي استطاع في صبيحة اليوم

التالي ان يفرج عنه في الشرطة بعد ان كفله ، وكان لابد للصديق الاسباني ان يروي للشرقي اسباب القبض على صديقهما الامريكي ، ومن خلال ما سيقول تدرك غاية الكاتب في ابراز هـذا النوع من النـاس الذين يحيون بيننا ، يقول الصديق الاسباني : لاشك في ان نية بانشو كانت فنية خالصة ، الا ان منظر الفتاة وهي جميلة على ما اعرف ، ولبس بانشو اكثر من موضع في سبيل الفن او الساعة المتأخرة من الليل ، ورغبته القديمة وتدللها وتمنعهـا وبقايا السكر في الاثنين ، كان من كل هذا ان تخلى بانشو عن ريشته وتخلت موديله عن جلستها ، فنال بانشو مايريد واشبعت الفتاة فضولها .

ولم يملك بانشو اقرحه بما نال ، فقام وتناول بوقه واخذ ينفخ فيه ، داخل الغرفة ، وبعد بضع دقائق من الموسيقى ، عاد الى الفراش حيث كانت الفتاة تنتظره فمكث فيه بضع دقائق يجدد فيها المعرفة ، ثم عاد الى بوقه . وهكذا ارتبع خمس مرات على ماقاله الجيران

وقلت محاولا ان أفهم :

— ولكن .. لماذا كان يقوم وينفخ في البوق ؟

فضحك خوسه وقال :

— الم تشاهد ابدا ديكا يرتع بين الدجاجات كلما تعطف على واحدة منهن عاد واعتلى اقرب مزبلة واخذ يصيح .

وتفرق الظروف فيما بعد بين الاصدقاء الثلاثة ويعود الشرقي العربي الى بـلاده ، ويعمل في هندسة البناء ، ويمر على ذلك ثلاث سنوات يأخذ بعدها الشرقي العربي اجازة طويـلة ويرحل الى اوروبا بما فيها باريس ويلتقي هنا بصديقه الاسباني ثم بصديقه الامريـكي الجنوبي الذي اصبح ثريا من وراء بيعه اللوحات التجريدية المزيفـة . وتبرز سخرية الـكاتب من هذا الفن وهذه اللوحات . ولعل اللقطة التالية تدل دلالة واضحة على ماذهب اليه . والحوار التالي بين الشرقي والامريـكي الجنوبي اي بين مصطفى وبين بانشو .

— حين غادرت باريس ، كانت الحكومة هي التي تدفع اجرة سفري على القطار والباخرة ، فاخذت تلك اللوحات التي كانت قد أصبحت تفوق المئة عداً . ووضعتها في صناديق وارسلتها أمامي الى الوطن .. على حساب الحكومة

وحين عولت على تنفيذ الفكرة التي خطرت لي استدنت مبلغا من المـال من ابن عم لي ، واستأجرت دكانا في اكبر شارع في العاصمة وجعلت منه ردهة لمعرض اللوحات واسميته « الفن الباريسي » .

وطافت على شفتي بانشو ابتسامة امتزجت فيها السخرية بالمرارة واضاف يقول :

— وليتك رأيت حينذاك اولئك الذين لم يتنازلوا لشراء لوحة من لوحاتي وهي على ماتعلم من مستوى مقبول يتهافتون على اقتناء لوحات فلان وعلان الذين عرفناهم ، ممن كانوا لايفقهون من التصوير الا اسمه .

ونجحت تجاربي نجاحاً هائلا وإمتلأت جيوبي

بالمال ولكن دكاني فرغت من اللوحات فعدت الى باريس لأشتري ما املأ به دكاني من جديد .

وهنا عادت الى ذاكرتي لوحة الحمار فقلت لبائعو :

— لوحة بوردنالي . هل بعتها .

فضحك مقهقها :

— لا ، لا ، هذه لاتباع ؟ فانها تحتل صدر ردهة لوحاتي، وعليها توقيع فلان » وذكر لي اسم احد كبار الرسامين الذين لايجهم » ولقد عرضت علي مبالغ ضخمة لأبيعها : الا اني أبيت فاني احتفظ بها ذكرى لايام الشباب ، وتذكرة لي بحماقة النقاد الرسميين وبسخافة زبائني وتنتهي القصة في ذروة سخريتها من الفن التجريدي .

ولعل الكاتب اراد من بناء القصة كله ان يسخر من الفن التجريدي .

والقصة الاخيرة في المجموعة وعنوانها « دم ومرجان » اراد الكاتب ان ينهج فيها نهجاً جديداً ، وكتب مقدمة لها جاء فيها « لقد جرت محاولات عديدة للخروج بالقصة من سجن « التتابع » واطلاقها في ميدان « التواقت » الى ان يقول : ثمة اشياء جديدة في هذه المحاولة. او هذا — على الاصح — مايخيل لي :

اولا : التواقت الفعلى ، اى ان انفعالات الشخصيتين تسير جنباً الى جنب ، في القصة ، وعلى الورق .

ثانياً : اشتراك الشخصيتين في الكلام ، وفي بعض الاجواء وهذا الكلام وان كان مشتركاً الا انه يصدر عن عواطف ويؤدي الى انفعالات مختلفة في كل من الشخصيتين . وهذا مايجري في الواقع .

وكان يعتقد المرحوم محي الدين انه قد عثر على اسلوب جديد ، ولكن ثمة كتاب سبقوه الى ذلك الاسلوب بطريقة اخرى ..

وفي هذه القصة أخذ يصور مشاعر البطلين جنباً الى جنب من خلال موقف واحد ، ونضرب مثلا على ذلك بهذا المقطع .

وكان الماء من الهدوء بحيث ان اليخت كان كأنه ينزلق على بحر من الزيت الاملس .

وأحس م . بالسكينة تهبط على نفسه فاستسلم لها بكل جوارحه انها لفرصة سعيدة ان يخرج بعد ظهر هذا اليوم في سفرة مثل هذه يمتزج فيها بالطبيعة الحية ، بالنور وبالهواء وبالماء .

واحست ل . بالسكينة تهبط على نفسها فاستسلمت لها بكل جوارحها ، انها لفرصة سعيدة ان تخرج بعد ظهر هذا اليوم في سفرة مثل هذه تمتزج فيها بالطبيعة الحية، بالنور وبالهواء وبالماء .

وكان اليخت متوجهاً الى قرية صيادين على بعد نحو ساعة ونصف الساعة ، ويقال ان البحر فيها صاف مهما بلغ من العمق ، والرمل احمر فيها كالمرجان .

وكانت القصة بأكلها تسير على هذا المنوال .

ولقد كانت محاولة جيدة تؤكد اصالة هذا الكاتب الذي اختطفته يد القدر قبل ان يعطي ما كان يمكن له من عطاءات زاخرة بالادب الرفيع العميق ..

ولاشك ان صباح محي الدين ، كان — رحمه الله — من ابرز كتاب القصة العربية في سورية ومن اكثر كتابها اصالة .

لمراسلنا في الجمهورية العراقية

كتب صدرت في العراق

حكايات الموصل الشعبية : تأليف : أحمد الصوفي ـ مطبعة الرابطة ـ ١٩٦٢ ـ بغداد ـ أصدره : مركز الفولكلور العراقي في وزارة الارشاد ـ قدم له : الدكتور صفاء خلوصي .

بحث المؤلف في موقع مدينة الموصل، وتأسيسها وسبب تسميتها ، وسكانها ، والقبائل التي استوطنت فيها ، ثم أورد اثنتين وعشرين حكاية من حكايات الموصل الشعبية .

مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية : أنشأها : ظهير الدين الكازروني عني بتحقيقها : كوركيس عواد وميخائيل عواد ـ الناشر : وزارة الارشاد ـ بغداد .

يضم الكراس « مقامة أدبية تاريخية عمرانية تتناول بالوصف مدينة بغداد في أواخر أيامها العباسية وبعيد سقوطها بأيدي المغول . »

المدخل الى الفولكلور العراقي : تأليف عبد الحميد العلوجي ونوري الراوي ـ اصدره : مركز الفولكلور العراقي في وزارة الارشاد .

يبحث الكتاب في تاريخ علم الفولكلور ونشأته ومدارسه وخصائص كل مدرسة وميزاتها وأهدافها .. ويضم كثيراً من صور الفنون الشعبية في العراق .

ارادة الحياة (ديوان شعر) : نظم : عبد الصاحب الملائكة ـ مطبعة دار التضامن ـ بغداد ـ ساعدت وزارة المعارف على نشره .

يضم الديوان أكثر من اربعين قصيدة وقطعة في الاغراض الوطنية والاجتماعية ، وقد طبع طبعاً انيقاً .

جمهرة المراجع البغدادية : جمع واعداد : كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي اصدرته وزارة الارشاد .

يتضمن هذا السفر الضخم بيليوغرافيا متكاملة لمدينة السلام ، تحتوي على اسماء المؤلفين وبعض مؤلفاتهم (وعلى اسماء الكتب والرسائل والجرائد والدوريات والموضوعات العربية والاجنبية التي وردت فيها اشارات الى مدينة بغداد .

ملحمة كلكامش : ترجمة : طه باقر

اصدار : مديرية الفنون والثقافة الشعبية في وزارة الارشاد ـ بغداد .

تناول المترجم في مقدمته المركزة « التي استغرقت ٣٣ صحيفة » أدب العراق القديم ومكانته في تاريخ الآداب العالمية ، ثم عرف بملحمة كلكامش وبطلها ، وتكلم على مصادرها وأصولها واكتشاف ألواحها وترجماتها المختلفة وأورد بعد ذلك الترجمة وقد شرحها وعلق عليها.

طفلك وصحته الانفعالية : تأليف:

أنا . و . م ولف ـ ترجمة الدكتور معمر خالد الشابندر ـ نشر وتوزيع : مكتبة النهضة بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين ـ بغداد .

يبحث الكتاب في كيفية رعاية الطفل منذ عهد الرضاعة الى ان يصبح صبياً ... تهم مطالعة الآباء والامهات .

رسالة المكتبات المدرسية :

تأليف : نهاد عبد المجيد الناصري ـ الناشر : مكتبة النهضة ـ بغداد .

عالج المؤلف في كراسه الاهداف التربوية للمكتبة المدرسية ، وكيفية تنميتها وتنظيمها الفني والاداري .

الأبوذية : تأليف : هاشم محمد الرجب

أصدره : مركز الفولكلور العراقي في وزارة الارشاد .

الابوذية منظومة شعبية تتألف من أربعة أسطر ، تكلم المؤلف على وزنها وأغراضها وطرق غنائها مورداً عدداً من الامثلة على ذلك .

أخبار ثقافية

● قرر مجلس جامعة بغداد الاعتراف بكلية الفقه في النجف ومعادلة مستواها العلمي بمستوى الكليات الشبيهة بها مثل كلية الشريعة وكلية الآداب وكلية التربية ، كما قرر أيضاً الموافقة على قبول الطلاب المتخرجين في كلية الفقه هذه بمعهد الدراسات الاسلامية العليا .. والمعروف ان كلية الفقه في النجف كلية أهلية تعنى بالدراسات العربية والدينية والفلسفية .

● تتجه النية الآن الى جمع تراث الشاعر العراقي باقر الشبيبي وطبعه .. وباقر الشبيبي من شعراء الثورة العراقية التي قامت ضد الاستعمار البريطاني سنة ١٩٢٠ م .

● اعلن الدكتور صفاء خلوصي (الاستاذ بجامعة بغداد) بأنه قد وضع كتابا بعنوان « كتاب النقد في العراق والفنية في انتاجهم » تناول فيه نقد من مارسوا هذا الفن حسب قواعد منهج النقد التكاملي الذي يعتمد على احدث مناهج النقد الادبي في العصر الحديث .

● انتهى الاستاذ « مكي الجميل » وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية من اعداد كتاب يتناول موضوع « التنمية الاجتماعية في العراق » .

● ينتظر ان يشارك ممثا طبيب عراقي في المؤتمر الطبي العربي المزمع عقده في الجزائر

● جاء في آخر احصاء نشرته « دائرة الاحصاء المركزية في وزارة التخطيط » ان عدد الطلاب الذين يدرسون في الكليات والمعاهد العالية في العراق يبلغ (١٠٢٥١) طالباً وطالبة

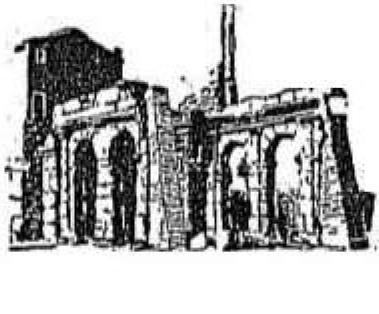
وان عدد اعضاء الهيئة التدريسية في تلك المعاهد يبلغ (١٠٠٨) من الاساتذة والمدرسين والمعيدين العراقيين والاجانب .

● انهت اللجنة الخاصة باعداد مشروع قانون العقوبات العراقي الجديد من مهمتها .

● أجلت هيئة الامم المتحدة فتح مكتبها للانباء والمعلومات في بغداد الى السنة المالية المقبلة ، وكانت هيئة الامم قد عينت شخصية نرويجية لادارة المكتب المقرر فتحه

● تم تعيين الدكتور عبدالعزيز الدوري رئيساً لجامعة بغداد .. والدكتور الدوري من الاساتذة الذين لهم مكانتهم العلمية المعروفة في الاوساط العالمية . كما عين الاستاذ الشاعر الدكتور عبد الرزاق محيي الدين عميداً لكلية التربية في جامعة بغداد .

● نال جائزة المجمع العلمي العراقي لأحسن ترجمة عربية لكتاب في المخترعات المبنية على التطبيقات الالكترونية كل من السادة المهندسين جواد مصطفى جواد وعبد الحميد صادق المفتي وناجي مزهر عبد الرحمن





احمد لطفي السيد

المعرفة

←

احمد لطفي السيد

منذ خمس سنوات ، والشيخ الذي بلغ من العمر عتيا ، ينطفىء رويداً رويداً ، بينما يحافظ عقله الجبار على وضوحه وصفائه . في شهر شباط من عام ١٩٦٣ استسلم للقضاء بعد ثلاث وتسعين سنة من عمر حافل بالمآثر والمفاخر .

احمد لطفي السيد ، استاذ الجيل ، تنعيه القاهرة وتمشي في موكبه الاخير ذاكرة ومعتبرة ، فينظر العرب جميعهم مع القاهرة الى رجل فذ من رجال الشرق في القرن التاسع عشر ، يذكر الى جانب اعلام العصر امثال جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبدو ويفاخر امثال الشيخين الجليلين ، طه حسين والعقاد ، بأن لطفي السيد استاذ لهما ، وللأجيال بعدهما .

احمد لطفي السيد من كبار مفكري العرب والشرق ، الذين عاشوا في المئة عام الاخيرة ، فهو بالاضافة الى شهرته كمفكر ومؤلف ، ومعلم ، فقد كان اجل مازين تلك الشهرة انه رفع رايات الاصلاح والتقدم ، وكان فكره ليس لنفسه وكتبه وعزلته ، بل للجماهير الكبيرة التي عبر الفيلسوف الجريء عن طموحاتها ونظرتها الى المستقبل .

لقد اشتهر المغفور له احمد لطفي السيد في اواخر القرن التاسع عشر ، بدفاعه عن قضايا ثلاث ، كانت وما زالت قضايا العرب والشرق كله .

لقد دافع عن حرية الفكر وحرمة المفكرين ، فكان على مستوى عالمي راق في دعوته ، وتقدير خطرها في شرقنا المظلم الراكد ، المحجوب بالمظالم والاوهام .
ودافع عن اشراك المرأة في الحياة العامة ، ومنحها حظها الوافي من قدرها الانساني ، **وكان بطل الدفاع عن استقلال الجامعة** ، ورفعها عن مزالق الحكم ، ومهاوي السياسة ، وتيارات النزوات والنزعات .

مارس السياسة في طريقه الى الدعوة للاصلاح والتقدم ، وعمل كاتباً صحافياً مرموقاً . وكان كسياسي وطني **قد اشتهر في حمل الدعوة الكبير (مصر المصريين) يومئذ** ، ولم يكن معنى هذه الدعوة في ظل الحكم العثماني سوى صرخة الاحرار لخلع النير والتحلل من العبودية ، والتحرر من التبعية العثمانية .

رحمه الله ونفع الاجيال العربية بعاطر ذكراه .

المراكز الثقافية العربية في سورية

دمشق

القى الاديب الاردني عيسى الناعوري بدعوة من وزارة الثقافة والارشاد القومي محاضرة بعنوان: الادب في المهجر.

* وتحدث الدكتور غسان الرفاعي عن التصوف الاوروبي، اما الاستاذ سعد صائب فقد القى محاضرة قيمة عن الرسام دوفنشي مع عرض بالفانوس السحري.

حمص

يعتزم المركز الثقافي في حمص اقامة مهرجان كبير للشاعر المهجري نسيب عريضة، وسيكون البرنامج على الشكل التالي.

١ ـ كلمة مدير المركز في شعر نسيب عريضة

٢ ـ كلمة الاديب المهجري المرحوم عبد المسيح حداد عن الشاعر وكان قد ارسلها قبل وفاته وعنوانها « نسيب عريضة الشاعر الانسان..

٣ ـ كلمة الاستاذ نظير زيتون وعنوانها « الشاعر الانسان »

٤ ـ كلمة الاستاذ ميخائيل نعيمة وعنوانها « صديقي نسيب عريضة »

٥ ـ قصيدة للشاعر شكري هلال

عدا عن مواضيع اخرى تتعلق بالشاعر نسيب عريضة

المعرفة: ان اقامة مثل هذه المهرجانات ضروري جداً، لان عدداً كبيراً من الجماهير لا تعرف شيئاً عن ادبائنا الكبار

* « الفرد والمجتمع » عنوان المحاضرة التي القاها الدكتور نعيم الرفاعي.

حلب

قدم المركز امسية قصصية لمظفر سلطان القى فيها قصة بعنوان « في انتظار المصير ».

اللاذقية

القى حسن صقر محاضرة بعنوان « اثر الحرب في الفكر الالماني » كما تحدث جبرائيل سعادة

عن آثارنا وشارك الحديث عرض بالفانوس السحري لشتى الصور الأثرية

كما قدمت جورجيت حنوش في ندوة قصصية احدى قصصها القصيرة .

* تم الاتفاق المبدئي بين وزارة الثقافة والارشاد القومي ومديرية السياحة على تزويد المديرية المذكورة بأربعين نسخة عن كل من الافلام التالية :

١ ـ دمشق الخالدة ، ٢ ـ الشاعر الوحيد، وهو عن جزيرة أرواد ٣ ـ الوان من الجمال ٤ ـ الآثار العربية في سورية .

وهذه من الافلام الملونة التي انتجتها الوزارة وستقوم مديرية السياحة بارسالها الى انحاء العالم للتعريف بحضارتنا وطبيعتنا الخلابة .

* رفع الى الامانة العامة لوزارة الثقافة والارشاد القومي التقرير الذي وضعته تحت اشراف مديرية الفنون ، لجنة مؤلفة من : كامل القدسي مدير المسارح والموسيقى وصلحي الوادي مدير المعهد الموسيقي بدمشق وحسني الحريري المفتش الاول للموسيقى في وزارة التربية والتعليم وخضر جنيد المدرس في المعهد المذكور، ويتضمن التقرير مشروع احداث المعهد العربي للموسيقى في حلب ، على ضوء نظام معهد دمشق وما لوحظ بالتجربة من تعديلات يجب ادخالها عليه .

جمعية الادباء

* وزعت جمعية الادباء توصية الادباء لتنشيط الكتاب وتوزيعه وتشجيع المؤلفين . وقد سبق ذلك عدة اجتماعات تمهيدية حول هذا الموضوع حضرها عدد كبير من الادباء والمثقفين . ونوقشت كافة قضايا الكتاب العربي في سورية .

منتدى سكينة

القى وليد مدفعي محاضرة قيمة بعنوان « بين العقيدة والسياسة » كما القت السيدة مقبولة الشلق بعض قصائدها .. حضر الامسية عدد كبير من الادباء والمثقفين .

المركز الثقافي الاسباني ـ دمشق

* كان المركز الثقافي الاسباني قد خطط لموسمه الادبي . الذي قدم فيه الندوات التالية :

الخميس ٧ شباط : اقيمت ندوة قصصية شعرية اشترك فيها السيدة ام عصام وجان الكسان ولمى فاضل وشوقي جلول وقدم هؤلاء اسكندر لوقا .

الخميس ١٤ شباط : اقيمت ندوة قصصية شعرية اشترك فيها الاساتذة وليد مدفعي وياسين رفاعية والآنسة ليلى كيلاني وقدمهم كمال فوزي الشرابي .

الاربعاء ٦ آذار : اقيمت ندوة قصصية شعرية اشترك فيها اسكندر لوقا والآنسة بثينة سكر والآنسة سحر كيلاني وقدم هؤلاء وليد مدفعي .

الاربعاء ١٣ آذار : اقيمت ندوة قصصية اشترك فيها عبدالله الشيتي وفاروق منجونة وقدمهما هؤلاء ياسين رفاعية .

الاربعاء ٢٠ آذار : اقيمت ندوة قصصية شعرية اشترك فيها يوسف مدور والآنسة

سلوى شحادة وكمال فوزي الشرابي وقدمتهم السيدة ام عصام .

وقد افتتح جميع هذه المحاضرات واختتمها الاستاذ خوليو كورتيس مدير المركز الثقافي الاسباني .

جمعية الشبان السريانية

* اقيمت في جمعية الشبان السريانية ندوة شعرية قصصية اشترك فيها الآنسة سلوى شحادة ويوسف مدور وعبد الله الشيخ وعبد الحق حداد وشوقي جلول .

نادي الشبيبة الكاثوليكية - حلب

كان نشاط هذا النادي خلال موسمه الماضي من اهم نشاطات الاندية الثقافية في حلب .. وقد اشترك في هذا الموسم ،

* جورج سالم في محاضرة بعنوان « التزام المشكلات الاجتماعية في القصة العربية » .

* جبرائيل سعادة في محاضرة بعنوان « تلك آثارنا تدل علينا » مع عرض بالفانوس السحري.

* فريد جحا في محاضرة بعنوان « جورج صيدح الصديق الشاعر . »

* يمن الأعسر امام في محاضرة بعنوان « التخلف المدرسي » .

* ليلى سالم في محاضرة بعنوان « اخلاق بلا إلزام » .

* المطران جورج لاتي في محاضرة بعنوان « المجتمع الفاتيكاني الثاني والوحدة المسيحية »

* وليد اخلاصي، عبدالرحمن اليك ،جورج سالم في ندوة قصصية .

* الدكتور نوئيل مكرنبة في حديث حول موضوع « الموت المتعمد » .

* الياس هندية في حديث حول « الافتتاحية مع بعض المختارات الموسيقية »

كتب جديدة

* صدر للشاعر خليل الخوري ديوانه الشعري الثاني « صلوات للريح » عن دار الطليعة في بيروت . وقد قدم له الدكتور احمد كمال زكي ، سبق ان صدر للشاعر المذكور ديوان بعنوان « حبات قلب » .

* اهدى مكتب المعلومات الامريكي مجموعة من الكتب المترجمة الى العربية الى مكتبة مجلة « المعرفة » هذه الكتب هي : لافاييت في امريكا - نساء عالمات في العصر الحديث - توماس الفا اديسون - ابراهام لنكولن - الرعاد الحرية المقيدة - خادمات الانسانية - رحلة الى عالم مجهول - الصواريخ والقذائف والاقمار - جهاد وحصاد - موجز تاريخ فن الرسم الامريكي - الاجناس والشعوب - مذكرات ابن الوادي - صديقتي فليكا - طريق الاوريجون حرب صليبيه في اوروبا - هيئة الامم المتحدة خلال خمسة عشر عاما - شروق ظلال - تبسيط العلوم للاحداث - ابراهام لنكولن حياته ورسائله - رؤساء جمهورية الولايات المتحدة الاميركية - الحكومات البرلمانية - واسرة تحرير المعرفة تشكر على هذه الهدية القيمة .

اعداد قلم التحرير

- البينة – المغرب
- الجندي – دمشق
- الفكر – تونس

البينة – المغرب

كتب الاستاذ علال الفاسي في افتتاحية مجلة « البينة » المغربية العدد الثامن من السنة الاولى مقالاً تحت عنوان « الديمقراطية خلق » حلل فيه مبادىء الديمقراطية ، وابرز مالها من فضل في بلورة الحكم والحياة العامة .

قال الكاتب: الديمقراطية عقيدة تضفي آثارها على تصرفات معتنقيها . والشكل الظاهري فيها كالنيابة والاستفتاء والحريات العامة ليست إلا انعكاسات لصورها ، تستطيع ان تثبت وتصبح حقائق ملموسة محسوسة ذات فعالية اذا اخلص معتنقوها وصدقوا في تطبيقها ، وتستطيع ان تكون مجرد خيالات وهمية لاتثبت في خارج الذهن اذا كان القائمون عليها لايرغبون في غير الصورة ولا يهتمون بالعمق .

فالديمقراطية قبل كل شيء ايمان في الشعب لحقه في حكم نفسه بنفسه ، وكنتيجة لذلك صفة تنعكس على اقواله وافعاله تجعله لايأتي من الاعمال ولا ينطق من الاقوال الا مايتفق مع تلك العقيدة ولا يقبل من غيره مايتنافى معها .

فالشعب اذن هو الذي يجعل الديمقراطية حقيقة واقعة ، وهو الذي يجعل من الدساتير المكتوبة والقوانين المرسومة ، والهيئات المنتخبة والتشكيلات المختلفة للديمقراطية صوراً حية تعطي حرية ومساواة وعدالة واخاء بين المواطنين . وهو الذي يجعل الحكم القائم مهما كانت صورته مستمداً من الشعب متفقاً مع ارادته سائراً وفق رغبته . والديمقراطية خلق في الحاكم وفي المواطن معا ، لايستطيع أي منهما متى تخلق به ، ان يخرج عن إطاره أو يسير على غير هداه ، فالحاكم الذي يملك خلق الديمقراطية لاينحرف ولا يظلم ولا يغار من أن يرى المواطنين يتمتعون بالحرية في اجلى مظاهرها والمواطن الذي يملك نفس الخلق لايستطيع ان يسكت على الظلم او يساهم في المساس بحرية الاخرين .

ويقول علال الفاسي : ان الديمقراطية تعني احترام الكل . والايمان بكرامة الانسان ، وأن تحب لأخيك ماتحب لنفسك .

الجندي ـ دمشق

كتب رئيس تحرير مجلة « الجندي » الدمشقية الدكتور صالح الأشتر مقالا قيما عن الثورة الجزائرية المظفرة وحلل كتاب « الجهاد الأفضل » الذي أرخ الثورة الجزائرية وحلل اتجاهاتها واحداثها .

يقول الكاتب : وكان من الطبيعي ان يعكف المفكرون على دراسة هذا الحدث العربي في الجزائر فتتوالى الابحاث في تاريخه وتحليله وتمجيد الطاقات الفنية التي قادت مراحله الى النصر ومن الطبيعي ايضاً ان تجيء دراسات المثقفين الجزائريين لثورة بلدهم اكثر عمقاً وشمولا ..

من هؤلاء المثقفين الجزائريين ، بل من طليعتهم الواعية ، نذكر عمار اوزيغان وزير الاصلاح الزراعي في حكومة احمد بن بللا القائمة ونذكر كتابه « الجهاد الأفضل » الذي صدر بالفرنسية والعربية في باريس وبيروت معاً في نهاية عام ١٩٦٢ المنصرم .

لست ابالغ حين اضع دراسة عمار اوزيغان في مستوى اغنى الدراسات العالمية لاية حركة ثورية تحررية ، ذلك ان صاحبها قد توفرت له وسائل البحث كأحسن ما تتوفر لباحث متمكن ، فهو يكتب عن حدث اسهم بيديه في صنعه وشارك في جميع مراحله ، يسعفه في كل ذلك وعي تحليلي بعيد الرؤية ، يجمع في اطار منسجم ثقافة غربية معمقة وثقافة عربية اسلامية كبيرة ، فاذا اضفت الى هذا كلمة خبرته العسكرية الثورية أيقنت ان « الجهاد الافضل » دراسة بالغة الاهمية لحدث عربي ضخم ، وانتهيت الى ان مثل هذه الدراسة ينبغي ان يقرأها كل مواطن عربي ليزداد وعيا بحقائق المرحلة الخطيرة التي تجتازها امته العربية في طريقها الى فجرها .

يقع الكتاب في قسمين كبيرين :

١ ـ الايديولوجية القومية الثورية

٢ ـ تفنيد العقيدة دون ـ الماركسية .

ويقول الكاتب ان مؤلف « الجهاد الافضل » لخص الحركات السياسية السلبية التي كانت تشل قوى الشعب الجزائري بالفئات الاربع التالية

١ ـ الجمعيات الصوفية الجاهلة واصحاب المذاهب المحرفة والبدع.

٢ ـ الاحزاب السياسية التي كانت تحمل شعار « الاصلاح عن طريق الاعنف » وفي نظرها ان الاستقلال يمكن ان يتوصل اليه بالعلم والعمل البرلماني أو النقابي .

٣ ـ الفئات الانهزامية التي تعتنق ايديولوجية الاستسلام امام صعوبات العمل الثوري المسلح .

وقد كان خطر هؤلاء الاستسلاميين كبيراً حقاً ، فقد كانت مواقفهم المترجرجة واعمالهم المترددة المائعة تلقي رياح الشك ، وتبذر بذور الهزيمة ، وتعوق حركة الثوريين ببث روح الخوف من نتائج المغامرة المسلحة التي اقدمت عليها جبهة التحرير الوطني .

كان الشيوعيون اصحاب هذه الايديولوجية الانهزامية التي تعلن في استسلام خامد ان « الثورة مغامرة دامية لا مستقبل لها » وانها « عملية انتحار تقوم بها حفنة من المغامرين الذين تلقحوا بالجرثومة الفوضوية » وانها « هوس يولد خطرا حقيقيا ونتائج اجتماعية وخيمة العاقبة »

٤ ــ الفئات الثورية المزيفة وهي حركات مفتعلة آثارها الاستعمار الفرنسي في الجزائر واحاط قادتها بهالات من المجد والتعظيم ليخدع بها الجماهير، وهو يستطيع في كل لحظة ان يحركها كالدمى بين يديه ، لتقتل الثوريين الحقيقيين او تقف في وجه المد الثوري الزاحف .

وضرب المؤلف مثلا على ذلك حركة «مصالي الحاج » ثم قال: غير ان الجزائر العربية استطاعت ان تكشف زيف الحركة المصالية، وان تقضي عليها .

الفكر ــ تونس

عدنا الى العدد الاول من السنة الثامنة لمجلة «الفكر» التونسية ورأينا ان نختار في جولتنا هذه مقالا نشر تحت عنوان « الثقافة التونسية في العهد الروماني » والمقال مقتطف من كتاب تاريخ افريقيا الشمالية لشارل اندري جوليان ، وقد اخترنا من هذا المقال بعض المقاطع التي جاء فيها مايلي :

كانت سوسة وطرابلس ولبدة تجلب طلبة افريقية وليبيا ، ولكن قرطاجة كانت عاصمة فكرية بقدر ما كانت عاصمة سياسية ، وكان من حسن الذوق ان يظهر المرء آخذاً من الاداب بطرف . ولقد توجه ابليوس الى القرطاجيين الذين كانوا يهتفون به في المسرح قائلا : « اني لا أرى في مدينتكم الا رجالا كرعوا من مناهل الثقافة وتبحروا في جميع العلوم : اخذوا العلم صغاراً وتحلوا به شبانا ودرسوه شيوخاً . ان قرطاجة لهي المدرسة المقدسة في مقاطعتنا وهي آلهة الشعر في افريقيا وهي اخيراً ملهمة الطبقة التي تلبس الحلة »

وكان القوم ينصرفون بالخصوص الى مزاولة دروس البلاغة والشعر .. لقد كان الخطيب في المكان الارفع في افريقيا .. مغذية المحامين » على حد تعبير جوفينال . لقد كانت تغلب على الادب والتاريخ والفلسفة النزعة الخطابية ، واذا لم تجد متنفساً لها في الحياة العامة فانها تتجلى في التمارين المدرسية وفي النوادي الخاصة

وكان الطلبة ينحدرون بصفة عامة من الطبقة الارستقراطية القاطنة في البلديات وكان بعض الاغنياء يشمل أحيانا برعايته أحد الشبان البربر النجباء فيمكنه من تنمية ملكاته في قرطاجة ولم يكن هؤلاء الشبان جميعهم مثلا يحتذى في المواظبة والفضيلة فكانوا يرتادون المسارح والملاهي وينغمسون فيما سماه القديس اغسطينوس متندما « مرجل الاهواء التي يندى لها الجبين » وكان عدد منهم مثل اغسطينوس لايقل ولوعهم بجبيباتهم عن ولوعهم بالدروس ، وكان آخرون يؤلفون عصابات من المشاغبين فيهجمون على قاعات الدرس ويشاكسون الاستاذ ويشبعون الطلبة الوديعين لكما وضربا .

وكان التعليم الذي يقوم به النحاة يزود افريقيا بالاداريين والمحامين البارعين وبعض الحكام الاعلام واشهرهم سالفيوس يوليان ، أصيل حضر موت « سوسة » وصاحب القانون الابدي « سنة ١٢٩ » ويزودها ايضا برجال كانت ثقافتهم الى السطحية اقرب منها الى العمق .

الفنان

منير زيتوني

ولد في حلب عام ١٩٢٥ ودرس التصوير الزيتي في باريس ، واختص بالديكور والزخرفة وقد اقام عدة معارض في السويد واوروبا .

يميل للانطباعية الحديثة التي طورت المدرسة الانطباعية ، وهو يعمل الآن كمصمم للديكور لدى مديرية معرض دمشق الدولي .

اللوحة

زهور

تمثل لوحة « زهور » الاتجاه الذي يغلب على انتاج الفنان زيتوني اذ أن تطوير الانطباعية نحو الاتجاه الحديث هي السمة المميزة له .

وقد أغرم الفنان بالزهور واستطاع ان يطور هذه الزهور لتتفق مع اتجاهه الانطباعي الحديث .



 زهور منير زيتوني

الحديثة ومنها الاتجاه التجريدي الذي اخذ يجتاح كافة اوربا وامريكا وحتى الدول الآسيوية المحافظة وقد تبدى هذا الاتجاه بوجهه المشرق وخاصة في انتاج الفنانين الشباب الذين استهواهم التجريد وحب الابتكار ، ولا تقل اللوحات التجريدية المعروضة عن سواها جمالا وروعة خاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار الاهمية التطبيقية التي بلغها الفن التجريدي وادخاله كعنصر تزييني في الصناعات النسيجية . ومن اشهر الاساتذة المشتركين في هذا المعرض : موراندي — سيفيريني — ستزادوني — ما كاري — تامبوري ...

المركز الثقافي العربي ـ دمشق

معرض التصوير الفوتوغرافي في اليابان

« الحياة في اليابان »

اقيم في السادس من الشهر المنصرم تحت رعاية السيد وزير الثقافة والارشاد القومي معرض التصوير الفوتوغرافي الياباني الذى يمثل مختلف النشاطات في اليابان .

وقد ضم المعرض عدداً من الصور الفوتوغرافية التي تشير الى امهات المدن اليابانية وما ازدهرت فيها من الصناعات الدقيقة كالأجهزة الضوئيـة والصناعات الثقيلة كالمعامل والمولدات الكهربائية الضخمة ومعامل السيارات .

كما تناول الحياة الثقافية فعرضت صور تمثل المسارح الفخمة كمسرح الكابوكي والرقصات الشعبية والاستعراضية .

ولم يغفل منظمو المعرض التربية البدنية وما هيأت لها السلطات المسؤولة من ملاعب ومسابح ، واعارت اليابان مايدو اهمية خاصة للاطفال وذلك باعداد دور خاصة لتربيتهم والعناية بصحتهم في مشافي خاصة انشئت لهم ولم يغفل المشرفون على هذا المعرض ابراز الاطار الجميل لمدينة طوكيو التي تضم عشرة ملايين من السكان والذين هيأت لهم فيها اسباب الراحة والعمل .

وبصورة موجزة اعطى المعرض المذكور صورة مشرقة عن اليابان ومافيها من النشاطات وليس هذا بغريب بعد أن رأينا امتداد نفوذها الاقتصادي حتى في قلب اوربا وامريكا وخاصة في مجالات الاجهزة الكهربائية الضوئية. ولابد من القول أن المعرض لم يعط فكرة حسنة عن الحياة في اليابان فحسب بل ان الصور المعروضة تتمتع بمستوى فني رائع من ناحيـة التصوير الفوتوغرافي المجرد وهكذا فقد اعطى المعرض فكرة جيدة عن الحياة في اليابان وتمتع باعجاب الشعب السوري .

ايطاليا

تفوق الرسامين السوريين في ايطاليا

١ ـ خص منظمو جائزة الرسم الدولية «سان فيتورومانو» هذا العام الرسامين العرب المقيمين في ايطاليا بجائزتهم السنوية ويشرف على تنظيم هذه الجائزة منذ ثماني سنوات الصحفي فيكتور يو كوريل «بالاشتراك مع مكتب السياحة الايطالي ومركز العلاقات العربية الايطالية .

٢ ـ دعي الى الاشتراك بالمسابقة ثلاثون فناناً عربياً ممن يدرسون في ايطاليا ، او يقيمون فيها بعد ان انهوا دراستهم ، ومن بين هؤلاء ستة سوريين هم ـ خزيمة علواني ـ عبد المؤمن صفوة ـ فيصل عجمي ـ جوليان قطيني ـ رولان خوري ـ محمود دعدوش ـ

٣ ـ جرت المسابقة في سان فيتورومانو ، التي تبعد حوالي خمسين كيلو مترا عن روما ، وقد تخلل هذه المسابقة ندوة القيت فيها البحوث عن فن الرسم في سورية ، عبر التاريخ وفي العصر الحاضر ، وعرضت لوحات للفنانين السوريين .

٤ ـ اقيت مأدبة غداء وعشاء ، اجتمع حولها المشرفون والفنانون ، وبعض ممثلي البعثات العربية والرسميون المحليون وقد وزعت الجوائز في المساء على الفائزين .

٥ ـ اشترك في المسابقة ـ ٢١ ـ فناناً عربياً .
٦ ـ عن الجمهورية العربية السورية
٥ ـ عن الجمهورية العربية المتحدة
١ ـ عن الجمهورية اللبنانية
٣ ـ عن الجمهورية التونسية
٣ ـ عن المملكة المغربية
١ ـ عن الجمهورية الجزائرية

٦ ـ طلب من المشتركين ان يرسموا لوحة مستوحاة من المكان

٧ ـ خصص مجلس المدينة ثلاث جوائز للأوائل كل لواحد منها (٧٠) الف ليرا ايطالي .

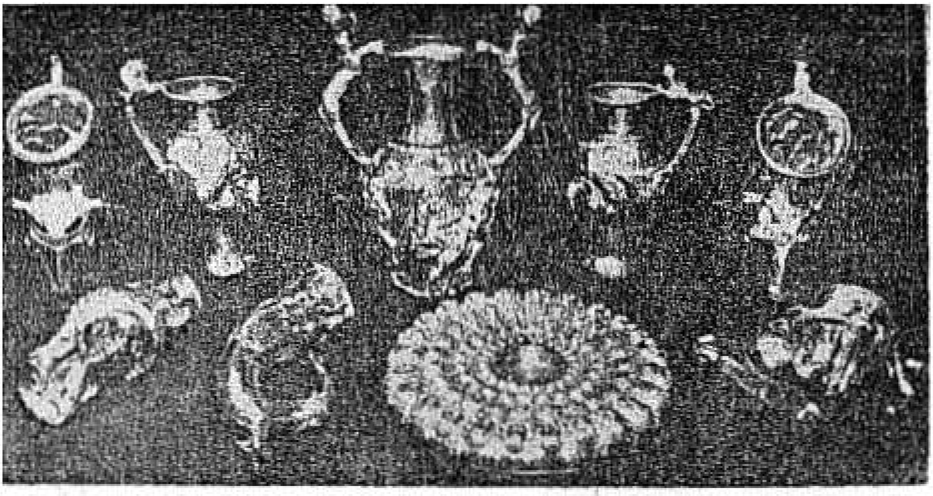
وقد فاز بها رولان خوري (سوري) وحوامل عبد القادر (جزائري) واسماعيل فتاح (عراقي) ونال الطلاب السوريون الباقون الجوائز التالية :

جوليان قطيني	دبلوم فخري
عبد المؤمن صفوة	= =
محمود دعدوش	مدالية فضية
خزيمة علواني	= برونزية
فيصل عجمي	= =

الشرق الاوسط

معرض فناني الشرق الاوسط

اجتذب فن الشرق الاوسط جماهير غفيرة من الاميركيين عندما جرى عرضه في الاسابيع القليلة الماضية في العديد من المدن الاميركية الهامة. وكانت أهم المجموعات المعروضة هي مجموعة الاواني الزجاجية القديمة وروائع اللوحات العربية التي ساهم في تقديمها بعض الفنانين العرب ومنهم بعض الفنانين السوريين وقد عرضت هذه المجموعات في متحف فرير للفنون في واشنطن .



كنز بانا غوريشتي الذهبي

باريس

معرض كنز بانا غوريشتي الذهبي

كان من المقرر أن يقام معرض كنز « بانا غوريشتي » في باريس في الواحد والثلاثين من شهر كانون الثاني الا أن رداءة الطقس وسوء الاحوال الجوية أخرت وصول المعرض الى العاصمة الفرنسية حتى شهر شباط حيث افتتح في جو من الفرح بعد انتظار طويل ، والمعرض المذكور مؤلف من صينية وثمان من الاواني الذهبية المصورة المنفذة بطريقة الضغط والتي عثر عليها في احدى المدن البلغارية ١٩٤٩ وتعود جميعها الى القرن الثالث ق.م ، وتزن القطع الذهبية الآنفة الذكر قرابة أربعة عشر كيلو غراما وتشكل جانبا من مجموعات متحف مدينة بلوفديف . وقد نعم الشعب الفرنسي بمشاهدة الكنز واصطف امام باب المعرض في صفوف طويلة بانتظار مشاهدة الكنز الذي طال انتظاره .

منظمة اليونسكو

أبلغت مؤسسة اليونسكو الدول الاعضاء المشتركين فيها ومنها سورية عن رغبتها في تنظيم حملة انسانية هدفها مكافحة الجوع في العالم والحد من البؤس الذي يطغى بظله الثقيل على قسم كبير من شعوب العالم .

وقد لقيت هذه الدعوة في جمهوريتنا كل قبول وقررت وزارة الثقافة الاهتمام بهذه الحملة

الانسانيــة ووجهت نداء الى كافة الفنانين التشكيليين للاشتراك بأعمالهم الفنيــة المستهدفة مقاومــة الجوع كعمل انساني نبيل في معرض تقيمـه الوزارة في الواحد والعشرين من شهر آذار ١٩٦٣ . وقد لقيت هذه الدعوة استجابة حارة من سائر الفنـانين هنا وستقتني وزارة الثقافة وغيرها من المؤسسات عددا من القطـع الفنية المقدمة .

كما تقرر ان تقوم بعض الوزارات الاخرى بنشاطات مماثلة ضمن اختصاصاتها .

رومـا

قام الفنان التجريدي المعروف محمود دعدوش



تجريد — للفنان محمود دعدوش —

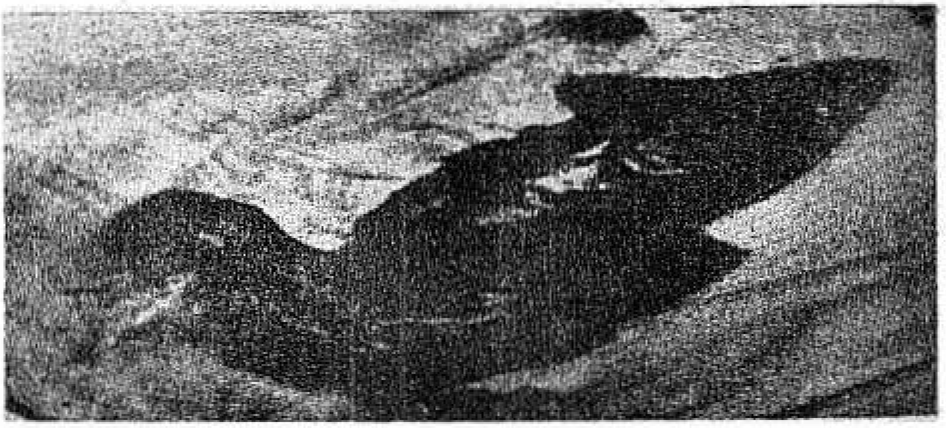
الذي شهدت دمشق جانباً من نشاطه في السنوات القليلة الماضية بعرض جانب من انتاجه الجديد في صالة « سان لوكا » بروما وقد لقي معرضه هناك نجاحا كبيراً اذ باع الفنان عدداً كبيراً من لوحاته يوم الافتتاح .

ويرى النقاد الايطاليون في الفنان دعدوش فنانا اصيلا لمدرسته الخاصة وان في الوانه اشراقة الشرق ونوره الذي يكاد يحرم منه الجو الغربي وهكذا فالفنان أيا كانت جنسيته وأيا كان اتجاهه قادر على تمثيل بلده والتعريف به

رومانيــا

معرض الطبيعة المبدعة

يقال ان الطبيعة هي الفنان الاول وانها المبدعة الفائقة قبل ان يعرف الانسان القديم ادوات الرسم وقبل ان يعرف انسان العصر التـاريخي الرسم باتجاهاته المختلفة . وهذا قول حسن اذ لو تأملنا ورقــة من اوراق النباتات او زهرة ملبجة الالوان او مجموعة من الحصى التي تقذفها امواج البحر على شطآنه تأملناها بدقة وعمق مع شيء من الخيال لوجدناها تعج بالاشكال التي ألفنا مشاهدتها في حياتنــا اليومية او تمثل اشكالا نشاهدها اليوم بمــا اصطلحنا من تسميته بالفن التجريدي وفي الشهر المنصرم بينما كان المتقاعد الروماني آنجيـل كونستانتينسكو الذي يسكن مدينة بوزو في رومانيا يقطع جزع شجرة من



من معرض الطبيعة المبدعة

الأفعى ذات الريش — رمز قبائل الاستيك القدامى

جذوع الغابة المجاورة ا كتشف على صفحة الخشب المقطوع لوحة تمثل الخطوط الرئيسية لحيوان منقرض ، وهذه اللوحة لم تبدعها يد انسان وانما ابدعتها يد الطبيعة الفنانة الخيرة ابدعتها من الياف الشجر واوعيتها النسغية .

تابع المتقاعد عمله على عدد من الاشجار المجاورة واذ به يكتشف على صفحاتها الرقيقة العديد من الصور التي يمثل بعضها الافعى ذات الريش وهي رمز قبائل الاستيك وبعضها الآخر يمثل طيوراً او حيوانات انقرضت في عرف التاريخ الطبيعي او في طريقها الى الانقراض .

وبعد عامين من العمل المتواصل في قطع الاشجار وتحويلها الى شرائح رقيقة انتهى آنجيل الى مجموعة كبيرة من الصور التي ابدعتها يد الطبيعة على مر السنين ، وكان هذا الحصاد من الكثرة بحيث اصبح كافيا لاقامة معرضين كبيرين في مدينة لوزو شهدها عدد كبير لا من سكان المدينة فحسب بل ومن مختلف انحاء رومانيا واعجبوا بلوحات الطبيعة التي مثلت مختلف الاتجاهات الفنية قديمها وحديثها .

كندا

معرض الرسام اوجين دولاكروا في مدينة تورنتو

أقيم في اواخر الشهر المنصرم معرض فني على جانب عظيم من الاهمية للفنان الافرنسي اوجين دولاكروا والفنان دولاكروا أحد زعماء الحركة الرومانية البارزين في أوربا وقد اقيم له عدد من المعارض في اوربا وامبركا وكان آخرها



السيدة ذات المنديل

للفنان اوجين دولا كروا

معرض في « تورنتو » في كندا وفيه عرض جانب كبير من انتاجه غير المعروف وخاصة منه كان منفذاً بالالوان المائية ، كان للجولات العديدة التي قام بها الفنان في العالم أثرها الكبير على حياته الفنية . كما كان لشمال افريقيا أثر عميق في انتاجاته ، وكذلك اسبانيا حيث زار الاندلس ولاحظ أن هذه المنطقة قريبة ومختلفة بآن واحد عن المغرب . وتعتبر الرسوم التي نفذها هناك أجل ما أوحت به اسبانيا الى رسام افرنسي فهو كفنان رومانسي كان يحلم بزيارة اسبانيا والتعرف عليها عن قرب اذ لم يكن يعرفها قبل زيارته لها الا من خلال رواية دون كيشوت .

وعندما زارها كان اعجابه بها كبيراً وخاصة طبيعتها وزرقة سمائها ، وقد رسم الكثير من مناظرها غير أنه كان بارعاً في التقاط مميزاتها وتقاليدها وخاصة ملابس شعبها مثال ذلك « السيدة ذات المنديل » .

وقد تدفق على معرضه في تورنتو عدد كبير من الزوار للاطلاع على لوحاته القليلة العدد والعميقة الأثر في نفوس الشاهدين .

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

يقدمها فؤاد الشايب

السوق الاوروبية المشتركة ايضاً ـ المثقفون في السوق ـ مجموعة من المواقف السلبية ـ وأخرى من المواقف الايجابية ـ الآراء بانشاء اصحابها ـ العودة الى الموضوع محتملة ، ولكننا لا نعد بها ـ

المثقفون في السوق

بين الآراء السلبية ، ضد دخول السوق الاوروبية المشتركة رأي بريطاني متشكك ، لايريد ان يأخذ بنصيحة امريكا بضرورة الدخول لتعديل كفة أوروبة المائلة نحو الدكتاتورية ، إذ أن بريطانيا لعاجزة حقاً عن أداء هذه الوظيفة الشاقة ــ **تعديل الكفة ــ في عملية التوازن الأوروبي** ، فقد مضى ذلك الوقت ، حيث كانت بريطانيا حاكماً في أوروبة أو حكماً ، ويقول (كنغسلي أميس) أحد المثقفين الذين استفتوا في قضية السوق ان بريطانيا تقارب الوحدة السياسية الاوروبية ، بكل حذر . ويقول مستفتى آخر ، هو المؤلف سي . اس . لويس ان التكهن بمصير بريطانيا في أوروبا ، يشبه التكهن للاعب الشطرنج : اي بيدق سيخسر ، اذا لعب !

ان طريق بريطانيا في اوروبة الجديدة الموحدة ، يقول (جيمس موريس) أحد كبار المثقفين ــ طريق رومانطيقية ، فيها أحلام ، وأماني ، ومخاطر معاً !

والمتفائلون انفسهم الذين يدعون بريطانيا الى عناق الوحدة الاوروبية بلا تحفظ ، يعترفون أن بلادهم **قد فقدت قوتها كدولة اولى في أوروبة ولابد أن تستعيد قوتها شريكة ، لا قائدة** . والخير لها أن تطرق ابواب التجربة الجديدة ، من أن تترنح بين الاشباح ، أشباح التوهم والغرور ، وماضي المجد السعيد ! ان بريطانيا قد فقدت امبراطوريتها ... هذا واقع . **ولايجديها أن تبقى لشعوب الدومنيون ، صورة زيتية خرافية ، يتجمع الناس حولها للتبرك بقدسيتها .**

وبينما يندفع بعض البريطانيين بحماس وراء السوق ، انصياعاً للنصح الامريكي ــ وامريكا تريد بريطانيا في أوروبة ، حصاناً طروادياً ــ نرى البعض الآخر من المثقفين يهيب ببلاده أن تتجنب الانهيار في دخول السوق المشتركة ، لمجرد ان امريكا تحبذه ، ويدعو الى الحذر من امريكا ومن اوروبا على السواء . من هذا الفريق (جون ابورن) الذي يتناول موضوع الاستفتاء بنظرة متشائمة ، منبياً في المقام الاول إلى الكارثة التي ستجرها امريكا على العالم ، في كفاحها ضد الشيوعية ، قائلا : اذا قدر لنا أن نعيش الى مابعد الكارثة ، فسنعطي رأينا الصحيح في الموضوع. ويقول ان المشادة حول السوق المشتركة .. ، أندخلها ام لاندخلها ... في هذا الجو التراجيدي العنيف ، مشادة اكاديمية تافهة القيمة . واذا كان لابد من التقدم برأي ، وهو سياسي لااقتصادي ، فالرأي هو أولا واخيراً : **سيادة بريطانيا .** انني لن اقبل بحكم الأغيار علي ، **وافضل ان اموت وأنا أقول : لا .. ! لا** ــ للرؤساء الامريكيين جميعهم . لا ــ للجان الأوروبية ، المانية وفرنسية على السواء . لا ــ

لوزراء الدولة الانكليزية ، هؤلاء الوزراء لجناء الرعاديد !

ويصر المؤلف الكاتب (اوبسورن) على ان الكارثة قادمة لا محالة ويقول بسخرية انه عندما تنطفيء مدينتنا الى الابد ، ويقدر لبعض الناس ان يعيشوا ليهيموا في القفار الموبوءة المسمومة ، وما قيم تسيل على خدودهم ، فانهم سيذكرون اصواتهم ، ويقولون كم يمكن ان يكونوا مغتبطين لو كانوا احياء وعلموا ان المستر كنيدي وقف ثابتاً في الدفاع من اجلنا ..!

ولعل من اغرب الآراء ، ماأتى به (جون روبنسون) الذي يؤكد ان العالم ماض نحو التعايش والتعاون بمعنى أن دخول بريطانيا في اقتصاد السوق المشتركة وسياستها ، سيكون لطمة للتعايش والرجاء فيه . **ان الحركة الاوروبية الغربية ، حركة انفصالية ذات نزعة اقليمية سياسية ضيقة ، سيعززها التحاق بريطانيا بها .** أما اذا بقيت بعيداً ، ملكت حريتها التي قد تستطيع معها أن تعالج الانحراف الأوروبي ، ويرى (روبنسون) أن بريطانيا تتخلى عن آسيا ، لمصلحة اوروبا ضد الشعوب الأسيوية . **ولعل اقل مايقال في هذا السلوك انه سلوك سيء .**

وقد سبق أن عرضت في الجولة السابقة رأيا بريطانيا يقول **أن تأليف وحدة اوروبية على ضفة ، دون ضفة ، ليس توحيداً لأوروبة ، كما يزعم الالمان والفرنسيون ، بل تمزيقاً .** (١)

وتوضيحاً لهذا الاتجاه في النظر الى الوحدة الاوروبية التي تنزع اليها السوق المشتركة ، اسوق بعض التعابير لخصوم هذه الوحدة . من هذه التعابير العنيفة ، ان اوروبة التي تمرض نفسها اليوم ، ليست اوروبا التي يريدها البريطاني المخلص لاوروبيته ، بل جزء صغير منها . انها معركة الجزء ، ضد الجزء الآخر . وان هذه التجزئة ، سياسة نابعة من روح شعب وضع نفسه دائماً خارج اوروبة ، وضد اوروبة ، هو الشعب الألماني .

ثم ان البريطانيين كانوا دائماً مثالا يحتذى به في العالم كله ، لافي اوروبا وحدها . ولبريطانيا روابط بالكومونولث أمتن من روابطها باوروبا ذاتها . ويذهب الباحث العالم اي . جي . بي . تايلور **الى ابعد من هذا فيقول ان بريطانيا استغلت شعوب الكومونولث حقباً طويلة لمصلحتها ، ومن الواجب عليها ان تمد لهذه الشعوب اليوم يد الصداقة والعون ، لا أن تتخلى الى تجمع اوروبي اقتصادي ضد مصلحة تلك الشعوب .**

---

(١) المعرفة — جولة الشهر — العدد الاول — السنة الثانية .

لانريد أن ننضم الى القلة من الدول البيضاء ، ضد الكثرة من دول الفقر واللون الاسود ؟ بل علينا أن نرتفع بها من الضيق والحاجة ، بدلا من أن نهبط بها الى ادنى . فالسوق المشتركة ، كما يرى تايلور ، **هي حاجز لوني يقام بوجه الملونين ، اقتصاديا ـ على الاقل ـ ان لم يكن سياسياً ، ولهذا ـ يقول تايلور بتعبيره ـ استطيع ان افهم لماذا يؤيد جميع الأغنياء دخولنا السوق المشتركة . فالاحتكارات والتروستات الصناعية والتجارية ، كانت ابداً الى جانب هذه الأسواق ، لجعل الغني اكثر غنى ، والفقير دائم الفقر . والسوق المشتركة هي حقا على نقيض الاشتراكية ، ولا ادري كيف يمكن لاشتراكي أن يؤيد وجودها .**

ويعطف هذا الاتجاه على رأي المتشائمين الذين لايتوقعون لبريطانيا في اوروبة الوحدة هذه ، اي قوة أو اي فائدة . وهؤلاء يقولون أن مهمة بريطانيا ، ليست أن تحل مشاكل فرنسا والمانيا . والسوق المشتركة ، ليست سوى سياسة فرنسية المانية مصلحية . كذلك ليس صحيحاً أن الوجود البريطاني في السوق المشتركة ومشاريع المستقبل ، سيجعل الالمان مسالمين ، والفرنسيين ديموقراطيين . **ولن تنقذ بريطانيا السلم ، ولا الديموقراطية ، بل هي اقرب بالاختلاط أن تلتقط الرجعية من البعض ، والدكتاتورية من البعض الآخر .**

ويقول تايلور نفسه : انني افضل نهرو على اديناور .. وعلى دوغول؟! من ذا الذي لايشاركني هذا التفضيل ؟!

بالواقع إن الكثيرين ، بل الكثرة الغالبة في بريطانيا ، لا يشاركون السيد تايلور ، هذا التفضيل . وانه ليطرح سؤاله استنكاراً لا استفهاماً . ولعل هذه الكثرة الغالبة تنظر الى الكومونولث تساعده بريطانيا ، على النهوض ، كحجر ثقيل مشدود الى قدميها وهي تعوم ، ولا تريد أن تغرق ... حتى ان بعض المثقفين الذين ينصحون الى دولتهم ان تنضم الى السوق ، وتدخل في مشروع الوحدة الاوروبية ، انما يفعلون ذلك ، بدافع الشعور بخطر العزلة عن الكتلة الاوروبية الغربية الجديدة . ومن هؤلاء (جون دوغلاس برنغل) الذي يطلق الشعار التالي داعياً الى السوق : **(اذا لم تستطع قهرهم فقف الى جانبهم) ،** نسجاً على **المثل العامي المشهور : اليد التي لا تستطيع ان تعضها ، قبلها .. !** وفي هذا الرأي مافيه من مراءاة ، وصف بها الانكليز انفسهم ، على النحو الذي اوردته في تحليل التجربة السياسية الانكليزية ، **في الجولة الماضية من المعرفة .** ويذهب (برنغل) في سرد موقفه الشخصي من

السوق المشتركة واوروبة الوحدة ، بقوله انه عشائري النزعة ، اسكتلندي الموقف ، يمنح ولاءه لوطنه الصغير ، حيث بيته ، اكثر مما يمنحه لبريطانيا الكبرى نفسها وان يكن هذا الكاتب الأديب يعترف بان الأمة الدولة اصبحت في زمننا الحاضر **زياً قديماً** ، فهو يعود الى القول بأنه مادامت هناك سيادة ودولة ، فهو يفضل ان ينتمي **الى دولة صغيرة حقيقية كبريطانيا بدلا من أن ينتمي الى دولة مركبة ، كالدولة الأوروبية ، الا اذا كانت هذه التركيبة سبيلا الى اتحاد عالمي ، وليست كتلة ثالثة مسلحة .**

وينهى رأي آخر عن التغزل باوهام رحلة بريطانيا عبر اوروبا . انها نزوة رومانطيقية ، يقول (إ. مردوك) ، لايخدع بها سوى السذج لنترك اوروبة هذه تفعل مايحلو لها ، ولنفكر بالكومونولث وحده كقوة سياسية بريطانية .

وثمة مدرسة ادبية ، ضد السوق ، يتزعمها اي ، ام ، فورستر **تنظر الى اوروبة الاقتصادية ووحدتها ، كحركة تجارية ضخمة وقميئة ، لا تلبث أن تهدم الثقافة ، وتشرد الفكر ، وتشوه المدن ، وتلتهم الريف ، وتعطل منابع الجمال .** واين هذه الحركة المادية ، من احلام الزمان في اوروبة مبدعة مفكرة ، حالمة ، وحارة ؟!

الى هنا ، ولست ازعم أنني احطت بجميع جوانب الموقف السلبي البريطاني من السوق المشتركة والوحدة الاوروبية المنشودة ، على ان الصورة السلبية وقد استغرقت اكثر من نصف الحديث في هذه الجولة ، فلابد أن اترك بقية الحديث للصورة الاخرى المقابلة : الايجابية .

وسأحاول حصر الموقف الايجابي من السوق المشتركة ، كما يعرضه المثقفون ، في الجوانب التالية ، ثم اعود الى ايضاحها باثناء اصحابها :

ـ أن بريطانيا خسرت وجهها القديم الاستعماري فاما ان تجدده ، أو تفقد وجه وجودها .

ـ أن قوة ثالثة في العالم تعدل تيارات الخصومة المذهبية والمنافسة الاقتصادية بين امريكا وروسيا السوفيتية ، او بين الرأسمالية ، والاشتراكية ـ ضرورة اساسية لانقاذ العالم من الانجراف وراء المتنكرين ، ولابعاد شبح الحرب ـ **ولايتصور البريطانيون إلا برعب ، ان ينقلب دورهم التاريخي في العالم ، ليصبحوا مستعمرة تابعة لأمريكا في القارة الأوروبية .**

ـ ان بريطانيا اذا انضمت الى السوق المشتركة ، ثم تبعتها كما هو قائم فعلاً في المخطط الانكلو ساكسوني ، **مجموعة الدول السكندينافية** استطاعت أن تضمن استمرار الطابع الديموقراطي الغربي في حياة الوحدة الاوروبية ، تجاه اي انحراف محتمل قد يظهر قريباً او بعيداً من الجانب الألماني او الفرنسي .

ــ **ان التجوبة الاقتصادية** الناجحة على الصعيد الاوروبي ، مرحلة لابد منها لمكانية **التجوبة السياسية** . فاذا ماتحررت بريطانيا من التزاماتها المعنوية والمادية تجاه دول الكومونولث ، فان السوق المشتركة ، ميدان جديد لنشاطها ، وصناعتها، وثقافتها ايضاً . وان قيام نظام السوق الاوروبية المشتركة ، اهم حدث في اوروبة ، بعد حدث قيام النظام التمثيلي النيابي ، في كل تاريخها الحديث . اما انشاء تجمع برلماني اوروبي ، فأمرة يجب ألا تتم في غياب بريطانيا .

ــ لا أمل من تطوير الاستعمار الى علاقات ودية بين بريطانيـــا والشعوب الملونة . فلا بد لبريطانيا من أن تختار مستقبلها الى جانب **الجبهة البيضاء في اوروبة** .

ــ رانت على بريطانيا في الثلاثين سنة الاخيرة روح انعزالية ظهرت في فنونها وآدابها ، حتى لتصبح الاقليمية البريطانية زياً رائجاً ، بل ويغدو مرضاً متوطناً . بينا تسود المثقفين قناعة بان بلادهم لن تضيع في الوحدة الاوروبية ، بل تضيف اليها من ذاتها، ومن اهم ما قد تضيفه ، **يسارية جديدة غير ماركسية ، يجب أن يكون من اهدافها ردم الفروق الاقتصادية بين الدول المتقدمة والدول المتأخرة** ــ وهـــذا اتجاه مثالي يدعو له بعض المثقفين البريطانيين ــ .

ــ ان دوغول واديناور ليسا خالدين . فاذا ماذهبا ، ذهب معهما النفوذ الشخصي ، وحلت محلها قواعد ثابتة لتعـــاون اوروبي مصلحي ، تعززه تقاليد ثقافية عريقة من جهة ، ووعي وحدوي اوروبي ، اصبح ملموساً في تيارات الرأي العام ، وعلى الاخص لدى الاجيال الجديدة من جهة ثانية .

ــ ثم هناك قناعة ثقافية لدى مجموعة غير يسيرة من المفكرين تقول بأن هذا العصر ، هو عصر انقراض (السيادة الوطنية الضيقة) تحت ضغط العلم ، وتطور المواصـــلات ، وتعقد المجتمع الصناعي ومشاكله . **ولا حياة بعد اليوم الا للتجمعات المنظمة المنسجمة ، التي تستطيع بذكاء ان تعالج مسائلهـــا الداخلية لتواجة عالماً كبيراً لامجال فيه للمغامرين على اساليب الغزو القديمة .**

ــ ثم هناك الاجماع الذي انعقدت عليه آراء المثقفين ، بأن الثقافة البريطانية جزء صميمي من التراث الحضاري الاوروبي ، وأن هذا التراث أدبا وفناً وعلماً وحدة متميزة لامثيل لها في تاريخ الاعوام الثلاثمائة الاخيرة . **فليس بوسع بريطانيا اذا انكرت الوحدة الاوروبية الا ان تنكر ذاتها .**

الآراء بانشاء اصحابها

هذه هي باجمال ، خطوط الايجابية البريطانية نحو السوق الاوروبية المشتركة ، سأحاول فيما تبقى من مجال للجولة ، أن أسوق بعضها بانشاء الاقلام التي كتبتها ، ليتم للصورة وضوحها .

يعترف العـــالم جورج تومسون أنه لايفقه

تفاصيل الحسابات الاقتصادية . ولكن الذي يؤكده ان قد مضى ذلك الزمان الذي تستطيع فيه دولة ذات خمسين مليوناً من السكان ان تؤثر في شؤون العالم . **لذلك ينصح بدخول السوق الاوروبية ، لتكون بريطانيا على الاقل ذيلاً في مؤخرة كلب .. ذي حجم معقول !**

والقضية ليست قضية حزبية ، بالنسبة للعالم والمؤرخ فيليب توينبي . وهو الآخر يعترف بانه لايفهم الاقتصاد ، ولا يهمه امره ، ويلاحظ أن حزب العمال الذي يحبه هذا المثقف هو ضد السوق ، وحزب المحافظين الذين لايحبهم مع السوق ، وبصرف النظر عن مبادئه السياسية على الصعيد البريطاني ، **فهو مع المحافظين لأنهم مع السوق ، وضد العمال لانهم ضد السوق** .

ان غرائزي ، وموقفي الطبيعي ، كمواطن بريطاني تقول لي بالانضمام الى السوق الاوروبية . **ولا احب تلك العصبية الانكليزية الصغيرة.**

أما أن السوق الاوروبية المشتركة يمكن أن تتحول إلى مؤسسة احتكار اقتصادي ضد الشعوب الملونة فقد اشار الى هذا الاحتمال مثقفون عرفوا بثقافاتهم الانسانية الرفيعة محذرين من الغاء العصبيات الوطنية الصغيرة او تحويلها الى **عصبية اوروبية على نطاق واسع ، قد تغدو من جديد ترسانة سلاح ، واداة عدوان .**

ويلح (جون واين) على ان مايجري في اوروبة ، تحول جيولوجي لامحيد عنه ، ان خيراً أو شراً ، ان العالم كما يقول هذا الكاتب ، **يسير منذ خمسين سنة سيراً مطرداً نحو التجانس وتقارب المتشابهات** ، حتى ان الحدود الوطنية تغدو فرضيات شرعية لا اكثر . ولقد فرض التجانس نفسه بالسلم او بالحرب على الولايات المتحدة الامريكية ، كذلك فرض على جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، وعلى مساحات واسعة في الهند . **واليوم يفرض التجانس نفسه على اوروبة الغربية ليس بالقنابل والحراب ومعسكرات الاعتقال بل بالحجة الاقتصادية الدامغة** . وليس عجباً ان يتم هذا التحول اليوم بل العجب الا يحدث منذ خمسين عاماً ، وباستطاعتي ان أرى المحاذير ، ولكني لست مستطيعاً أن أرى طريقاً اخرى ...

ويقول آش . جي أيسنك احد علماء النفس ، ان في الاختيار البريطاني مجالا كبيراً للعاطفة ، قبل الحكم العقلي او الحسابي ، **ولابد من الاتجاه مع العاطفة** مهما بالغنا في تقدير الجانب الحسابي .

ويؤكد (ماكس بيلوف) ان عناصر المجهول في هذه المغامرة ، كثيرة . لذلك لابد من اتخاذ القرار ، **والفعل الواقع مسؤول بعد ، عن ايجاد مبرراته** ، كما يحدث في كثير من وقائع التاريخ . وليس من المعقول ان يجري كل شيء في حساب

ولا يريد السيد ويليام هايتر أن تتلكأ بلاده وهي تراجع حسابات المغانم والمغارم الاقتصادية . فلنعترف **ان هـذا الاتحاد الذي ندخله ليس اقتصادياً ، بل سياسياً . ولماذا لا ؟!**

ويدور التردد البريطاني في مجمله حول مصير علاقات الكيان البريطاني مع دول الكومونولث ، فيقول تي . إر . فايغل انه من الممكن أن تقيم بريطانيا من نفسها حامية لشعوب الكومونولث ، ومركزاً لتلاقي الاجناس والشعوب في العالم ، **وقد تكون بذلك اصلح حالا ، وارسخ اقتصاداً وسياسة . ولكن من ذا الذي يضمن لنا رغبة تلك الشعوب في دخول الشركة معنا .** لا ارى التاريخ يمشي نحو هذا الاتجاه . بل بالعكس ! اذن ، فطريقنا اوروبة ، ولاخيارلنا .

بل قد يكون البديل ، ان نصبح ولاية من الولايات المتحدة الامريكية ، او الاتحاد السوفييتي !

ويهيب (جون غروس) بقومه الا يترددوا في دخول السوق الاوروبيـــة المشتركة اذ يقول **أن اوروبا بدوننا سيحكمها الألمان والشركات الاحتكارية ، ومعنـــا ستحكمها الأفكار الحرة ، والتيارات المعتدلة** . فلنخرج الى لقاء العالم الكبير ثانية عبر اوروبـــة ، ولنطو الكثير من تقاليدنا الانسحابية الانغلاقية ، التي ستؤدي بنا الى ضمور شخصيتنا وانطفاء اشعاعنا .

ومعلوم أن الانكلوسا كسون ، أمام افلاس العديد من النظم الديموقراطية البرلمانيـة في العالم يصرون على أن تبقى هذه النظم ، مع تطويرها صوى دروب المستقبل ، وعلى هذا فانت تقرأ من المثقفين المؤمنين بهـذه النظم ، يرون أن تضحيه بريطانيا بشيء من حريتها وكيانها في سبيل انشاء البرلمان الاوروبي ، الذي يدفع النظام الديموقراطي نحو المستويات العاليـة ، وتتألف حوله مجموعة شعوب لاشعب واحد فقـط ـ ان هذه التضحية ، ضئيلة اذا قيست بالمكاسب الناجمة عنها ، ويقول في ذلك الكاتب بيتركالفوكوريس **ان هذا التنازل لن يضعف بريطانيا ، وسيقوي في الوقت نفسه فضائل النظام الديموقراطي ، الذي كانت بريطانيـا ناسجة خيوطه الاولى ، وتبقى مسؤولة عن تطوره واستمراره .**

واخيراً فان (كولن ويلسون) يعتقد أن السوق المشتركة افضل لبريطانيا من منظمة الأمم المتحدة نفسها . لأن السوق المشتركة خطوة نحو حكومة عالمية تعطي نفسهـــا حق التدخل في شؤون وطنية داخلية ، **وتحقيق هـذا الحلم (حق التدخل) لابد ان تسبقه خطى ، احداها ، هـذه التنظيمات الاوروبية الاقتصادية .**

ويقول (ويلسون) هـ ان سياسة المراحل ، وارتقاب الظروف، ساعدا دائماً في تحقيق المثاليات الكبرى ، فالماركسية لم يكن ليتاح لها أن تنتشر لولاظروف الحرب العالمية الاولى.

ويؤكد هذا المؤلف على أن الاقتصاد : هو الوسيط الكيمائي الصالح للتآلف والتقارب والتجانس. ولطالما جرب الكثيرون شتى الاسباب لخلق تجانس عالمي ، دون نجاح . فلقداخترع برناردشو الفبائية عالمية مالبثت ان ماتت ، كذلك اندثرت لغة (زامنوف) التي عرفت بلغة (الاسبرانتو) ، **أما لغة (بيتمان) في الاختزال فقداصبحت عالمية لانها ضرورة اقتصادية تجارية.** فالسوق الاوروبية المشتركة ، بتنظيمها الاقتصادي العلمي الدقيق ، الذي اعطى فعلاً ثماره الفنية ،قد تصبح الوسيط الكيمائي ، الذي تنشده الامم المتحدة ، بغية الوصول الى تجانس دولي على نطاق عالمي واسع . لذلك فان قيام السوق الاوروبية، اهم حدث في تاريخ اوروبة منذ ثلاثمائة عام.

شعاب الموضوع

الى هنا ، والجولة في شعاب الموضوع ، لاتزال مغرية مستمرة الدعوة ، على الأخص وأن الخمسين مثقفاً الذين استفتوا ، قد ازداد عددهم ليبلغ المئة ، حتى ليكاد البحر وراءهم أن يصل على الشاطىء كلما خيل اليه انه قد دنا منه ، وبلغ وطره . وما أظن أن حدثاً من احداث العالم في مدى نصف القرن الأخير ، تجمع له مثلما تجمع لموضوع السوق الاوروبية المشتركة ، من مفكرين وعلماء وادباء ، وكتاب ، وقد رأينا مما عرضناه في الجولات الثلاث ، كيف يدور المثقفون حول قبة الموضوع الشاهقة، ويحاولون رؤيته من مختلف الجهات السياسية ، والاقتصادية، والاجتماعية ، والتاريخية ،فتتضارب آراؤهم ، وهي اذا تلاقت على مبدأ ، اختلفت على التفاصيل . ولم يكن قط غرضنا من مرافقة المثقفين الانكليز ، أن نقصر الفضول على معرفة الموقف البريطاني ، بل قد عرفنا وراء هذا الموقف من حقائق وتطورات وخلجات نفسية وفكرية ، تتعدى الموقف البريطاني الى المدى العالمي الوسيع . فقد عرفنا من آراء المثقفين ، كيف تجتاز الديموقراطية الغربية محنة قاسية ضمن جدران القربين انفسهم . وعرفنا شيئاً من المخاوف التي تساور النفوس حول براءة الهدف الاوروبي في آخر مراحل التنظيم الاقتصادي !! كذلك فقد اخذنا باطراف نظريات في الاسس التي تقوم عليها الوحدة الاوروبية ، بدءاً من الاقتصاد الى السياسة ، الى الادارة . وعبرنا ، مروراً ، ببعض الدوافع الكامنة وراء الهزات السياسية الظاهرة ، واتنا لنعرف من تلك المطالعات ، سر تجرؤ فرنسا على بريطانيا ودفعها عن عتبة السوق المشتركة مستهترة بها غير عابئة بمصير العلاقات الأوروبية معهما . بالاضافة الى ان بعض آراء المثقفين قد كشف عن امكان تصور المستقبل

القريب بين الاوروبيين والشعوب الملونة في آسيا وافريقيا ،بما هوجدير أن يهزها ويثيرهواجسها. كذلك قد طرح هؤلاء المثقفون للبحث ، مبادىء تكوين الوحدات السياسية الحديثة . هل ننطلق من التجانس الاقتصادي ، الى التجانس السياسي ، أم ان الواقع السياسي هو الأصل ، الذي يجب ان يوجد من بعد، مبرراته في التجانس الاقتصادي؟!

وسؤال اكثر طرحا للمسالة : هل الوحدة الاوروبية ، عملية اقتصادية ام سياسية . وماحصة كل من الاقتصاد والسياسة .. فيها ؟! ويجب ان نعترف بأن ما عرضنا من آراء لم يكن حاسماً ، بل كان الى حدمامثيراً ... مثيراً للتفكير والتأمل، والفضول ، وحب المتابعة ، وهرش الرأس .

على اننا لا نعد بالعودة الى الموضوع نفسه قريباً.